جدل أدبي:

لا حــاجــة بنا إلى الإنتــحــار

إميل حبيبي

ربما يكون الأديب الإسرائيلي المعروف، يزهار سميلانسكي، الأكبر سناً بين الأدباء الإسرائيليين الذين لا يزالون على قيد الحياة. ونتمنى له ولهم العمر المديد لعلهم يقتنعون بأنّ جراح «الفلسطيني المصلوب» أعمق من أن يدملها مرور الزمن أو أن يُخفيها أي إعلام.

ويزهار سميلانسكي هو، على حد علمي، أول أديب إسرائيلي عبري جرؤ على تعرية المباذل التي اقترفتها القوات المسلحة الإسرائيلية ضد القرويين العرب الفلسطينيين، إبان ما سمّوه باسم «حرب الإستقلال». وذلك في روايته الشهيرة عن «خربة خزعة» التي تُرجمت إلى العديد من اللغات ومنها العربية. فاستقطبت التقدير والإحترام له ولزملائه الأدباء الإسرائيليين على شجاعتهم الأدبية في تعرية مباذل ساستهم وحكامهم. فأصبح في نظرنا، نحن الكتّاب العرب الفلسطينيين، أحد البراهين الساطعة على قدرة زملائنا الإسرائيليين أن يحافظوا على جذوات ضمائرهم مشتعلة في هذا السرداب المظلم من النزاع الدموي المقيم الذي يهدد بإخماد الأنفاس ناهيك عن الضمائر.

وكنّا، في غالب الأحيان، صادقين في تطلعاتنا هذه. ولم نكُفّ عن نظرتنا هذه حتى حين كنّا نُصاب بخيبة الأمل. ولم نكُفّ في الوقت نفسه، عن

مطالبة زملائنا اليهود الإسرائيليين بصيانة مشاعل إنسانيتهم من أن تطفئها سموم ما يسمى باسم «مصلحة الأمن الإسرائيلي العليا» و«خطر القضاء على الدولة». إنما طالبناهم بما نطالب به أنفسنا: أن نعترف سوية بما كُتب لنا ولهم من عيش في وطن واحد - كأننا مسافرون في سفينة واحدة جاء في الحديث الشريف عنها: «أن قوماً ركبوا في سفينة. فنقر أحدهم موقعه بفأس. فقالوا: ما تفعل؟! قال: هذا موقعي أصنع فيه ما شئت. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا. وإن تركوه هلك وهلكوا».

وأخذنا على بعض زملائنا العرب أنه تنازل، بكرم حاتمي، عن مطالبة الزملاء الإسرائيليين بما طالبناهم به من القيام بواجبهم في التضامن مع شعبنا العربي الفلسطيني، الذي هو الضحية الأساس لهذا النزاع الدموي، وفي تعرية الظلم القومي والفردي الذي أنزله الإحتلال الإسرائيلي بشعبنا الصابر. فمن شأن هذا «التنازل العربي»، الذي تكرر في مجالات أخرى، أن يوهم بعض الزملاء الإسرائيليين أن في مقدورهم التغاضي عما يقوم به حكامهم من نقر موقعهم وموقعنا - في السفينة الواحدة - دون من رادع أو من مراقب وأن نهلك وحدنا وأن ينجوا وحدهم!

وكان جاء في الأمثال الإغريقية القديمة أن «الآلهة، حين تقرر إهلاك قوم، تصيبهم بالجنون». ويبدو لنا أن «عدوى الآلهة» هذه قد انتقلت، في المدة الأخيرة، من الشارع الفلسطيني إلى الشارع الإسرائيلي. فبقدر ما يتصاعد الإتزان وهدوء الأعصاب لدى القيادة الفلسطينية، وفي قراراتها، يتصاعد التخبّط وتتصاعد الهستيريا لدى القيادة الإسرائيلية وفي قراراتها.

والمثل الإغريقي القديم، أعلاه، لم يميّز بين الساسة والأدباء في عدوى الجنون. وقد يكون عدم التمييز، هذا، راجعاً إلى الإقتناع التراثي بأن الأدباء هم آخر من يفقد أعصابه. فإذا فقد الأدباء أعصابهم، من سينقذ مجتمعهم من الهلاك؟! وهكذا يصبح من واجب المجتمع الإسرائيلي أن يعود إلى رشده، قبل فوات الأوان، نظراً للإشارات الخطرة التي تبدّت مؤخراً في مواقف أديب إسرائيلي مرموق في مستوى يزهار سميلانسكي.

فقد عاد هذا الأديب الإسرائيلي الكبير وفاجأنا، مرة ثانية، مفاجأة سلبية

مذهلة شعرنا إزاءها يمثل شعور ذلك المحارب الذي يرى أبواب قلعته المحاصرة يفتحها زملاؤه أمام جيش المعتدين. بطعنتي «هراكيري» - طعنتين إنتحاريتين - أجهز يزهار سميلانسكي على تاريخه الأدبي والفكري كله.

في طعنته الذاتية، الإنتحارية، الأولى - في مقال نشره في صحيفة «هآرتس» بتاريخ 18 نيسان (إبريل) 1995 - أجاز لنفسه اتهام شعبنا الفلسطيني الصابر بأنه من «أكلة لحوم البشر» لا أكثر ولا أقل! وذلك بادعائه أنه لم يسمع أي صوت فلسطيني يستنكر، «إستنكاراً ذا وزن»، الإعتداءات الإنتحارية التي يقوم بها شبان صغار السن أوهمهم كبارهم أنهم، بهذه الوسيلة المغايرة لطبيعة البشر، سيدخلون إلى جنة عدن مباشرة.

وأما في الطعنة الذاتية، الإنتحارية، الثانية - التي جاءت في مقال نشره أيضاً في «هآرتس» بتاريخ 27 شباط (فبراير) من هذا العام - فلم يكتفِ بهذه التهمة الحقيرة (أكلة لحوم البشر). بل أضاف إليها دعوة وجهها إلى حكومته أن تتوقف عن التفاوض مع «أكلة لحوم البشر» هؤلاء!

وجرت، في الحالتين، محاولات استهدفت إخفاء هذين المقالين عن أبصارنا في حين انشغل كتّابنا، وبحق، في الرد على مقال الكاتب الإسرائيلي المرموق الآخر، عاموس عوز (5 آذار، مارس، هذا العام)، الذي لم يكتف بالمساواة بين مآسي الشعبين - الشعب المعتدي والشعب الضحية - بل ادعى أن «إسرائيل تخلّت عن حكمها الإضطهادي على 85 بالمئة من سكان المناطق (الفلسطينيين)، حتى هذه اللحظة، فيما لم يتوقف الفلسطينيون عن إعمال يد القتل فينا»! وأكثر من ذلك: فقد ادعى أن المصائب التي حلّت بنا «أنتم ونحن مسؤولون عنها»!

والحقيقة - كما اعترفتُ في مقال لي في صحيفة «هآرتس» (95/5/8) رددت فيه على طعنة يزهار سميلانسكي الإنتحارية الأولى - «أنني حاولت تناسي مقال يزهار سميلانسكي كما لو أنه لم يكن. بل وجدت نفسي أحاول إخفاءه عن عيون معارفي وزملائي. فما من أحد تحدث عنه أمامنا كما لو أننا نواجه عاراً في إطار العائلة الواحدة فنحتفظ به سراً مكنوناً في بئر عميقة من الصمت»!

واسمحوا لي بأن أترجم لكم، فيما يلي، فقرات أخرى من ردّي هذا على يزهار سميلانسكي في العام الماضي من حيث أنني لا أملك من قوة الأعصاب ما يؤهلني للرد على مقاله الثاني. وهاكم بعض ما جاء في ردّي الأول باللغة العبرية وفي الصحيفة نفسها:

«لقد أُصبتُ بخيبة أمل شديدة ذكّرتني بخيبة الأمل التي أصابتني في ليلة التاسع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) العام 1956 حين جاءني أحد معارفي اليهود، من نشيطي حركة «مپام»، وأبلغني بالفظائع التي ارتكبت في تلك الليلة نفسها أمام مداخل قرية كفرقاسم. حدثّني عن الأطفال والنساء الحوامل الذين قُتلوا بدم بارد. فلم أُصدّق أن يقوى آدميون على ارتكاب مذبحة بهذا المدى حتى ولو كانوا في ثياب الجندية وينفذون أوامر عسكرية. لم أكتفِ بعدم التصديق بل حسبت أن هذا التبليغ هو مجرد استفزاز مقصود به أن نُضيع صوابنا. طردتُ زائري اليهودي من بيتي وأنا أصرخ: كذّاب واستفزازي»!

وأيضاً:

«لقد أردنا أن نرى في يزهار سميلانسكي وفي غيره من زملائنا الأدباء اليهود، دائماً، الوجه الحقيقي لشعب إسرائيل على الرغم من مصائب الماضي. ورفضنا أن نرى في مرتكبي مجزرة دير ياسين ومجزرة كفرقاسم أنهم ممثلو هذا الوجه الحقيقي. فهل من الممكن، لا سمح الله، أن يقوم أديب عربي فلسطيني ويعلن عن أن مئات اليهود، الذين اعتبروا السفّاح غولدشتاين قديساً، هم دليل على أن شعب إسرائيل هو من أكلة لحوم البشر»؟!

وأيضاً:

«كنّا انتظرنا من يزهار سميلانسكي أن يكتب رواية جديدة عن «خربة الإنتفاضة»، حين لم يكن يمر أسبوع، تقريباً، دون أن يقع طفل عربي أو طفلة قتيلاً برصاصة «طائشة» انطلقت من بندقية جندي إسرائيلي. ولم نسمع، في حينه، أي «استنكار ذي وزن» للإدعاء المنتشر بأن الحجر في يد طفل فلسطيني «يهدد حياة الجندي الإسرائيلي»! وهل سمع يزهار سميلانسكي، حتى الآن، عن أية معارضة ذات وزن للموقف الإسرائيلي الرسمي ضد انضمام إسرائيل إلى الميثاق الدولي لحظر انتشار السلاح الذري»؟!

وأنهيت ردّي هذا بالجملة التالية:

«لسنا في حاجة إلى التنافس فيما بيننا على أيّنا أكثر احتراماً لحياة الناس من الآخر. ومع ذلك لا بد من التساؤل: من الذي يرأف بحياته أكثر من الآخر: ذلك الذي ينتصر في المعركة أم ذلك الذي يهرب منها؟ وكنت وجدت ُنفسي، في روايتي «المتشائل» التي أصدرتها في العام 1974، أصرخ على أبناء شعبي: لماذا تحرصون على حياة لا تستحق أن يحياها البشر؟! ولكنني أعتقد، اليوم، أن شعبي هو شعب حكيم لأنه لا يرضى بأن ينحر نفسه».

لم يكن «الإنتحاري» الإسرائيلي، يجآل عمير، قد أقدم، بعد، على عمليته الإنتحارية التي أودت بحياة رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق، إسحاق رابين. ولم يكن المسؤولون عن الأمن الداخلي في إسرائيل قد اقتنعوا، بعد، بوجود المئات من أمثال يجآل عمير ينتظرون الفرصة المواتية للإعتداء على حياة رئيس الوزراء وعلى حياة غيره من الوزراء.

ولكن، كما لا يوجد أي مبرر أخلاقي أو سياسي للعمليات الإنتحارية ضد مواطنين إسرائيليين أبرياء فإنه لا يوجد أي مبرر أخلاقي أو سياسي للعملية الإنتحارية التي أقدم عليها الأديب يزهار سميلانسكي ضد تاريخه الأدبي والسياسي.

فما بالكم وقد أقدم على هذه العملية الإنتحارية مرة ثانية، في هذه الأيام التي أدّى فيها الحصار المفروض على شعب بأسره إلى وضع هذا الشعب على شفا المجاعة وإلى وفاة الأطفال الفلسطينيين على الحواجز العسكرية الإسرائيلية؟ كان محاوري في التلفزيون الإسرائيلي قد ادعى أمامي بأنه لا يوجد إنتحاريون من المجتمع الإسرائيلي. فأجبته بجواب من شقّين: أولاً- يوجد، نعم يوجد! يوجد في المجتمع الإسرائيلي من أمثال السفّاح غولدشتاين والقاتل يجآل عمير المئات باعتراف المسؤولين الإسرائيليين عن الأمن الداخلي. والمجتمع، الذي يُنبت أمثال غولدشتاين ويجآل عمير ليس أفضل من مجتمعنا. وثانياً- أنتم لا تحتاجون، في حالات كثيرة، إلى إنتحاريين لأنكم «شطّار» في ارتكاب الإعتداءات وفي الإبقاء على حياة مرتكبها.

قد يعتذر البعض بأن تكرر الإعتداءات الإنتحارية على الناس الأبرياء في

إسرائيل، إعتداءات أدّت في عشرة أيام إلى مقتل أكثر من ستين من الأبرياء، قد أفزعت المجتمع الإسرائيلي مثلما لم يفزع في يوم سابق. وأثارت أشد القلق على جدوى المسيرة السلمية خصوصاً وأنها جاءت في مطلع معركة إنتخابية تتأرجح فيها كفتا الميزان بين مؤيدي هذه المسيرة والمتخوفين من نتائجها إن صدقاً وإن على محمل الدعاية الإنتخابية. فإذا لم يستطع ساسة المسيرة السلمية المحافظة على إتزانهم، في مجابهة هذا الفزع الجماهيري، فكيف نطلب من الأدباء المحافظة على رباطة الجأش؟ إلاّ أن هذا الإعتذار لا يبرر قيام الساسة بتحقيق ما أراده مرسلو الشبان المنتحرين من وراء عملياتهم الإنتحارية. وهو نحر العملية السلمية كلها وإسقاط مؤيديها من كلا الشعبين، ساسة وجمهوراً واسعاً. ولا يبرر تراجع الأدباء، خصوصاً، عن دورهم الأساس في تنمية التعارف والإحترام المتبادل بين الشعبين ـ هذا الدور الذي هو قاعدة التسوية السلمية ولن تنجح المسيرة السلمية بدون القيام به.

وأشد ما يحزّ في نفوسنا، نحن أهل الفكر والأدب الفلسطينيين، أن ردود الفعل الإسرائيلية المتسرعة والنزقة تسلبنا دائماً الوقت الكافي لمواجهة قضايانا الداخلية ولتطوير هذه المواجهة لفائدة شعبنا ولفائدة كل الأطراف المعنية. فقد نشأت، على أثر تكرار الإعتداءات الإنتحارية، أوسع حركة شعبية في التصدي لهذه الإعتداءات تحت شعار: «لا للعنف، نعم للسلام». إلاّ أن السلطات الإسرائيلية الحاكمة قطعت علينا الطريق، بالحصار وبالعقوبات الجماعية التي فرضتها على شعب بأسره، دون تطوير هذه الحركة المباركة. فكان من الطبيعي، ومن الحق، تغيير الشعار إلى: «لا للحصار وللعقوبات الجماعية، نعم للسلام».

وهذا ما فعله الأدباء الإسرائيليون المتراجعون والمذهولون. فقد خذلونا قبل أن يخذلوا غيرنا، نحن المؤمنين بالدور الإيجابي لزملائنا الإسرائيليين في مسيرة السلام والتصالح ما بين شعبينا.

ويشجعنا على المضي في طريقنا، أمام خيبات الأمل الأخيرة هذه، وجود العشرات من زملائنا الإسرائيليين الذين يرفعون أصواتهم، خصوصاً الآن، في استنكار ممارسات العقوبات الجماعية والحصار وذيوله المأساوية. ويشجعنا،

في المقام الأول، إصرار إخوتنا زملائنا الفلسطينيين على طريق السلام والتصالح وعلى التوجه إلى زملائهم الإسرائيليين داعينهم إلى التعاون على رفع كل غبن، قومي أو فردي، عن شعبنا العربي الفلسطيني.

ومن واجبنا، بل ومن حقنا، أن نقول ليزهار سميلانسكي ولغيره ممن يعيروننا بظاهرة المنتحرين على أنها مغايرة لطبيعة البشر: لا تقوموا من جانبكم بتصرفات مغايرة لطبيعة البشر هي أيضاً. فلا تبخلوا على عائلة المنتحر، على والديه وإخوته وأخواته، الترحم عليه وتعزية أنفسهم بفقدانه أنه شهيد. لا تنسفوا بيت عائلته وترموها في العراء. لا تهددوا بإبعاد أفراد عائلته ولا تفرضوا الحصار والعقوبات الجماعية على شعبه المنكوب والمصاب. لا تفرضوا عليهم حياة يكون الموت نفسه أفضل منها. فالقضية ليست جنة الخلد بل رغيف الخبز. وقديماً أدرك علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، هذه الحقيقة، فهتف بهتافه الذي تجاوز العصور: «عجبتُ لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه»!

أما ظاهرة المنتحرين فهي ظاهرة ترفضها الأديان كلها وعلى رأسها الدين الحنيف. وتاريخنا حكم عليها بالبوار منذ أكثر من ألف عام. ففي العام 1103 م، مع بدء العدوان الفرنجي (الصليبي) على ديار الشام ومنها فلسطين، جاء في كتب التاريخ أن «خطر الحشاشين (الإسماعيلية والباطنية) تفاقم إلى حدٍ لم يسبق له مثيل. فلم يعودوا مجرد وباء بل أصبحوا طاعوناً يعذّب العالم العربي حين كان ضرورياً تجميع كل طاقاته في مواجهة الإحتلال الإفرنجي». وفي نهاية العام 1113م قامت الجماهير الغاضبة في مدينة حلب - كما جاء في مؤرخ إبن القلانسي - بمطاردة الباطنيين من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت. بعضهم قتله الناس الغاضبون. وبعضهم قذف نفسه إلى حتفه من على أسوار المدينة. وأفاد إبن القلانسي «أن العديد منهم هرب إلى الفرنجة حيث وجد مأواه بينهم». وحدث مثل هذا الأمر في العديد من المدن في العالم العربي. ومؤرخو ذلك الزمان اعتبروا منظمي الإعتداءات الإنتحارية أن دعوتهم ذات هدف واحد «هو تقويض دعائم الإسلام وإباحة حرماته وإنعاش العقائد الأجنبية القديمة». وقيل: «إن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من

ضرر الدجّال الذي يظهر في آخر الزمان». ويعتقد الفيلسوف الغزالي أنه لا ينخدع بمذهب الباطنية «إلاّ المائلون عن اعتدال الحال واستقامة الرأي».

غير أن هذا التاريخ كله لا يبرر موت طفل فلسطيني واحد على حاجز عسكري إسرائيلي أو تجويع عائلة فلسطينية واحدة بسبب الحصار الإسرائيلي المفروض على شعب بأسره. كما لا يبرر جهل أديب ومفكر إسرائيلي، أو سنسكريتي، بتاريخنا أو القيام بتزويره.

وكما اجتزنا محناً أشد من هذه المحنة، الحالية، سنجتاز هذه المحنة أيضاً. فهل من بديل؟! إننا نعتز بكوننا شعباً يحب الحياة وقادراً على صيانتها وصيانة إنسانيته. فلا حاجة بنا إلى الإنتحار أو إلى مجرد التفكير به.

عن هموم السياسي وهموم المبدع

هموم السياسي وهموم المبدع.. هل من فروق بينها. وما هي إن وُجدت؟ هذا هو موضوع الملف الجديد الذي كنّا دعونا الزملاء للمساهمة فيه. فنبدأ بنشر المساهمات فيه، إبتداءً من هذا العدد وسنستمر على مدى عدّة أعداد قادمة.

ونكرر دعوتنا إلى الزملاء لخوض النقاش في هذه القضية التي كانت أشغلت أهل الإبداع وأشغلتنا زمناً طويلاً، نحن المبدعين العرب، خصوصاً منذ أن فوجئنا برضى القيادات السياسية العربية والفلسطينية بالسير في نهج «المصالحة التاريخية».

وكان رئيس التحرير طرح هذا الموضوع للنقاش في افتتاحية العدد الثالث من «مشارف».

* «مشارف» *

من أنا؟ أين أنا؟
بين الثقافي والسياسي

علي الخليلي

ليس من أحدٍ يذكر الآن كتاب «المكارثية والمثقفون» الذي نشرته «دار ابن خلدون» في بيروت، في العام 1980، نقلاً مترجماً إلى العربية عن نصه الصادر باللغة الإنجليزية في لندن. وعنوانه الأصلي: «Thirty Years of Treason». وهو يشتمل على شهادات عشرات المثقفين المبدعين الأمريكيين، وغير الأمريكيين، أمام «لجنة الكونغرس للنشاطات غير الأمريكية» (1938 ـ 1968) حيث عُرِّف نشاط هذه اللجنة بإسم «المكارثية» نسبة إلى السيناتور مكارثي الذي اقترحها وأشرف عليها.

لكنّ هذا الكتاب، بالذات، ألحّ على ذهني لحظة فكرت في الكتابة حول السؤال الذي نثيره حيناً بعد آخر ومرحلة بعد أخرى، عن «السياسي والثقافي»، وعن خطوط الشبكة التي تتواصل أو تتقاطع ما بين السياسة والثقافة في سياق تجاربنا الشخصية وفي السياق الثقافي ـ السياسي العام، على المستويات الذاتية والموضوعية. فألقيت بقلمي جانباً، واندفعت إلى رفوف مكتبتي أبحث عن الكتاب، حتى وجدته وجلست إليه أقرأ شهادات برتولد بريخت وآرثر ميلر وهانز أيزلر وإيرل روبنسون.. وغيرهم. شهادات ثقافية وفنية وأدبية تدافع عن حرية الفكر والفن والأدب وعن ثقافة الإنسان، في كل مكان وزمان ، في مواجهة أولئك «القضاة ـ السياسيين» الذين تمثلوا في تلك اللجنة «الحكومية الرسمية» الأمريكية، تمثيلاً منهجياً للقمع والكبت قبل ثلاثين عاماً فقط.

لم أقرأ الكتاب كله مجدداً (427 صفحة من القطع المتوسط) بقدر ما أنعشت ذاكرتي عبر تقليب صفحاته والتقاط هذه الجملة أو تلك منه. ثم أعدته إلى رفّه. والتقطت قلمي، مدركاً أن «اللعبة» قد اختلفت في الولايات المتحدة وسواها، على عتبة القرن الحادي والعشرين، بعد سلسلة من الإنهيارات والزلازل في الأيديولوجيات المعاصرة.

إلاّ أن هذا الإدراك للاعبين «والملعوب عليهم»، على حد سواء، لم يدفع بي إلى إستنتاج تغيير جدي ّفي شكل ومضمون السؤال الذي نثيره في بلادنا ويثيره المثقفون في كل البلاد، تقريباً، عن «اللعبة» المعنيّة في اختلافها وفي تغيّراتها، الجدية وغير الجدية، ما بين اللاعب السياسي والملعوب عليه الثقافي. أو العكس الذي يجعل من الثقافي لاعباً ومن السياسي ملعوباً عليه أو عكس الحالتين، حين يكون السياسي لاعباً ويكون الثقافي لاعباً، وكلاهما داخل الحلبة، في صراع من أزل إلى أبد تحت سقف نشوء الأيديولوجيات وتطورها وعلى مساحات انهياراتها أيضاً.

هل يمكن لي أن أستريح إلى هذا «التفاصح» اللغوي، في الخطاب المثار والمثير معاً، فأشيح بوجهي عن المرآة السياسية قليلاً لأحدق في «المثقف» داخلي، أم أقف أمام مجموعة من المرايا، متعددة الإنعكاسات، بين السياسي والثقافي حتى لا أبين نفسي. فأين أنا في هذا الإنعكاس أو ذاك؟

ينفجر السؤال المعتاد، على الورقة البيضاء، صاعداً من ركاكة الوعي القديم ومن البدائية الفجّة: ما هي السياسة؟ ما هي الثقافة؟ من هم السياسيون؟ من هم المثقفون؟

يصادر هذا السؤال، أو هذه الأسئلة، لغة الفصاحة. ويدفع باللعبة وباللغة وبالثقافة والسياسة وبكل شيء إلى مسرحية تبادل الأدوار، أو إلى الممثل الذي يقوم بجميع الأدوار. مسرحية من ممثل واحد، بعدة أدوار، من السياسي إلى الثقافي ومن أي شيء إلى أي شيء.

كيف تتم هذه المصادرة؟ وكيف يتألف البعد الواحد في الصورة المركبة؟ وكيف يحق لنا، في الرد، أن نخرج ضد هذه الكيفيّة المعاصرة؟ وأن نؤكد على أن البُعد الواحد هو زيف مفزع للإنسان باعتباره، أي الإنسان، المنتج الثقافي - السياسي - المجتمعي ّعلى كل الأحوال؟

دزرائيلي روائياً

أعود إلى القراءة، مرة ثانية. فقد قرأت، قبل بضعة أشهر، مقالة باللغة العربية تشتمل على مقتطفات من كتاب صدر في العام 1995، باللغة الإنجليزية في لندن، عن «رجل الدولة»، بنيامين دزرائيلي، تحت عنوان: The Young Disraeli (1804 - 1881) من تأليف Jane Ridley. تكشف المقتطفات عن معلومات جديدة حول تمكن هذا اليهودي المحنّك من الوصول إلى رئاسة مجلس وزراء بريطانيا (العظمى)، في العام 1874، حين كانت بريطانيا في ذروة أمجادها الإستعمارية. والأهم أنها تكشف، بتفاصيل دقيقة، عن أن هذا السياسي الشهير كان مؤلفاً روائياً أيضاً. فقد أصدر، وعمره إثنان وعشرون عاماً، روايته الأولى بعنوان «فيفان جراي» دون أن يضع إسمه عليها صراحةً. وهي ساخرة. وضمّنها قصصاً وفضائح عن بعض الشخصيات في المجتمع الإنجليزي آنذاك. ولما عرُفت أنها له، طارت شهرته في البلاد. ثم أصدر روايته الثانية، التي كانت رديئة جداً، كما تقول

المتطفات. وبعدها انخرط في العمل السياسي.

هل احتاج البعد السياسي، في دزرائيلي، إلى البعد الثقافي (الروائي) كي يحقق دزرائيلي بعده الواحد - السياسة؟ وهل الثقافة، في السياق الدزرائيلي المعنيّ مجرد صيغة «ملعوب عليه»، للوصول إلى الصدارة السياسية، كرسيّ الرئاسة؟

كان والد دزرائيلي كاتباً روائياً أيضاً، إلاّ أن هذه المعلومة لا تعني، بالضرورة، تقليد الولد لأبيه بقدر فائدته من انتهاز هذه «الموهبة العائلية» في الوصول إلى السلطة - السياسة، من خلال حزب المحافظين.

الثقافة إلى دزرائيلي هي خطاب سياسي بحت في أداء انتهازي. فالثقافة إليه هي شكل من أشكال الإنتهازية لمصلحة السياسي الذي هو، في هذا القياس، «إنتهازي كبير» أو «رجل دولة» قادر على تكييف كل الأدوات والأشكال والوسائل والأساليب على طريق السياسة - الدولة.

هل السياسة هي الدولة؟ لن أتورط في هذا السؤال، ذي الحداثة، إلاّ بالقدر الذي اخترتُ فيه مثَل دزرائيلي، وصولاً به أيضاً إلى الأمثلة التالية.

القذافي قاصّاً

وأما مثلي الثاني فإنه عربي معاصر. وهو من نسيج قراءتي للمرة الثالثة. فقد قرأت في مجلة «القلم» القاهرية (العدد الثالث - السنة الأولى - آب/ أغسطس سنة 1995) قصة قصيرة للعقيد الزعيم الليبي، معمر القذافي بعنوان «القرية.. القرية». ولم يكن مفاجئاً لي أن أقرأ قصصاً للقذافي (السياسي). فهو صاحب كتابه (الكتاب الأخضر) الذي أراد له أن يكون «أساس القصص» في دولة ليبيا، بمعنى قصص الدولة وبمعنى ثقافة الدولة أو بمعنى ثقافة السياسة. كما أنني عشت سنوات في ليبيا بعد العام 1969 وتابعت «حوارات» طويلة لتفاصيل «آراء» القذافي حول السياسة والثقافة. تقول مجلة «القلم» في تقديمها القصة لقرائها: «ماذا يحدث عندما يتحول السياسي إلى أديب؟ هل نقرأ بالفعل أدباً وإبداعاً حقيقياً أم سنقرأ سياسة ضلّت طريقها إلى الأدب؟ وهل هناك إنفصام حقيقي بين السياسة والأدب حتى نقول أن أحدهما ضلّ طريقه إلى الآخر؟».

ورغم أن هذه المجلة تواصل القول إنها تترك الرد على هذه الأسئلة، أو على «هذا السؤال المركّب»، للقارئ العربي، إلاّ أنها قبل ذلك تقرر من جانبها، سلفاً، أن قصة «القرية.. القرية»، هي «في الواقع، رؤية أكثر منها قصة».

«الرؤية» إلى ذلك هي سياسة أكثر منها ثقافة. فالقصة ثقافة والرؤية سياسة. وما كتبه القذافي مجرد كتابة سياسية لا علاقة لها بالأدب والفن؟

أنقل، من أجواء الرؤية ـ القصة، آخر فقرة فيها: «أي أرض في المدينة، أرصفة مزحومة، شوارع مكظومة، نواح مبرومة، زقاق، مختنقات، مضايقات، رؤية محدودة؟ أي آيات يتيقّن منها الموقنون في شوارع المدينة، أي تأمل في زحمة المدينة، ليس ثمة وقت في المدينة، وليس فيها ليل أو نهار، ما بالك بالوسق، والغسق والفجر والشفق».

الفقرة المنقولة، وعلى غرارها كل فقرات الرؤية ـ القصة، تؤسس عند القذافي فضاء «الخطابة» السياسية أو فضاء الثقافة السياسية بفصاحة مقدسة. فالفصاحة في اللغة العربية، مثلها مثل السخرية في اللغة الإنجليزية، شأن مقدس في المبرر السياسي لها.

إلى ذلك، ووفق هذا الخلاف ـ التناقض بين الفصيح العربي والساخر الأوروبي، لم ينشأ القذافي قاصاً ثم تحوّل إلى سياسي. ولكنه، على عكس دزرائيلي، صار سياسياً وزعيم دولة. ثم بدأ يكتب وينشر القصص. وقد احتاج معمر القذافي إلى أكثر من ربع قرن من إستمرار حكمه ـ إلى حينه (1969 ـ 1995) لتصدر له «الدار الجماهيرية للنشر» في ليبيا مجموعته القصصية الأولى «القرية القرية.. الأرض الأرض.. وانتحار رائد الفضاء»، والتي منها قصته السابقة. كما والتي أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعتها «الشعبية» الثانية، من نصف مليون نسخة، بسعر جنيه واحد للنسخة، وطبعتها الفاخرة من ثلاثة آلاف نسخة، بمناسبة معرض القاهرة الدولي للكتاب (آذار 1996).

وإذا كانت مجموعة قصص القذافي قد وزعت مائة ألف نسخة في اليوم الأول لهذا المعرض ـ حسبما بثته وكالة رويتر للأنباء في 4 آذار 1996 في هذا الشأن ـ فإن الشهرة السياسية للقذافي نفسه هي التي وقفت وراء هذا التوزيع الواسع والسريع، إلى جانب قوته المالية، عبر ثمن بخس للمجموعة مرفقة مع نسخة من «الكتاب الأخضر» وصورة ملونة للقذافي عليها إهداء بخطه شخصياً!

وأما دزرائيلي فإنه، كما رأينا، ألّف روايته الأولى وعمره إثنان وعشرون عاماً فقط دون أن يفصح عن إسمه ودون أدنى شهرة ودون فصاحة. بل هي سخرية حادة وشخصية مغمورة حتى كان ما كان أن حملته الرواية ذاتها والسخرية إلى الشهرة الواسعة وإلى الوقوف على رأس بريطانيا.

الأول دزرائيلي، من الروائي إلى السياسي، والثاني القذافي، من السياسي إلى القاص. وكلاهما، من البداية إلى النهاية، أو من النهاية إلى البداية، رأى في الثقافة شأناً «ملعوباً عليه» لمصلحة السياسة. ورأى في السياسة شمولاً لكل شيء، وبخاصة للإنسان الذي هو في محصلة هذه الرؤية مجرد «نتاج» خاضع للسياسي أو مجرد «منتوج سياسي» على وجه الأرض، وفي الفضاء «الذي لم

ينتحر رائده» رغم قصة القذافي.

القاموس

ماذا يرى القاموس العربي المعاصر في الثقافة والسياسة؟ ندخل إلى الصفحة 71 من «المنجد في اللغة والأعلام» طبعة 23 لسنة 1973، ونتابع الفعل الثلاثي «ثقف»: ثقفاً، ثقافة: صار حاذقاً. وثقف الكلام: حذقه وفهمه بسرعة. وثقفه بالرمح: طعنه، وثقف الرمح: قوّمه وسوّاه. والمثقف: الرمح.

وندخل إلى الصفحة 361، نحو الفعل الثلاثي «ساس»: سياسةً الدواب: قام عليها وراضها، وساس القوم: دبّرهم وتولى أمرهم- فهو سائس..

إلى ذلك، ينتهي القاموس العربي، في جذور الثقافة والسياسة، عند الرماح والدواب. أو عند نار الحداد، التي «نثقف» الرمح، وسوط المروّض «السائس» للدابة. فهل الثقافة، في الحداثة البعيدة عن هذه الجذور البدائية، ما تزال ناراً وما تزال السياسة فيها سوطاً؟

إن «النار والسوط» في السياق التساؤلي، هما لمن يملك السلاح والدواب. أو لمن يملك «قوة الحكم» في إطار الدولة- السلطة. فالسلطان أو رجل الدولة، في السياق ذاته، هو المثقف والسياسي. وبما جاء في القاموس، هو الرمح والسوط. وبما جاء في «المكارثية» هو الدكتاتور تحت غطاء دمقراطي. وهو الدمقراطي في فعل دكتاتوري فاضح. وبما جاء في مصطلح المقال، هو اللعبة كلها.

نموذج في الخروج إلى الضد

يقول أبو العلاء المعريّ (973- 1059م) في لزومياته، أو «لزوم ما لا يلزم» صفحة 165 (منشورات دار الجيل، بيروت سنة 1969):

يسوسون الأمور بغير عقلٍ فينفذ أمرهم ويقال ساسة
فأفٍّ من الحياة، وأفّ منها ومن زمنٍ رئاسته خساسة

يرفض المعريّ ذلك «السياسي» الجاهل الذي تتحول جهالته، مع ذلك، إلى أمر نافذ في «الإرشاد والإصلاح». فكيف يحصل الرشاد والصلاح لدى الجهلة؟ وكيف يصبح أولئك ساسة ورجال دولة وسلطة؟

إن إشكالية المعرّي غير جامدة عند السياسي. ولكنه يجدها أشد صعوبة لدى «المثقفين» الذين يردون في لزومياته باسم «الشعراء». وهم مجرد مدّاحين وهجّائين على أبواب السلاطين/ الجهلة:

وما شـــعـــــراؤكم إلا ذئـاب   تلصص في المدائح والسـبـــاب

ويمكن لي، ولكم، سرد عشرات النماذج العربية «التراثية» أو التاريخية في المعنى الذي قام عليه تأفف المعرّي. وفي الضد الذي بحث عنه، دون أن يجده، حتى كانت الحياة بالنسبة له جناية:

«هذا جناه أبي عليّ وما جنيتُ على أحد». فهل الثقافة، إن لم تصل إلى السلطة والحكم والقوة، جناية وظلم؟ وهل المثقف، شاعراً وروائياً وقاصاً ورساماً وصحافياً.. إلخ، هو، في تراكيبه المعقدة، تكرار مأساوي لذلك المتنبي، أبي الطيب أحمد بن عبد الصمد المتنبي (915 ـ 965م)؟

أقفز عن هذه المماحكة التراثية، في النموذج الضديّ، إلى هذا العصر والأوان، عصرنا وأواننا، في بلد عربي هو الجزائر على وجه التحديد. والتحديد الجزائري هنا له حافزه الموجع في القلب، في إطار الوجع الشامل للثقافة العربية وللمثقفين العرب أجمعين، تحت سقف من كوابيس السياسة العربية جمعاء.

كنت كتبت في مقالة لي، قبل بضعة أشهر، تحت عنوان «لا حداد ولا عزاء يليق بذبح المثقفين العرب»، أنه «يتواصل ذبح المثقفين في الجزائر منذ العام 1993 تواصلاً مذبوحاً في حد ذاته ومعزولاً عن محيطه العربي وعن أفقه العالمي، وكأنها مذبحة لا دماء فيها ولا سكاكين ولا رصاص ولا ثقافة تختنق بدموع الملح والوحل؟ مذبحة كاريكاتيرية تجري في باطن الأرض السابعة، في جزيرة واق الواق، في قاع المخيلة العربية الصحراوية الميتة؟».

وكتبت فيها أن فجيعة هذه المذبحة هي في المثقف العربي نفسه. فهو «مسافر وحده». وهو مجرد «مشروع شخصي» في كتابته. وعلى ذلك لم يجد الحماية الإجتماعية في الجزائر، ولن يجدها في بقية الأقطار العربية. ولا بد له، كي يتحقق من هذه الحماية، من الخروج إلى الناس. أو التحرر من مشروعه الخاص والإنخراط في المشروع العام.

هل يعني ذلك أن يخرج المثقف من الثقافة إلى السياسة؟ وهل الثقافة، أصلاً، هي «المشاريع الخاصة» في فصاحة الكلام وإبداعات اللغة والفن، في حين أن السياسة هي «المشاريع العامة» ـ في التعامل مع الناس، أو «ترويضهم» سيان، حسب أدق التفاصيل؟

وأما نموذجنا الفلسطيني، ثقافة وسياسة، في فلسطين هذه المرحلة، فإنه جدير بمقالة ثانية قائمة بذاتها في مرة قادمة.

(ضاحية البريد/ القدس)

بين هموم الإبداع.. وهموم السياسة

سالم جبران

الفنان بحاجة إلى تحقيق مهمة شاقّة، شبه مستحيلة، وهي أن يكون فردياً وأن يلتصق بمجتمعه، أن يبدع من ذاته ولذاته وأن يكون ممثلاً لمجتمعه ومرحلته، أن يمزج بين الفن والفكرة بحيث يلتصقان حقيقة واحدة، جميلة، مؤثرة.
الفن العظيم هو ذلك الذي يقف أمامه القارىء فلا يسأل أية أسئلة حول «الفن» و«الإلتزام» بل ينبهر أمام الإنسجام الإبداعي بين الإيحاء الفني والفكرة العامة للنص.

منذ فجر الثقافة الإنسانية والصراع محتدم ومستمر بين أنصار نظرية الفن للفن وأنصار نظرية الفن للحياة. وهذا الصراع يجد له شكلاً محلياً، ملموساً، في مسار الثقافة الوطنية لكل شعب.

وهناك ملاحظة عامة، تقريباً، وهي أن القوى الجديدة، الثورية، المعنية بالتغيير، تغيير الحياة والمفاهيم، كانت، عادةً، تؤيد نظرية الفن للحياة، لأن ما يعنيها، أكثر ما يعنيها، هو التغيير، بالمعنى الشامل للكلمة، ولذلك فإنها تريد للفن، للثقافة، للطاقات الروحية والفكرية عموماً أن تكون معولاً يهدم القديم وبنّاءً يبني الجديد.

أما القوى المحافظة، التي ليست ذات مصلحة في التغيير، فكانت تعمل لكي تنتزع من الثقافة روح التمرد والتغيير والثورة وتُبقيها مصدراً للغنى الروحي والبهجة الجمالية المجرّدة، فقط.

والحقيقة أن هذا الإتجاه وذاك كانا، دائماً، وحيدي الجانب، كلٌّ منهما ركّز على ما يعنيه وبالغ في

التركيز إلى درجة إغفال أو إهمال عن قصد، للجانب الآخر.

نسأل أنفسنا: هل هناك فن ليس نابعاً من الحياة، ليس مصوِّراً للحياة، بهذه الصورة أو تلك؟ هل هناك فن مجرد، عائم في الفضاء، بلا غاية، بلا حلم، بلا رؤية حياتية؟ الجواب، بعد الفحص العميق هو: لا، لا بكل تأكيد.

ومن الجهة الثانية هل يمكن لأنصار الفن للحياة أن ينكروا الحاجة الصميمية، الملحّة، إلى أن يكون النص، مهما يكن «مخلصاً للحياة»، نصاً فنياً، ذا روعة جمالية، فنية؟

المفروض أن يكون الجواب هنا أيضاً: لا.

ولكن الحياة، ومسيرة الثقافة في موازاة الحياة، أكثر تعقيداً، وأكثر غنى. وقد لاحظنا، على الأقل، في الصراع حول هذه المسألة في الأدب العربي في القرن العشرين أن السعي إلى التطرف في المدرستين، مدرسة الفن للفن ومدرسة الفن للحياة، قاد إلى التطرف وإلى إغفال جانب أساسي في الحياة، وبالتالي إلى تشويه العملية الإبداعية أو على الأقل إلى حَرفها عن المسار الشامل متعدد الجوانب والإتجاهات.

إننا عندما ننظر الآن إلى المسيرة الأدبية نلاحظ أن أنصار الفن للفن قدّموا، بالفعل، مساهمة هامة لتطوير اللغة والموسيقى والأدوات الفنية. نلاحظ هذا في الشعر والموسيقى والرسم وغيرها من الفنون. وهذا الإتجاه ساهم في تطوير وإغناء حس جمالي وذوق جمالي بدونهما لا مجال للكلام عن الإبداع الفني أو عن المتعة الفنية.

بالمقابل، فإننا يجب أن نعترف بأن مدرسة الفن للحياة، في الرواية والقصة والشعر والفنون الأخرى، ساهمت في نهضة سياسية واجتماعية ووطنية وكانت عنصراً هاماً في تحفيز المجتمع للنضال للتغيير، سواء بطرد المحتل الأجنبي وتحقيق الإستقلال أو بتغذية طموح الناس المشروع والطبيعي لتغيير الحياة إلى الأحسن أو على الأقل لطرح الحاجة إلى تغيير الحياة إلى الأحسن.

يُقال أن الجائع لا يفكّر بالموسيقى. ومع أن هذا الكلام يبدو طبيعياً ومُقنعاً إلاّ أنه غير صحيح، أو يركّز على جانب واحد فقط من الحقيقة. إن الجائع بحاجة إلى الرغيف وبحاجة أيضاً إلى الفرح الفنّي.

من ناحية ثانية فإن تركيز أنصار الفن للفن على الحياة الروحية «الفوقية» يبدو مسلوخاً عن الحاجات الحقيقية، الحياتية، الوجودية، للمجتمع.

كل هذا يقودنا إلى أن أيديولوجية «الحرب الباردة» عبر التاريخ، كانت تضع المتاريس بين المدارس الفنية المختلفة، تماماً كما كان الصراع السياسي والطبقي يضع المتاريس بين الأقسام المختلفة للمجتمع.

والحقيقة ليست هنا أو هناك، فنياً، بل هي مزيج مركّب ومعقّد من هذا وذاك. فالحياة تتطلب

من الثقافة أن تجسّد الروح التاريخية العامة للمرحلة، والحياة تتطلب أن تكون الثقافة مصدر فرح جمالي وفاعلية اجتماعية، في آنٍ معاً.

على ضوء هذا، أصِل إلى مسألة الصلة بين الإبداع الفني والهم السياسي أو الوطني عند الفنان. وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة جديدة ومجدِّدة وشجاعة، خصوصاً في ظل انهيار كل الأسوار وتداعي الحواجز النفسية وسقوط المألوف الروتيني وبحث الناس، وخصوصاً الأدباء، عن الصيغة الجديدة، عن الفكرة الجديدة. إن الإنسانية، حضارياً وثقافياً، تقف الآن أمام إعادة الصياغة، إعادة رسم الحلم، لا من خلال القطيعة مع الماضي بل من خلال حرية الحركة بين الماضي والحاضر، بين التراث القديم والإبداع المعاصر، وأساساً من خلال معادلة جديدة بين «أنا» و«نحن»، بين الفنان والمجتمع. والصيغة الجديدة تأخذ ما هو صحيح في كل المدارس المختلفة، من خلال احترام حرية الفنان من ناحية ورؤية الصلة بين الفن والحياة من ناحية ثانية.

هذه الرؤية تقول بكل الوضوح والإقتناع أن الفنان يجب أن يبدع بدون «أوامر» خارجية أياً كانت، أن ينفرد مع ذاته المرهفة، المبدعة، وأن يؤلّف فقط ما ينبع من داخله مع إقتناع كامل في داخله. إن الإلتصاق الكامل بين الموهبة الأصيلة والتفاعل الكامل مع موضوع ما، في ظل الحرية الداخلية للفنان هو الضمان أن يكون النص الإبداعي فناً حقيقياً. يُقال: هل الفنان يكتب لنفسه فقط؟ نعم، إنه في البداية يكتب لنفسه فقط ولأنه فنان ومبدع فهو بتجربته الشخصية يجسّد التجربة الجماعية. إن الفنان الفرد عندما يكون مبدعاً يجسّد روح الجماعة بدون أن يقرر ذلك وبدون أن يقرر الآخرون له ذلك، بل وبدون أن يحس بذلك!

إن إحدى الميزات الأساسية للمبدع هي أنه في جمعه للمواد الخام من حوله، وفي تعامله مع هذه المواد وفي ميلاد الإبداع في روحه هو ممثّل الجماعة، تماماً كما هو ممثّل ذاته.

من حق الفنان أن يختار الموضوع، أن يختار الشكل، أن يختار اللغة، أن يختار الموسيقى، وأن يبدع كما لو كان عصفوراً طليقاً تماماً، محلّقاً. وحريته بالذات هي الضمان أن يكون إنتاجه إنتاجاً أصيلاً وفنياً، ونافعاً في آخر الأمر.

من الناحية الثانية يجب أن لا نتصور حالة يكون فيها الفنان مغلقاً أمام البيئة المحيطة، أمام آلام مجتمعه وأحلامه، أمام الركض الدائم للناس لضمان الرزق والمستقبل. فالإلتزام ليس «أمراً إدارياً» من الدولة أو الحكومة أو الحزب الحاكم، بل هو نتاج التفاعل الطبيعي، الحتمي، بين الفنان الفرد وبين الجماعة المحيطة. ليس من حق المجتمع أن يقول للفنان أكتب عن كذا ولا تكتب عن كذا. هناك حكاية شهيرة عن شاعر ذهب إلى ستالين وعرض عليه مخطوطة ديوان كله غزل. وبعد أن قرأ ستالين هذه القصائد قال له: «إطبع من الديوان نسختين، واحدة لك وواحدة لمحبوبتك، أما بقية الناس فلا يهمهم مثل هذا الكلام». بالطبع نحن، هنا، إزاء فظاظة مطلقة وصمم كامل إزاء الصوت العاطفي.

ونحن نعرف أن الحركات السياسية عموماً كانت تضغط لتدفع الكُتّاب والشعراء والفنانين لكي يكونوا «أداة» تعجّل إقناع الناس بهذا الخط أو ذاك. ولكن الفحص التاريخي ـ النقدي الموضوعي يوصلنا إلى استنتاج بأن «أدب الشعارات»، أدب الضجيج، أدب «التعبئة»، لم يتمكن من أن يعيش طويلاً. وكل نص لا يتضمن المعادلة الصحيحة بين المضمون الجديد وبين الشكل الفني، مع بقية عناصر الخلق الفني، لا يعيش طويلاً، ولو حصد التصفيق مؤقتاً أو كسب إعجاب الجهة السياسية المعنية.

المبدع هو ابن مجتمعه وابن عصره. ولذلك فهو مفتوح، حتماً، للتأثيرات العامة من مجتمعه، كما أن كل مواده الخام سيأخذها من هذا المجتمع. وبالتالي فإن كل إبداع يقدمه هو إبداع ذاته أولاً، ولكنه ابن المجتمع وابن المرحلة، في الوقت نفسه. والمبدعون العِظام وجدوا المعادلة الصحيحة، الرائعة، بين «أنا» و«نحن»، بين الذاتي والعام، وعبّروا بشكل إبداعي فني عن روح المرحلة. ولذلك بقوا وبقيت آثارهم سنين طويلة. وأحياناً آلاف السنين بعد وفاتهم.

يُسأل السؤال: هل الفنان بحاجة أو مُلزَم أن يكون هو نفسه «نشيطاً إجتماعياً»؟ هل يجب أن يكون الكاتب مثلاً مناضلاً سياسياً أو قائداً سياسياً؟ هل يجب أن يرى الكاتب نفسه مُصلِحاً إجتماعياً مسؤولاً مباشراً عن التغيير وتحقيق «الأهداف العامة»؟

ربما كان الجواب على هذا السؤال قبل عشرين عاماً أو أكثر إيجابياً تلقائياً. كان هناك وَهْم أن المبدع يجب أن يكون «محرِّراً للمجتمع»، بالمعنى الشامل للكلمة. أما الآن فأنا أقول بكل قَطع ووضوح، إن الفنان يجب أن يكون في صميم المجتمع و«خارج المجتمع» في الوقت نفسه، يجب أن يعيش باستمرار الهاجس الإجتماعي ويجب أن يكون قادراً على ممارسة حياة فردية جداً. يجب أن يكون «عديم المسؤولية» الرسمية وأن يحس بأنه يحمل العالم كله على كتفيه، من جهة ثانية.

يدور النقاش أيضاً حول النشاط الإجتماعي في قضايا أساسية ومصيرية مثل الموقف من مسألة الحرب والسلام، الموقف من العنصرية، الموقف من الدمقراطية والحرية وحقوق الإنسان ومكانة المرأة وطبيعة النظام الإجتماعي العام.

في رأيي إن المبدع يجب أن يكون نشيطاً وذا موقف من كل هذه القضايا وأن يوظّف طاقاته ووزنه وشهرته للتأثير لتحقيق القيم الإنسانية العامة، في هذا المجال. وخلال صراعه كمواطن، لتحقيق هذه الأهداف، فإنه ينغرس أكثر في قضايا العصر، يجمع أكثر «مواد خام» من المجتمع، يرى نماذج بشرية وتجارب بشرية، يستوعب حقيقة التجربة العامة لمجتمعه لتكون له أساساً يأخذ منه في حالة العملية الإبداعية. أما الإنغماس في السياسي / اليومي / التفصيلي / بكل ما يرافقه من ألاعيب السياسة فإنه يحرق كلوريات الإبداع في نفسه ويجعله سياسياً، راكضاً وراء اليومي. بينما هو كمبدع يجب أن يركض وراء الحلم، وراء المطلق، وراء القضايا الأكثر أصالة والهموم الأكثر جوهرية

وعالمية.

والمبدع العظيم حقاً هو ذلك الذي يخلط «خلطة» الإبداع بطريقة خاصة تجمع بين الموضوع والشكل والمغامرة اللغوية والأسلوبية، بين الذات الفردية وبين الإندماج بالشعب وبالمرحلة، بحيث يقف القارىء أمامه، معجباً ومتأثراً، ولا يجد حاجة إطلاقاً للتساؤل حول الصلة بين الإبداع والإلتزام.

(الناصرة)

محكومون بالأمل

كلمة سعد الله ونوس في يوم المسرح العالمي*

سعد الله ونوس



لو جرت العادة على أن يكون للإحتفال بيوم المسرح العالمي عنوان وثيق الصلة، بالحاجات التي يلبيها المسرح، ولو على مستوى رمزي، لاخترت لاحتفالنا اليوم هذا العنوان «الجوع إلى الحوار». حوار متعدد، مركب، وشامل. حوار بين الأفراد، حوار بين الجماعات، ومن البديهي أن هذا الحوار يقتضي تعميم الدمقراطية، واحترام التعددية، وكبح النزعة العدوانية عند الأفراد والأمم على السواء. وعندما أحس هذا الجوع، وأدرك إلحاحه وضرورته، فإني أتخيل، دائماً، أن هذا الحوار يبدأ من المسرح، ثم يتموج متسعاً ومتنامياً، حتى يشمل العالم على اختلاف شعوبه، وتنوّع ثقافاته.

وأنا أعتقد أن المسرح، ورغم كل الثورات التكنولوجية، سيظل ذلك المكان النموذجي، الذي يتأمل فيه الإنسان شرطه التاريخي والوجودي معاً. وميزة المسرح التي تجعله مكاناً لا يُضاهى، هي أن المتفرج يكسر فيه محارته، كي يتأمل الشرط الإنساني في سياق جماعي، يوقظ إنتماءه إلى الجماعة، ويضمه غنى الحوار وتعدد مستوياته. فهناك حوار يتم داخل العرض المسرحي، وهناك حوار مضمر بين العرض والمتفرج. وهناك حوار ثالث بين المتفرجين أنفسهم.. وفي مستوى أبعد، هناك حوار بين الإحتفال المسرحي «عرضاً

وجمهوراً» وبين المدينة التي يتم فيها هذا الإحتفال. وفي كل مستوى من مستويات الحوار هذه، ننعتق في كآبة وحدتنا، ونزداد إحساساً ووعياً بجماعيتنا. ومن هنا، فإن المسرح ليس تجلياً من تجليات المجتمع المدني فحسب، بل هو شرط من شروط قيام هذا المجتمع، وضرورة من ضرورات نموه وازدهاره.

ولكن عن أي مسرح أتكلم! هل أحلم، أم هل أستثير الحنين إلى الفترات، التي كان المسرح فيها بالفعل حدثاً يفجر في المدينة الحوار والمتعة! لا يجوز أن نخادع أنفسنا، فالمسرح يتقهقر، وكيفما تطلعت، فإني أرى كيف تضيق المدن بمسارحها، وتجبرها على التقوقع في هوامش مهملة ومعتمة، بينما تتوالد وتتكاثر في فضاءات هذه المدن الأضواء، والشاشات الملوّنة، والتفاهات المعلبة. لا أعرف فترة عانى فيها المسرح مثل هذا العوز المادي والمعنوي. فالمخصصات التي كانت تغذيه تضمر سنة بعد سنة، والرعاية التي كان يُحاط بها، تحولت إلى إهمال شبيه بالإزدراء، غالباً ما يتستر وراء خطاب تشجيعي ومنافق. وما دمنا لا نريد أن نخادع أنفسنا، فعلينا الإعتراف بأن المسرح في عالمنا الراهن بعيد عن أن يكون ذلك الإحتفال المدني، الذي يهبنا فسحة للتأمل، والحوار، ووعي انتمائنا الإنساني العميق.

وأزمة المسرح، رغم خصوصيتها، هي جزء من أزمة تشمل الثقافة بعامة. ولا أظن أننا نحتاج إلى البرهنة على أزمة الثقافة، وما تعانيه هي الأخرى من حصار وتهميش شبه منهجيين.

وإنها لمفارقة غريبة أن يتم ذلك كله، في الوقت الذي توفرت فيه ثروات هائلة من المعارف، والمعلومات، وإمكانيات التسويق والإتصال! ثروات حولّت العالم إلى قرية واحدة، وجعلت العولمة واقعاً يتبلور، ويتأكد يوماً بعد يوم، ومع هذه التحولات، وتراكم تلك الثروات، كان يأمل المرء أن تتحقق تلك اليوتوبيا، التي طالما حلم بها الإنسان. يوتوبيا أن تحيا في عالم واحد متضافر. تتقاسم شعوبه خيرات الأرض دون غبن، وتزدهر فيه إنسانية الإنسان دون حيف أو عدوان، ولكن.. يا للخيبة! فإن العولمة التي تتبلور وتتأكد في نهاية قرننا العشرين، تكاد تكون النقيض الجذري لتلك اليوتوبيا، التي بشّر بها الفلاسفة، وغذت رؤى الإنسان عبر القرون. فهي تزيد الغبن في توزيع الثروات وتعمق الهوة بين الدول الفاحشة الغنى، والشعوب الفقيرة والجائعة. كما أنها تدمر، ودون رحمة، كل أشكال التلاحم داخل الجماعات، وتمزقها إلى أفراد تضنيهم الوحدة والكآبة. ولأنه لا يوجد أي تصور عن المستقبل، ولأن البشر، وربما لأول مرة في التاريخ، لم يعودوا يجرؤون على الحلم فإن الشرط الإنساني في نهايات هذا القرن يبدو قاتماً ومحبطاً.

وقد نفهم بشكل أفضل مغزى تهميش الثقافة، حين ندرك أنه في الوقت الذي غدت فيه شروط الثورة معقدة وصعبة، فإن الثقافة هي التي تشكل اليوم الجبهة الرئيسية لمواجهة هذه العولمة الأنانية، والخالية من أي بعد إنساني. فالثقافة هي التي يمكن أن تبلور المواقف النقدية، التي تعري ما

يحدث، وتكشف آلياته. وهي التي يمكن أن تعين الإنسان على استعادة إنسانيته، وأن تقترح له الأفكار والمُثل، التي تجعله أكثر حريةً ووعياً وجمالاً.

وفي هذا الإطار، فإن للمسرح دوراً جوهرياً في إنجاز هذه المهام النقدية والإبداعية، التي تتصدى لها الثقافة. فالمسرح هو الذي سيدربنا، عبر المشاركة والأمثولة، على رأب الصدع والتمزقات التي أصابت جسد الجماعة، وهو الذي سيحيي الحوار الذي نفتقده جميعاً. وأنا أؤمن أن بدء الحوار الجاد والشامل، هو خطوة البداية لمواجهة الوضع المحبط الذي يحاصر عالمنا في نهاية هذا القرن.

إننا محكومون بالأمل. وما يحدث اليوم لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ.

منذ أربعة أعوام وأنا أقاوم السرطان، وكانت الكتابة، وللمسرح بالذات، أهم وسائل مقاومتي. خلال هذه السنوات الأربع كتبت، وبصورة محمومة، أعمالاً مسرحية عديدة، ولكن ذات يوم، سُئلتُ وبما يشبه اللوم: ولمَ هذا الإصرار على كتابة المسرحيات، في الوقت الذي ينحسر فيه المسرح، ويكاد يختفي من حياتنا! باغتني السؤال، وباغتني أكثر شعوري الحاد بأن السؤال استفزني، بل وأغضبني. وطبعاً كان من الصعب أن أشرح للسائل عمق الصداقة المديدة التي تربطني بالمسرح، وأن أوضح له، أن التخلي عن الكتابة للمسرح، وأنا على تخوم العمر، هو جحود وخيانة لا تحتملهما روحي، وقد يعجلان برحيلي. كان عليّ لو أردت الإجابة أن أضيف: «إني مصرّ على الكتابة للمسرح، لأني أريد أن أدافع عنه، وأقدم جهدي كي يستمر هذا الفن الضروري حياً». وأخشى أنني أكرر نفسي، لو استدركت هنا وقلت: «إن المسرح في الواقع هو أكثر من فن، إنه ظاهرة حضارية مركبة سيزداد العالم وحشة وقبحاً وفقراً، لو أضاعها وافتقر إليها».

ومهما بدا الحصار شديداً، والواقع محبطاً، فإني متيقّن أن تضافر الإرادات الطيبة، وعلى مستوى العالم، سيحمي الثقافة، ويعيد للمسرح ألقه ومكانته.

إننا محكومون بالأمل. وما يحدث اليوم لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ.

---

* إشارة: قامت منظمة «اليونسكو» بتكريم الكاتب السوري سعد الله ونوس ودعته إلى كتابة «رسالة المسرح» لهذا العام، 1996، لمناسبة يوم المسرح العالمي - المقرر يوم 27 آذار من كل عام. ويذكر أنه، ولأول مرة، يختار كاتب عربي لكتابة هذه الكلمة. فمنذ إقرار موعد «يوم المسرح العالمي» عام 1963 اقتصر الأمر حتى الآن على مسرحيين أوروبيين وأمريكيين.

رسالة إلى إميل حبيبي

دموع الفرح دموع المراثي

إحسان عبّاس

حملت إليّ صحيفة «الحياة» في عددها ذي الرقم 12036 بتاريخ 6 شباط (فبراير) 1996 ميلادية الموافق 17 رمضان 1416 هجرية رسالة جميلة عزيزة من رفيق الطفولة والصبا، إميل حبيبي. فشكراً لصحيفة «الحياة» وتحية لصديق غالٍ ولصداقة لم يختزل منها مرور السنين شيئاً، صداقة نقية غير مشوبة (أو غير ملوثة، كما تقول في رسالتك) صداقة هي جوهر في ذاتها لم يتلبس بعرض. فقد ظللت حاضراً دائماً في كل مرحلة من مراحل حياتي، وفي كل نبضة ذكرى كان يخفق بها وجداني.

نعم أيها الصديق. ليس من المستغرب أن تشيخ الذاكرة فتنسى بعض التفصيلات أو كثيراً منها في أحداث الأمس وتجاربه. وحين كنت أخف لزيارتك من حي وادي الصليب إلى حي وادي النسناس كنت أعتقد أنني أزور حياً جميلاً وبيوتاً جميلة يليق أن أسميها «ڤيلات»، أو كما يقول صديقي الشيخ حمد الجاسر «دارات». ولك الحق، فقد اختلط عليّ الأمر سهواً ببيت صديق آخر كانت له دارة جميلة على مشارف الكرمل الذي تأكد لدي بعد أن طوّفت كثيراً من أرجاء العالم، أنني لم أرَ أجمل منه. وأنا الآن أنسب إخفاق محاولاتك لتحقيق اللقاء بيننا إلى سوء حظي، فقد كانت الأيام تبعدني عن النقطة التي ترتد إليها إشعاعات الحنين.

إكتشفت - مصادفة - قبل قليل رسالة كتبتها إليك وأنا في بيروت، ولم أرسلها، على أثر قراءتي لمقابلة صحافية مع إميل حبيبي أجراها محمود درويش وإلياس خوري ونُشرت في العدد الأول من مجلة «الكرمل» التي كان يصدرها الإتحاد العام للكتّاب والصحافيين الفلسطينيين. وفي تلك المقابلة تتحدث عن صداقتنا وتقول:

«وكان إحسان عبّاس شاعراً، وكان أعز صديق لي...». وقلت في رسالتي التي أثارتها تلك المقابلة: «في هذه الكلمات القليلة التي قالها إميل أشياء كثيرة لا يعرفها إلا من كان معايشاً لها. إن الفعل

«كان» في قوله «وكان أعز صديق لي» يخرج عن دلالته الزمنية المحدودة إلى الديمومة. إذ، على الرغم من الفراق الطويل - في الواقع -، بقيت المشاعر في نفسي نحو ذلك الصديق ونحو ذلك العهد هي زادي النفسي والروحي أعيشها وأعيش بها على الرغم من كل الأحداث والتقلّبات. أما أنني كنت شاعراً فذلك شيء يتصل حقاً بالماضي. أما لماذا انصرفت عن قول الشعر فإنه سؤال ربما تصعب الإجابة عنه. ولعلني لم أنصرف عن قول الشعر لا واقعياً ولا مجازياً بل ظللت أكتب الشعر إلى عهد قريب، غير أني أصبحت أقل إيماناً بجدوى كل شعر لا يصب في تيار القضية الفلسطينية، ولهذا خنقت كل مواجدي الذاتية، وظللت أحتال على الميل الشعري لديّ حتى قتلته وتخلصت منه».

وتلك الرسالة القديمة طويلة فلا أنقلها هنا، وإنما أعود إلى ذكر نتفٍ موجزة من أموري فأقول:

لعلك تعلم أنني، بعد عكا، أكملت دراستي في القدس، وبعد التخرّج عُيّنت معلماً في مدرسة صفد الثانوية. وحين ضاعت حيفا وعكا وصفد وعين غزال وكل شيء كنت طالباً في جامعة القاهرة. وكان الأمل يخايلني بالعودة، ولم أكن أعلم أني واحدة من حمم بركان عنيف، وأنها ستظل تتدحرج حتى تصل السودان.. هنالك قضيت عشر سنوات كاملة بين شعب طيب أزالت طيبته من نفسي الشعور بالغربة، وإن لم تستطع أن تنسيني الماضي ولم تحاول ذلك. وكنت أنت - والله يعلم - رفيقاً دائماً لي، وأعذرني إذا جسّمتك معي - ولو في الخيال - كل ما واجهته من صعوبات.

ولكن، إن كنت يومئذ أتذكر الطالب النجيب والأخ الرفيق الذي أسعدني الله بصحبته، فإن صلتي بعد إنتقالي إلى بيروت توثقت بإميل حبيبي الكاتب المبدع الذي شقّ طريقاً متفردة في الرواية والقصة القصيرة والمسرحية. رافقته في كل ما كتب، ووجدتني أعيش في سطوره. فكانت ذكريات من نوع جديد، تملأنفسي بالإعتزاز، وبشيء من التعزي. كنت أعد بعض الأسماء وأنت في طليعتها، وأقول لنفسي: إن العبقرية الفلسطينية ليست وليدة الكارثة ولكن الكارثة صقلتها.

وأخيراً، وأنا في عمّان، أرسلت إليّ نسخة من «سرايا بنت الغول» التي أعدها أجمل سيرة ذاتية فنية كُتبت بالعربية. إنها نموذج جديد في هذا النوع الأدبي.

وفي بيروت كان من أصدقاء «أسامة»، إبني، شاب دمث إسمه وائل حبيبي، أظنّه أحد أبناء أخيك. وكنت كلما رأيته سألته عن أخبار عمه، وأبهجني يومئذ أن الصداقة تستمر بين آل حبيبي وآل عباس، وأن عناصر في الأرواح - وهي جنود مجندة - تلتقي وتتعارف وتتآلف.

وتذكر - يا أخي - في رسالتك العودة، ما أحبها إليّ وما أشد شوقي إليها، ولك، أليست هي «عنقاء مغرب»؟!

دعني أقول لك: إنني ضعيف أمام المكان الذي ألفته وأحببته وإذا عدت إليه تحولت ذكرياتي فيه من روابط قربى بيني وبينه إلى أشباح تطاردني، وتستنزف دموعي كأنها ليست دموع فرح باللقاء، وإنما هي مرثية لكل ما ضاع من العمر. أقول هذا عن المكان لأني جربت العودة إلى أماكن أحببتها لم تكن

وطني الأول، فماذا أقول عن العودة للقاء من بقي من الأصدقاء، وكيف يكون حالي حين أسأل عن فلان وعلان، فلا أجد جواباً.

أنا منذ أوائل سنة 1994 أصبحت أقضي أكثر وقتي متردداً على الأطباء. وقد ثقلت عليّ وطأة السنين، فأصبحت القراءة والكتابة عبئاً عليّ بعد أن كانتا متعتي الكبرى والتعويض عن كل ما فقدت. ولعلني أنا الملوم لأني لم أعتبر بمصير غيري. وظننت أن العزم لا يخبو، وأن قوة الإرادة تستطيع أن تصنع المعجزات.

ولكن، كل ذلك لا يمنعني أن أدعو الله أن يسنّي لي لقاءك وأنت في صحة جيّدة تمكنك من الإستمرار في الإبداع وجميل العطاء.

وسلامٌ عليك، وعلى عهودك الطيبة.

إحسان عبّاس ـ عمّان».

(نُشرت لأول مرة في صحيفة «الحياة» اللندنية ـ الجمعة 1996/2/23)

---

* كان الملحق الثقافي في صحيفة «الحياة» نشر إفتتاحية العدد 6 ـ كانون الثاني 1996 ـ من مجلة «مشارف». وكان نص الإفتتاحية قد وصل الأستاذ إحسان عبّاس قبل وصول مجلة «مشارف» إلى المكتبات في عمّان / الأردن.

تأملات في المأزق الثقافي

محمد حمزة غنايم

1. من يكتب ملحمة الإنتفاضة؟

إذا كانت فلسطين قد فتحت أفقاً جديداً أمام الخطاب الثقافي والسياسي العربي عندما حطّمت خرافة «الذنب الطائر..» وأعلنت ميلاد التاريخ العربي المنتهي من جديد، فإنها فعلت الشيء ذاته أمام المثقف والسياسي والمفكر الفلسطيني، بطرحها الأسئلة (ذاتها) كلها بصياغة جديدة، ساعدت على إطلاق سراح الأفعال المحصورة داخل بوتقات لفظية ولغوية، ظلّت تؤجل إنبثاقها (وانعتاقها) حتى مجيء السؤال الفلسطيني.

هذا السؤال، البسيط ظاهرياً، أصبح يشكّل الآن، وأكثر من أي وقت مضى، مصدر حيرة للكاتب الفلسطيني. ورغم أن الإجابة عليه تبدو بديهية، لكنه سؤال يلح على هذا الكاتب، فيجعله يتعامل مع إنتاجه الإبداعي، مع مجمل ما أبدعه من ثقافة، باعتباره سؤالاً يحتاج إلى إجابة. فالسؤال الثقافي الفلسطيني مطروح اليوم بإلحاح على المثقف الفلسطيني قبل غيره.. وعلى الساحة الثقافية الفلسطينية، بل على مجمل النشاط الثقافي والإبداعي الفلسطيني، قبل أن ينتقل ليحيط بمختلف أشكال النشاط الحضاري لهذا الشعب الموزع، والمشرّد، والموجود، الذي يتواجد الآن في أعلى مراحل البحث عن صيغة منتهية لهوية جديدة له، كشرط من شروط وجوده الأساس، في عالم متغيّر ومجنون!

كيف؟ هل؟ لماذا؟

إنها الأسئلة! وهو الوعي بحقيقة أن ما يجري، هذا الراهن الذي كاد أن يكون مستحيلاً حتى إلى ما

قبل بضع سنوات لا أكثر، هو مفجرها تماماً، مثلما أن «الإنتفاضة» لم تكن أقل من ثورة تحرير شاملة خاضها «جيل الحجارة» - مفجر هذه الهواجس - من أجل الحرية والإستقلال، محدداً أطرافها بوضوح لا لبس فيه: حرب تحرير، من جهة، واحتلال يحاول أن «يلحق حاله» قبل فوات الأوان، من جهة أخرى. والأعمى، فقط، من لا يرى الصورة على حقيقتها.

أسئلة، وأسئلة أهم، ما يميزها أنها جديدة ولم يسبق للواقع الفلسطيني أن أفرزها من قبل، عنها تتولد جرأة نادرة للمجابهة مع الذات «المدجنة»، لضمان إجابة نادرة جريئة، جديدة، و«منتفضة» أيضاً.. سوف أطرحها بطابعها الشخصي، هنا، وأجيب عليها من خلال ما مررت به شخصياً، بعيداً عن الراهن حيناً، ومتوغلاً في الحدث المنبثق عنه أحياناً.

ولعل هذه «الشهادة» على الذات تلقي الضوء على معاناة جيل كامل من الأدباء والشعراء أنتمي إليه، عاش المأساة بشكليها، الثابت منه، والمتغير، بعد نكسة حزيران 67، وما نجم عنها من إنسجام وتوافق تامين مع الذات، محلياً وعربياً، وبعد إنتفاضة ديسمبر 1987، وما فجرّته وخلخلته في معادلات الإنسجام والتوافق والتطابق والتماهي، بل: التلاشي في بعض الأحيان.

وإذا كنت قد أشرت في السطور السابقة إلى «معاناة جيل من الكتّاب والأدباء» فإنني لا أرغب عبر هذه الشهادة، في طمس الإختلاف والتفاوت لدى أبناء هذا الجيل. فعلاقة الأديب الفلسطيني بالظواهر والأحداث المحيطة والراهنة تختلف من أديب لآخر، تماماً كاختلاف بدايات هذه العلاقات، التي يبدو أنها تتأثر إلى حد بعيد بالطابع الشخصي لكل واحد منا، وتنطبع على هيئة وعيه لنفسه وللعالم من حوله.

وعندما نسأل: كيف وهل ولماذا أثّرت الإنتفاضة على الكتابة الفلسطينية الإبداعية، يجب أن لا ننسى ونحن نحاول تحميل كتابتنا همّ التقصير بكتابة «شيء» بحجم الإنتفاضة (أي: كتابة عمل أدبي يخلد الإنتفاضة وبدايات علاقته بها، كأن يكتب أحدنا «ملحمة الإنتفاضة») إن هذا التقصير هو «الوصفة المضمونة» لابتعاد الأدب عن ذاته، وتشتته عن نفسه.

وفي اللحظة التي تنفك فيها عرى الإلتحام بين مستويات الوعي القومي العام المنصهرة في بوتقة الخطاب السياسي - الأدبي الواحد، المتشابه، عندما يصبح المناخ مهيأ بالضرورة لإعادة إقتراب الأدب من محوره ومن ذاته، والإعلان عن ميلاد اللحظة التاريخية المواتية لكتابة «العمل الأدبي المنشود» عن الإنتفاضة.

ثم - وهذا سؤال مهم بالطبع في السياق الأدبي أيضاً - بماذا تميزت الإنتفاضة، كحدث تاريخي يتشكل على مستوى الوعي الفلسطيني الحضاري الراهن، لكي تجعل «نقادنا» يبكون غياب النص الإبداعي الذي يضاهي بقامته قامة الإنتفاضة، ويتفجر في وعينا الثقافي، مولّداً نفس الصدى الذي أحدثته هذه الإنتفاضة في نفوسنا، على صعيد الإجماع القومي والوعي القومي العام بهذا الإجماع

وبضرورته أيضاً؟!!

شروط «نص الإنتفاضة»

لأن الكاتب الفلسطيني غير منفصل عن مجريات الراهن المأساوي، تبدو الإشارة ـ بالنسبة إليه ـ إلى «بداية» معينة لعلاقته بمأساة شعبه ضرباً من المغالاة ومجافاة الموضوعية أيضاً.

لكن تظل هنالك علامات فارقة لبدايات جديدة ومختلفة تطرأ على حالة الإنسجام مع المأساة إلى درجة التماهي فيها، مفجرة هواجس وتساؤلات ومراحل ذات طبيعة مختلفة، تكرس الفرق بين ما كان وبين ما سيكون.

والحجر هو مفجر هذه الهواجس في الذات، وهو الذي وفر لها مفاتيح الرموز الثقافية ـ القومية التي هي بحاجة لها لفك شيفرتها، ليصبح بمقدورها أن تعلن إنتماء صاحبها للعصر الذي يعيش فيه، وليس فقط للشعب الذي يعيش مأساته.

والإنتفاضة ـ على الصعيد الثقافي ـ القومي ـ كانت تجسيداً لرؤيا تاريخية وثقافية وحضارية، وتحقيقاً لوعي ثقافي وطني يعرف كيف يحوّل الحلم إلى واقع، ويسطر بالنشيد (الشعر / الإبداع) صفحات مضيئة في تاريخ هذا الشرق. وهي، على الصعيد الثقافي ـ الحضاري، خالقة هذا الأفق الرحيب المنتشر «من المحيط إلى الخليج» / «من الجنوب إلى الجنوب»، ينتظر الشعوب المقموعة التي قعدت دون نيل حريتها، تنتظر..

(وإيغالاً في التخصيص، نود هنا أن نضيف أنه ليس شرطاً أن يفسر الكاتب الفلسطيني عملية تفجير الوثاق الذي يقيّده للنمط القومي المرموق ـ أي المطلوب، كنموذج أعلى ـ بأنها عمل سلبي، تضعه ضد السياق والحتمية التاريخية والوعي الجدلي. إذا عمل الكاتب ضد السياق اللغوي ـ الأسلوبي ـ الكتابي المألوف، «المشاع»، الذي يطالب به الجميع ويمتلكه الجميع، كيفما يشاؤون ومتى يشاؤون، إذا نجح الكاتب في إحداث سياق جديد للنص ـ كما تحدده مصطلحات الكتابة في الأساس لدى «بارت»، على سبيل المثال ـ وابتكر لغة جديدة وأسلوباً جديداً، وكتابة جديدة، عندها فقط تتبلور فرصة إبداع نص مرموق، وبالمواصفات «المشاع» كذلك، وبدونها، أيضاً).

لقد أصبح تمزق الوعي البرجوازي حقيقة تاريخية ملموسة. وهذا بذاته شمل جوانب عديدة من أشكال هذا الوعي، وبضمنها: الإبداع الأدبي والثقافي. وفي حالات معينة اقترنت هذه العملية بانفتاح معين على الحداثة. لكن «إنفتاح» كتابتنا لم يسهم في أي طرح جديد. لا في طرح الأسئلة الثقافية ولا في إلحاح إعادة النظر في العلاقة السوسيوثقافية/ أدبية وبالذات ما يخص السياسي ـ الشعري منها. ورغم الإنفتاح العام للحياة الثقافية عندنا، بقيت المراوحة عند عتبة الأسئلة ذاتها.

المراوحة عند التعابير والألفاظ المعجمية: نضال، حرية، إستقلال، وما أشبه. وأية مراجعة لهذه

الألفاظ في سياقاتها الإبداعية تضيء حقيقة مذهلة تخص الشاعر الفلسطيني، وهي أنه - في هذه الحالة - لا يبدع نصاً جديداً بقدر ما يتركز على إستلاف كلام الناس العادي واستعماله في سياقاته الشعرية، دون أي تعديل أو تغيير، والإحتفاظ بقوالب المعجم السياسي - الجماهيري، الذي يعني الإبقاء على جثث محنّطة داخل قوالب شعرية معلنة سلفاً.

(الشاعر، هنا، إذن، لا يبدع، بل يكرّس كلام الناس العادي في سياقات لفظية وكلامية ليست جديدة أبداً. والإنغلاق أمام الحداثة يفقد الرمز دلالاته ويفرغه من شحناته الحقيقية: «ظلام / نور / شمس»... إلخ).

هكذا يلجأ المبدع إلى التداول والتقريرية، واعتماد الخطابة والتحريض الحماسي الذي يفضي إلى التقريرية والمباشرة، ويبعده عن كتابة النص الجديد الذي فجّر إحتمالات ولادته، الإنفجار العام في أسباب الراهن وشروطه.

أنا «الوعي الشقي المتمرد»

تشرح لنا أطروحات «بارت» (الدرجة الصفر للكتابة) تفجير الأدب لعرى إلتحامه بذاته أو اقترابه من نفسه، باعتباره «حدثاً تاريخياً بالمعنى العميق: إنه إنفجار للوحدة الأيديولوجية التي كانت، مثلاً بالنسبة لفرنسا، تكوّن الإسمنت المرصّص لصفوف البرجوازية ولوعيها» (بارت / ص 12) وذلك بعد أن تأكد كحقيقة تاريخية (اتضحت بعد أن صارت ملكاً للتاريخ، كالعادة!) إن الأشكال «لم تكن تتمايز في العمق، لا عند الكلاسيكية ولا عند الرومانسية، وإنما سيصبح ذلك ممكناً في منتصف القرن التاسع عشر، بعد أن ترنّحت صورة الكوني الإنسانوي، ونسجت الصراعات الإجتماعية والإنتفاضات (1830 - 1848) وعياً شقياً عند الكتّاب والشعراء فتمرّدوا بدورهم على الأشكال والقواعد الموروثة واللغة المحفوظة». (الدرجة الصفر للكتابة / مقدمة محمد برادة).

ولعلنا، بوحي من هذه الأطروحة، نسأل عن رصيد «الوعي الشقي» لدى المبدع الفلسطيني المدعو للتمرد «على الأشكال والقواعد الموروثة واللغة المحفوظة» ونجيب كذلك أنه محصور - أي الوعي - في بعض النماذج الإبداعية لعدد محدود من الكتّاب العائدين الذين عاشوا في الشتات الفلسطيني، بينما كاتبنا المقيم يعيش إنسجامه مع المأساة بطريقة تقليدية مريبة!

التواجد في أتون المأساة، البقاء في الوطن، هو الذي صاغ الصورة الجديدة للوعي الشخصي وحدد طبيعة «علاقتي الشخصية والمباشرة» بإنتفاضة شعبنا في الضفة والقطاع منذ مراحلها الأولى. وقد وجدت نفسي أخلد إلى التأمل والصمت والإبتعاد عن الفعل الكتابي، لما أظنه تقديراً صحيحاً لحجم ما نحن إزاءه. وحيداً، جابهت خلال هذه المرحلة، أسئلة جديدة ظلّت تطرح نفسها

بحدة، ومعظمها كان يتطلب إجابة فورية دقيقة وصحيحة: من أنا، الباقي في وطنه الذي صار وطناً لآخرين ويحمل إسماً غير الذي تحفظه الذاكرة الجماعية لمن بقوا ومن رحلوا، من أنا وسط هذه البلاد المشتعلة، بلاد النار، بلاد هؤلاء الأولاد بعمر الورود، الذين خرجوا ينتفضون ضد أسوأ إحتلال عرفه التاريخ البشري، إحتلال وقح يدعي أنه «متنور»، ولكنه ذلك الإحتلال الذي يليق بمن أصروا على تسمية أنفسهم بـ «شعب الكتاب»! هل يمكنني أن أكون ما أريده في هذا البركان المنتفض، الذي صهر كل شيء وأعاد كل شيء إلى عناصره الأولية، البدنية؟!

صوَر، من «بلاد النار»

في سنة 1988 كلفتني أسبوعية «كوتيريت راشيت» العبرية (المحتجبة حالياً) بالكتابة عن غزة «بعيون شاعر عربي إسرائيلي». وقد كانت محصلة أربعة شهور من السفر والتنقل ومعايشة الحدث اليومي عدداً خاصاً (صدر يوم عيد الفصح) ضم قرابة ثمانين صفحة استطعت من خلالها التوغل عميقاً في هذا العالم المثير وفهمه أكثر. وكان طبيعياً أن تترسخ قناعات عندي وتهتز أخرى، يعود الفضل فيها لمشاهدتي اليومية هناك، التي أعادت إلى روحي ما كان واقع حياتي اليومي، هنا، داخل «الخط الأخضر» قد أنساني إياه. لكنني في الثاني من يناير 1988 اكتشفت المعنى الحقيقي لما اصطلح الإعلام المعاصر على توصيفه لنا، نحن أبناء «الشرق»، أبناء «الجنوب»، أبناء «العالم الثالث»، بأنه «صدمة الحضارة». ولكنها صدمة أنفسنا لأنفسنا. وحضارتنا لحضارتنا. إنها الصدمة التي تنجم، عادةً، عن إلتحام شطري الذات المنفصمة، عندما يكون شطرها الأول محكوماً بقوانين هي النقيض المطلق لشطرها الثاني، والغريب.

واناداحت الأسئلة في مخيلتي. أسئلة نفسي لنفسي. وهذا الذي كان بيني وبين نفسي، انطلق يصحح مفاهيمها ويعيد إليها بهاء الإنتماء الحائر: كلما وقفت قبالة المرآة، تساءلت: كيف تحقق ذاتك، شاعراً، إزاء طفل يصوب مقلاعه نحو العدو، ويموت؟ ما قيمة حقيقتك، أنت الممنوع بحكم إنتمائك الجغرافي إلى مكان أنت محكوم فيه بقوانين تمنعك حتى من التماثل والتعاطف، فكم بالحري - المشاركة؟

إنه الوعي القومي الراهن الذي يوضح لك كل شيء. ورغم أن هذا الوضوح ممكن منذ الشرارة الأولى، إلا أنك تظل بحاجة إلى ذلك الوعي سلاحاً يساعدك على فهم ما يجري بالطريقة الصحيحة، وأمامك، دون تحقيق ذلك، ومن أجل تحقيق ذلك أيضاً - شروط، لعل أهمها ألا تبالغ في رومنسيتك الوطنية أو وطنيتك الرومنسية، ألا تبالغ بتشاؤمك ويأسك وأنت ترى حجراً صغيراً بحجم القلب يجابه «دولة عظمى»، هي «واحة» نووية في هذا الشرق «البداني»، المتحجر! «سفينة فضاء» في صحراء جرداء، هجيرية!

وتمضي: لا الحجر أيها الشاعر ولا الإطار المشتعل حسما إدراكك منذ البداية - رغم وضوح هذه البداية - إنك عاجز ومحدود وممنوع من المشاركة، وإن مأساتك تبدأ من اللحظة التي تفكر فيها أنك جدير بأن تشارك في صنع هذا التاريخ المجيد، الذي يشمخ أمامك، وأنت دونه قاعد لا حول ولا قوة..

أين تقف أنت، كشاعر وكفلسطيني، من هذا كله؟ أين حلولك السحرية للأزمة، التي طالما منيت النفس بها من قبل، وأركنت إليها، متوغلاً عميقاً جداً في ذاتك، بعيداً عن إشكالية الراهن، وتقلباته السريعة؟

لو أردت كتابة صوت الجماعة لوجدت أن مشروع الشاعر الفلسطيني الثقافي لا ينطوي على أي حل جاهز أو منتظر..

وإذا كان لديك - كفرد في هذه الجماعة، ولكن: ضمن شروطك أنت - بعض طموح لبعض من حل، فماذا يمكنك أن تفعل سوى أن تَعِد بوطنٍ/ قصيدة، وبقصيدة، هي الوطن!

وإذا فعلت ذلك، أي: إذا جرؤت على تحويل الرؤيا إلى جسد، فإنك هالك بالتأكيد..

قدر الشاعر الفلسطيني

قدر الشاعر الفلسطيني/ الشاعر الثوري، أن يتابع مشوار عذابه نحو اللانهاية.. من هنا نشأ التشابه بين الشاعر الفلسطيني وبين سيزيف، الواقعي جداً، الخارج من قلب الأسطورة، ليعيد تشكيلها على أرض الواقع، ضمن مواصفات وشروط الراهن الصعب، المعقّد، والمحبط في نفس الآن.

هذا الراهن هو الواقع العربي اللامعقول، الذي ينطوي على كثير من عناصر السوريالية التي تتحول فيه إلى «واقعية مبالغ في سذاجتها» على حد تعبير محمود درويش، يجعل من أسطورة سيزيف مقولة سياسية وثقافية معاً، ينسجها الشاعر الفلسطيني في حلمه/ أدبه/ كتابته الإبداعية، بحجم وعيه لأبعاد هذه الأسطورة في الواقع العربي المشبع بالأسئلة..

والسؤال/ الأسئلة التي يطرحها الراهن العربي ليست بالضرورة أسئلة سوريالية، بل هي شرط من شروط العبث التي يمكن أن تتغير نتائجها إذا تغيّرت هي نفسها.. ولكن، من يمكنه أن يضمن أن تتغير شروط هذا الواقع العبثي السوريالي ما دام الناس فيه لا يتغيرون؟

من هنا فإن الكاتب الفلسطيني، إذا قصّر في تسجيل الإحتمالات الثورية التي ينطوي عليها الراهن العربي المتوغل - هو - والمتورط فيه عميقاً، فإنه يجد نفسه ملزماً بالإبتعاد عنه ليكتبه في الحلم واقعاً مختلفاً، لا يظل له سوى أن يتمنّى تحققه ضمن اللحظة التاريخية التي ستفلت من بين يديه، إذا لم «يقبض على عنقها»، ولو بالكتابة «المتمردة»، غير المنسجمة مع أحلامه في هذا الواقع - الراهن - الجديد. إذا فعل ذلك، فإنه لا يعود بحاجة للإبتعاد، زمنياً، عن الواقع، ليكتب ملحمة إنقلابه

أو ثورته من جديد.

2. حانت لحظةُ الحقيقة

يبتدىء الواقع الثقافي الإسرائيلي نُظُمَهُ ومفاهيمَهُ الجديدة، عبر محاولات بعض رموزه من الكتّاب المشتغلين بقضاياه ترسيخها، وخلق قاعدة عريضة تقوم عليها محاولاتهم التصالح مع الذات ومع الواقع الجديد، وهم يشهدون ما تصنعه القيادة السياسية الاسرائيلية على الساحة الشرق أوسطية، وبالذات: على الساحة الفلسطينية.

ولولا حرصنا على تجنّب الانزلاق في جمُود "الستيريوتيب"، لتوصيف ما يحدث، لقلنا إنها «خلخلة في المؤسسة الثقافية الإسرائيلية»، ابتدأت، أساساً، بـ «قِمَم الأرز»، فصار التغيير الحتمي في مؤسسة مثل «الاتحاد العام للكتّاب في إسرائيل» أمراً طبيعياً، إذا ما قيس بالانقلاب السياسي الذي أحدثته القيادة السياسية في موقفها من قضايا السلام والأرض والتصالح مع العرب والفلسطينيين.

الآن صار بإمكان مجلة «رابطة الأدباء العبريين» الشهرية «موزنايم» (ميزان) أن تصدرّ عددها الجديد (ديسمبر 1995) بمحاضرة الباحث في الأدب العربي د. عامي إلعاد بوسكيله، حول «إنفتاح وانغلاق المجتمع الإسرائيلي في الشرق الأوسط في زمن السلام» التي يرفع فيها، بوضوح، لواء التعامل مع ثقافات المنطقة: «الآن، ودولة اسرائيل تمر في عملية سلام ـ وهي عملية تخرّب عليها عناصر إسلامية متطرفة ـ ثمّة حاجة لإعادة إنتاج ملامح الثقافة الإسرائيلية (إذا جاز استعمال مصطلح «اعادة انتاج ملامح ثقافة») بصورة مختلفة. سعى مؤسسو دولة إسرائيل بل نجحوا إلى حدّ ما في إضفاء طابع غربي على ثقافتها، وفي السنوات الأخيرة طابعا أمريكياً. لكن كل من يرغب بالعيش في الشرق الأوسط عليه الاستفادة من الثقافات المحيطة به». (موزنايم، ديسمبر 1995).

وبالرغم من أن مجلة «الأدباء العبريين» لم تُضمِّن عددها الأخير وقائع «إعادة صياغة» أكبر تنظيم للأدباء في إسرائيل (الذي صار يحمل اسماً جديداً هو «رابطة أدباء عامة في إسرائيل»، بعد أن أقامت «مؤتمرها التأسيسي» الأول في تل أبيب يومي 18 و 19 ديسمبر الماضي)، الا أنّ التغيير الحقيقي قد وقع فعلا، عندما تم إسقاط صفة «الكتاب العبريين» عن اسم الاتحاد، ليحمل بدلاً من ذلك اسم «رابطة أدباء عامة»، وذلك لتمكين الكتّاب الذين لا يكتبون العبرية ويعيشون في إسرائيل (كتّاب عرب، كتّاب إيديش، كتّاب روسية وغيرها من اللغات) من الانضمام للجسم الجديد.

هذا التغيير لم يكن شكلياً في اسم الاتحاد فقط، بل أنه أعقب إنسحاب عشرات الأدباء من

رابطة الأدباء العبريين السابقة التي أغلقت أبوابها بوجه الكتّاب العرب باعتبارهم أبناء لقومية اخرى، في الوقت الذي مكّنت فيه كتّاب الروسية اليهود، مثلا، من الإنضمام إليها. وقد أبقت هذه المقاييس التي حددها دستورها كاتباً مبدعاً بالعربية مثل سمير نقّاش (اليهودي من أصل عراقي، والعائش في رمات غان قرب تل أبيب) خارج صفوفها، لكونه يكتب بالعربية، ولا حاجة للقول إن نقّاش كذلك لم يجد نفسه في رابطة أو إتحاد الكتّاب العرب، لكونه إبناً لقومية أخرى، رغم أنه أبدع ويبدع باللغة العربية.

وقد رسخ الانسحاب من الاتحاد السابق انشقاقاً في أوساط الكتّاب الاسرائيليين، نجم عن أسباب أيديولوجية ومهنية معاً. وبقدر ما يعكس الجسم الجديد توجهاً إيجابيا نحو الكتّاب العرب الذين انضموا جزنيا في الوقت الحالي له، بقدر ما يضعهم في «ورطة» ثقافية لعلها لم تكن محسوبة من قبل، خاصة وأن طموحات قسم كبير من كتّاب العربية عندنا تتلخص أساساً في إقامة اتحاد للكتّاب العرب، يضع حداً للمهزلة الحاصلة حالياً في هذا الجسم العربي العجيب، الذي بفضله انخفضت مستويات القياس عندنا وحلّت التعقيدات النفسية والبينية محل الأدب(!!) ولا يمكن لاندماجهم في الاتحاد الجديد (وسيقول البعض «ذوبانهم») أن يفي بحاجتهم هذه.

فقد أشار بيان للصحافة وزّع عشية مؤتمر 18 - 19 ديسمبر في تل أبيب إلى أن «رابطة الادباء العامة في إسرائيل تُقام بدوافع أيديولوجية ثقافية، ترى أن كافة الآداب المكتوبة في دولة اسرائيل بلغات مختلفة هي جميعها جزء من الأدب الإسرائيلي (هل يوافق كتّابُنا على هذه التسميات؟ م. غ)، لأنها تنطلق من التجربة الإسرائيلية وتصفها. كل مجموعة لغوية في البلاد تعبّر عن الواقع الاسرائيلي بطريقتها هي. لذلك، من الطبيعي أن يكون كافة مبدعي الأدب الإسرائيلي منظمين في تنظيم واحد. كذلك فإن مؤسسي الرابطة العامة للادباء في إسرائيل يؤمنون ان الادب يتطور فقط اذا تواجد الى جانب ثقافات وآداب اخرى، وعاش توترات وتأثيرات متبادلة معها.»

وعدا الوجه السياسي للتغيير المذكور، فقد تعاملت الرابطة الجديدة مع نفسها باعتبارها اطارا سيضع حداً للتمييز الحاصل منذ عشرات السنين بحق كتّاب العربية، وكتّاب اللغات الاخرى غير العبرية، الذين حرِموا من امتيازات مالية كثيرة كانت مقصورة على الادباء العبريين فقط، مثل جائزة رئيس الحكومة، والمكافآت المدفوعة للكتّاب لقاء استعمال كتبهم في المكتبات العامة، وغيرها من القضايا التي فصّلها دستور الرابطة الجديدة.

وما يلفت الإنتباه حقا هو أن الجسم الجديد استقطب أسماء بارزة من كتّاب الصف الأول في اسرائيل، وبجميع اللغات، وهو ما يجعله تنظيماً نقابياً ومهنياً هاماً للغاية.

على ضوء كل ما تقدم لا يمكن أن نتجاهل كون الجسم الجديد ولد مسيّساً، وقد تم الإعداد لذلك بصورة ملفتة للإنتباه، كما انعكس ذلك في المؤتمر التأسيسي وما تلاه من فعاليات ونشاطات

وتشكيل لجان.

فالاجتماع التأسيسي حظي بمباركة الوسط السياسي، بدءاً بعيزر فايتسمان رئيس الدولة وشمعون بيرس رئيس الحكومة، وانتهاء بالوزير يئير صبآن وزير الاستيعاب والهجرة، المسؤول الأول والمباشر عن استيعاب المئات من الكتّاب والفنانين والمبدعين اليهود الروس في اسرائيل، الذين قدموا في موجات الهجرة الروسية التي تشهدها إسرائيل منذ سنين. وإذا أضفنا لذلك حقيقة أن الكتّاب الروس يكتبون بلغتهم الأم، تتضح المعالم النهائية لهذا الإطار الجديد: «رابطة أدباء» يكتبون بلغاتهم الأم، ويعيشون في دولة إسرائيل، ويصنعون، معاً، ملامح الثقافة التي يتم إنتاجها فيها، بكل اللغات: العبرية، العربية، الروسية، الإيدية، وغيرها.

السياسيون هنا، وبرأسهم شمعون بيرس رئيس الوزراء، يتوخّون تحقق الجانب السياسي لهذا الإطار الجديد، كما دلّت كلمته للإجتماع التأسيسي: «الثقافة الاسرائيلية التي يتم التعبير عنها باللغة، تعكس تراثاً تبلور وتواصل من جيل لجيل بهذه اللغة. فالغالبية العظمى من كتّاب اسرائيل يكتبون بالعبرية ويشتركون في خلق التراث العبري المتجدد. لكن ثقافتنا، تماماً كما المجتمع الاسرائيلي، مبنية على مصادر مختلفة. علينا أن نتقبلها جميعا، ونحترمها جميعا ونرعاها، من خلال الاعتراف بالتعددية الثقافية، الضرورية لبناء مجتمع يقوم على الاسس الانسانية. والكتّاب الاسرائيليون بالعبرية والعربية والروسية والايدية - كل واحد منهم على حدة، وجميعهم معاً - يسهمون في بناء ثقافة دولة اسرائيل وجميعهم يستحقون الشكر. لا يجب على الخصوصية الثقافية أن تفصل بين المجموعات المختلفة، فالتميزُّ يضع أساس الوحدة».

ولعل أوضح رسالة إلى الاجتماع التأسيسي كانت كلمة وزيرة الاتصال والعلوم والفنون شولميت ألوني (يسار) ، التي أشارت فيها إلى أنه «لا يوجد مكان في دولة إسرائيل اليوم لخلق تمييز ومفاضلة في أوساط كتّاب اللغات المختلفة. لا يجب أن نسمح بالتمييز. لا يجب أن تكون هناك مفاضلة بين الكتّاب الذين يعيشون في نفس المجتمع ونفس الدولة، ولا يجب أن يكون هناك فصل بين الكتّاب جرّاء أصلهم، أو دينهم أو قوميتهم. واذا كنا نؤمن أن الانتاج الأدبي ينطوي على الاصول المهنية بالاضافة للجمالية، فان ذلك يضطرنا للتعامل بالتساوي مع الجميع. كلنا جماعة واحدة من بني البشر».

أما بخصوص مكانة الأديب الإسرائيلي اليوم، فقالت ألوني: «راحت تلك الأيام التي كانت المؤسسة تتوجه اليكم أنتم الادباء طالبةً المساعدة. آن الأوان لأن تقوموا أنتم بتجنيد المؤسسة لصالح الاديب الوحيد. لتكون له غرفة خاصة به، وطاولة خاصة، وقلم».

أحقاً: «غرفة، وطاولة، وقلم.. لكل كاتب» في إسرائيل؟!

(باقة الغربية)

إدوارد سعيد وصورة الفلسطينيين

إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟ أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة؟ أين تنام النباتات بعد الهواء الأخير؟ سنكتب أسماءنا بالبخار الملوّن بالقرمزي سنقطع كف النشيد ليكمله لحمنا. هنا سنموت. هنا في الممر الأخير، هنا أو هنا سوف يغرس زيتونه.. دمنا.

(محمود درويش- تضيق بنا الأرض- من «ورد أقل»- ص17)

فخري صالح

في كتابه «ما بعد- باختين: مقالات في الرواية والنقد»[1] يتحدث الناقد البريطاني ديڤيد لودج، عن الناقد والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد بصورة قدحية تشكك في صيغة انتشاره وطبيعة إسهامه النقدي في الإنتاج النقدي المعاصر في العالم الناطق بالإنجليزية. ويزعم لودج أن سطوع نجم سعيد يعود إلى وجود جالية يهودية قوية في أمريكا مما يجعل بروز إسم فلسطيني أمراً متوقعاً لما سيثيره هذا الفلسطيني من جدل في الأوساط الأمريكية لوجود نقيضه القوي الفاعل على الساحة الأمريكية. ورغم أن لودج، وهو ناقد كبير ومتابع للنقد في العالم، يسوق هجومه على سعيد ضمن حملة مركزة على النقد في الجامعات الأمريكية إلاّ أنه ينتقيه من بين أسماء عديدة ليحط من قدر عمله ويبخس إسهاماته النقدية التي أثارت جدلاً واسعاً في الأوساط النقدية العالمية. ويبدو أن الهجوم يندرج في سياق التنافس النقدي الحاد الذي يجري في إطار النقد الأنجلو- ساكسوني.

ومع أن هجوم لودج لا ينقص كثيراً من قدر إدوارد سعيد ولا يجرد أعماله النقدية من جدتها وجديتها وعمقها وقدرتها على إثارة الجدل والحوار حولها إلاّ أن ذلك يذكرني بالتقديم غير الجدي لهذا الفلسطيني في ثقافتنا العربية واختزاله إلى مجرد صاحب رأي سياسي ومنافح عن القضية الفلسطينية في الغرب ومنتقد للسياسات الفلسطينية والعربية في أشكال تعاملها مع أمريكا وعدم عملها على إستراتيجيات تؤثر على الرأي العام الأمريكي.

هناك كتابان فقط ترجما له إلى العربية هما «الإستشراق» و«تغطية الإسلام» إضافة إلى كتابه الأخير الذي أصدره بالعربية قبل الإنجليزية والموجّه إلى القارئ العربي بصورة خاصة «غزة- أريحا: سلام أمريكي». وقد أعلنت «دار الآداب» في بيروت عن نيتها إصدار ترجمة لكتابه «الثقافة والإمبريالية». والكتب، كما يلاحظ من عناوينها، تدور حول أسئلة وموضوعات ساخنة تجذب اهتمام

القراء من مشارب متنوعة لاتصالها بإشكاليات حياتهم اليومية. لكن مجمل إنتاج إدوارد سعيد النقدي ليس معروفاً للقارىء العربي. وتطور هذا الناقد الكبير ليس واضحاً حتى للمثقفين والنقّاد العرب. إنه ببساطة صاحب «الإستشراق» الذي أثار جلبة واسعة في أوساط المهتمين بالإستشراق وصاحب النظرية التي تقول أن الغرب قد اخترع الشرق، في الكتابات الإستشراقية، وصور استيهاماته عن هذا الشرق؛ أما بقية نتاجه المهم فليس معروفاً للقراء العرب المهتمين.

لقد أنتج صاحب «الاستشراق» عدداً من الأعمال النقدية الأساسية في الفكر الغربي و«الاستشراق» واحد منها فقط. فمنذ أصدر كتابه الأول «جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية» عام 1966 لفت إدوارد سعيد الأنظار، ثم قدم كتابه «بدايات» الذي أبان فيه عن شخصية ناقد كبير يعرف النقد الفرنسي معرفة سمحت له بتقديم البنيوية ومتفرعاتها لقراء اللغة الإنجليزية، وتقديم دراسة متميزة كذلك عن مفهوم «بداية» العمل الأدبي وأثر «البداية» على بنية النص. أما في كتابه «العالم والنص والناقد» فإنه يواصل العمل على الموضوعات الأساسية التي عالج بعضها في «الإستشراق» و«بدايات» و«جوزيف كونراد» مهتماً بقضايا الإستشراق ومتفرعاته وبإسهام النقد في المجتمع داعياً إلى إشاعة ما يسميه «نقداً علمانياً» في مقابل «النقد الديني».

إدوارد سعيد يثبت في كتبه العديدة التي تغطي مساحات واسعة من الإهتمامات وميادين العمل الثقافية، بدءاً من الدراسة الأدبية العملية (النقد العملي - التطبيقي)، مروراً بتاريخ أنظمة الفكر والنقد الموسيقي والمجال السياسي، وانتهاء بالمزاوجة بين آفاق متنوعة من الممارسات الثقافية في «الاستشراق» و«العالم والنص والناقد» و«الثقافة الإمبريالية»، إن شخصيته الثقافية الغنية بحاجة إلى قراءة تركيبية.

كتابه «بعد السماء الأخيرة»(2) هو ثمرة العمل في هذه الميادين جميعاً، حيث يستفيد من إنجازه في حقل الاستشراق وما يسمى الدراسات الشرقية أو الإقليمية، وكذلك دراسته للقضية الفلسطينية في كتابيه «القضية الفلسطينية» و«لوم الضحايا» (الكتاب الأخير أسهم سعيد في كتابة بحوثه بصورة أساسية، كما قام بتحريره بالتعاون مع كريستوفر هيتشنز) للتوصل إلى قراءة لحالة الفلسطيني من خلال الصور التي صورها جان موهر وكتب سعيد نصه إنطلاقاً منها.

يكتب إدوارد سعيد: «ليس هذا الكتاب كتاباً «موضوعياً». لقد كان قصدنا هو أن نرى الفلسطينيين بأعين فلسطينية». (ص6). وهو يعلن بذلك عن الشكل الذي سيأخذه الكتاب في رحلة بين العين الرائية (عين كاميرا المصوّر السويسري جان موهر) وعين الآخر الرائية. والنص الذي يكتبه إدوارد سعيد منطلقاً من أرضية الصور، بما تستثيره فيه الصور من إنفعالات وأحاسيس وذكريات وتأملات، ورغم ذلك لا يبدو النص مبعثراً دون مركز، مشتتاً بين الصور والنص المكتوب. إن الصور تتضافر في تقديم خلفية للنص إذ تصطدم بها عين القارىء وهي تتابع النص المكتوب الذي

ينطلق من الصور ليعيد لحم ما تثيره الصورة فيه من إحساس بنص الذكريات أو التأملات السياسية والنظر في مصير الفلسطيني المقتلع خارج أرضه وداخلها. ليس ثمة أفضل من هذه الوسيلة التي تستفيد من الصورة الحية لعرض إشكالية الوجود الفلسطيني أمام العين والذهن الغربيين. كاميرا من الغرب وعين شارحة من فلسطين ونص يستفيد من فهم المؤلف لدور المثقف العضوي بالمفهوم الغرامشي للتعبير، الذي يعادل مفهومه لضرورة أن يكون الكاتب «دنيوي» النزعة ملتصقاً بشروط عصره يتخذها منطلقاً لمشاركته في إيجاد أجوبة على الأسئلة التي يطرحها عصره عليه، وأن يكون، بهذا المعنى، جزءاً من «الإمكانيات الإجتماعية والفعاليات السياسية»[3]، لهذا العصر.

إنطلاقاً من هذا الفهم لطبيعة مشاركة المثقف السياسية والإجتماعية يأخذ كتاب سعيد «بعد السماء الأخيرة» شكلاً من أشكال الدمج بين المادة الموضوعية المتوفرة بين يديه، بما في ذلك الصور التي صورها جان موهر، والذكريات الشخصية التي توفر مادة حية تتمتع بقدر كبير من الحميمية وتعطي الكتاب طابعاً سردياً يكشف عن المعاناة الوجودية الكبرى للفلسطينيين الذين أصبح سعيد واحداً من أهم الناطقين بإسمهم في الغرب، في أمريكا أولاً، وفي بريطانيا أيضاً بصورة متزايدة في السنوات الأخيرة[4].

تبدأ حكاية الكتاب من مهمة كلف بها إدوارد سعيد عام 1983 للتحضير لمؤتمر دولي تعقده الأمم المتحدة حول القضية الفلسطينية. وقد اقترح إدوارد سعيد على المسؤولين في الأمم المتحدة ضرورة أن تقوم الهيئة المنظمة للمؤتمر بتعليق صور أخذها المصور السويسري جان موهر للفلسطينيين في كل أماكن تواجدهم، داخل فلسطين وخارجها، على مدخل القاعة التي سيعقد فيها المؤتمر. ولكن مسؤولي الأمم المتحدة قرروا، بعد أخذ ورد، أن تعلق الصور هكذا دون شرح أو تعليق، دون أية إشارة سوى كلمة واحدة تعلن عن البلد الذي أخذت فيه الصورة. ولقد قرر إدوارد سعيد بعد هذه التجربة التي يعلق عليها في مقدمة الكتاب[5] (ص: 3-4) أن يقوم بتأليف كتاب تكون فيه هذه الصور، التي ما قيض لها أن تعرض بالطريقة التي تشرح معاناة الفلسطينيين وتوقهم إلى الحرية وتقرير المصير وإقامة دولتهم المستقلة، منطلقاً لنصه المكتوب. لكن الصور لا تقيد حركة سعيد في الزمان أو المكان. إن التعليق أو السرد ينهض منها ليستكمل المشهد الصامت الذي تنقله الصورة مضفياً على الصور حيوية ومعطياً لها معنى في سياق النص حيث يتبادل النص والصورة أحياناً توضيح بعضهما بعضاً وجلاء الغامض فيهما.

إن المطّلع على نصوص سعيد، سواء منها التي تتناول حقولاً معرفية مثل النقد الأدبي أو الإستشراق ونسله من المعارف، أو حتى كتاباته السياسية عن فلسطين ومقالاته في التعليق على الأحداث والتطورات الدولية بشأن فلسطين والمنطقة العربية، يعثر على الدوام على فكرة المنفى

مبثوثة في كتاباته، تلك الفكرة المركزية التي تصبح بؤرة إشعاع متصل في نص إدوارد سعيد الحالي ونصوصه الأخرى، وعلى رأسها كتابه الأخير المميز «الثقافة والإمبريالية»[6]، وهو في «بعد السماء الأخيرة» يستعيد وضعيته كمنفي بالمعنيين السياسي والثقافي، ويشرح لقارئه الأجنبي كيف أصبح هو وعائلته منفيين عن الوطن (ص:18 ـ 19)، ويوضح هذا الوضع بالنسبة له ولباقي الفلسطينيين:

«لقد تبخر من حياتي وحياة الفلسطينيين جميعاً ثبات الجغرافيا وامتداد الأرض، وحتى لو لم نكن لنستوقف على الحدود أو نساق إلى مخيمات جديدة أو نمنع من الدخول أو الإقامة أو السفر من مكان إلى آخر، فإن أراضي أخرى لنا تحتل ويجري التدخل في حياة كل منّا بصورة إعتباطية وتمنع أصواتنا من الوصول إلى بعضنا بعضاً؛ إن هويتنا تقيد وتحبس وتحاصر في جزر صغيرة خائفة ضمن محيط غير مضياف تحكمه قوة عسكرية عليا تستخدم رطانة إدارة حكومية تؤمن بالطهارة (العرقية) الخالصة». (ص:19 ـ 20).

من هذا الشعور بالإندراج في المشهد الذي يكتب عنه الكاتب تأتي وحدة الكتاب والناظم الداخلي الذي يجعل النص متماسكاً وممتداً على مدار الصفحات المائة وأربع وسبعين، ويعمل إدوارد سعيد، منذ الصفحات الأولى، على توضيح هذا التشابك بين المادة الموضوعية في الكتاب والمادة المتصلة بذكريات الكاتب ومشاعره الشخصية وحضوره البالغ في نصه وانطلاقه بصورة أساسية من التجربة الشخصية الخاصة به وبعائلته. إن سعيد يوضح لقارئه أن هناك صعوبة في تعيين الفلسطينيين لأن جسماً ضخماً من المادة الإعلامية والأبحاث (!) قد اختصرت الفلسطينيين إلى مجرد صور نمطية متداولة في الغرب عن الفلسطيني اللاجىء أو المقاتل أو الإرهابي أو المنبوذ الذي لا هوية له (ص:4)[7]. ومن هنا فإن مهمة أساسية من مهمات «بعد السماء الأخيرة» هي العمل على تغيير هذه الصورة النمطية للفلسطيني في الغرب عبر عرض جوانب من حياة الفلسطينيين مصورة ومصحوبة بنص سردي ينتقل من حقل الكتابة التاريخية إلى حقل الدراسة الإحصائية إلى التعليق على الواقع الثقافي والأدبي للفلسطينيين المعاصرين إلى التأمل الذاتي وسرد الذكريات.

يعلق سعيد على نقطة إنطلاق نصه قائلاً: «لقد وجدت نفسي، عندما بدأت في كتابة هذا الكتاب، أتنقل بين الضمائر، من «نحن» إلى «أنتم» إلى «هم» لكي أكون قادراً على تعيين هوية الفلسطينيين» (ص:6). ويبدو هذا التنقل بين الضمائر نابعاً من إيمان سعيد بأن التاريخ الفلسطيني، بسبب من تجربة المنفى، قد افتقد المركز الذي يوفره ثبات الجغرافيا وامتداد الأرض. لكن تجربة المنفى والشعور بالمعاناة هي في نظره الناظم المركزي وما يوحّد فعلاً التجربة الوطنية للشعب الفلسطيني رغم أن المنفى الفلسطيني، بحسب إدوارد سعيد، «خفيّ غير ظاهر وهو

بالنسبة لكل منّا شيء شديد الخصوصية» (ص: 5). لقد أدى هذا الإرتباط الحميمي بفكرة فلسطين بالفلسطيني إلى أن يضيع معنى المكان، أن يفكر بفلسطين بوصفها قطعة من الأرض مزدحمة بالبشر طرد منها. وهكذا، يقول سعيد، فإن «أية محاولة لاستعادة الهوية الفلسطينية هي أيضاً محاولة للعودة إلى الخارطة، لمساعدة فلسطينيي الداخل على الحفاظ على ثباتهم المهدد» على أرض فلسطين. (ص: 62).

إن من بين مهمات كتاب مثل «بعد السماء الأخيرة» التشديد على الوجود الفلسطيني أمام أعين العالم، تقديم الفلسطينيين كما هم للقارىء الذي لا ينبغي أن يظن أنه هو وحده الذي يتفحص الفلسطينيين، بل إن الفلسطينيين الذين في الصور يقومون بتفحصه أيضاً. إنهم، حسب الكلمات الأخيرة لسعيد، ليسوا مجرد موضوع للآخرين، بل إنهم أيضاً يقومون بالنظر إلى القارىء وتفحصه والحكم عليه. وتلك هي واحدة من مهمات الكتاب، أن يشعر القارىء، بالنظر إلى الصور وقراءة النص، بأن العيون التي تطل من بين ثنايا الكتاب تراقبه وتتفحصه، وتشدد على الوجود الفعلي لها وتقتحم عليه خلوته، وتذكره بأن الصور النمطية التي يحملها عن الفلسطيني ليست هي الحقيقة. إن الحقيقة موجودة في مكان آخر يشير إليه هذا الكتاب. كما أن إدوارد سعيد يتابع عمله لجلاء هذه الحقيقة في كتبه الأخرى التي أفردها لفلسطين أو كانت فلسطين في قلب مشروعه عندما فكر بها.

هوامش:

(1) ديفيد لودج، ما بعد باختين: مقالات في الرواية والنقد: David Lodge, After Bakhtin: Essays on Fiction and Criticism, Routledge, London, 1990.

(2) إدوارد سعيد وجان موهر، بعد السماء الأخيرة: حيوات فلسطينية. Edward Said and Jean Mohr, After the Last Sky: Palestinian Lives, Faber and Faber, London, 1986.

(3) أنظر: «النص والعالم والناقد» حيث يحدد إدوارد سعيد مفهوم عضوية الكاتب الإنجليزي جوناثان سويفت ناقضاً مقاربة جورج أورويل لطبيعة المشاركة السياسية لجوناثان سويفت في عصره. The World, The text and the Critic, Faber and Faber, London, 1984, p. 77.

(4) أنظر لتوضيح هذه الصورة Edward Said, A Critical Reader, Michael Sprinkler (ed.), Blackwell, Oxford, 1992, pp. 1 - 4, 5 - 18.

(5) أنظر أيضاً «لوم الضحايا» Blaming the Victims, Spurious Scholarship and the Palestinian Question, Edward Said And Christopher Hitchens (eds.), Verso, New York, 1988, p. 16.

(6) يقول سعيد في «الثقافة والإمبريالية»: «هذا الكتاب هو كتاب منفي. ولأسباب موضوعية، لم تكن لي يد في السيطرة عليها، نشأت كعربي بتعليم غربي. ولقد شعرت، منذ ذلك الحين وعلى قدر ما أستطيع التذكر، أنني أنتمي إلى هذين العالمين دون أن أحس (بالفعل) بالإنتماء التام إلى أي منهما».
أنظر: Culture and Imperialism, Chatto and Windus, London, 1993, p. XXX.

(7) انظر الصورة كاملة في «لوم الضحايا» خصوصاً ص: 21 ـ 158.

تقديم

فيما يشبه اليوميات، كتب ضابط عراقي تجربته في الكويت في أثناء حرب الخليج أو «عاصفة الصحراء»، كما يرغب الأمريكيون أن نسمّيها. لم يكن سهلاً على الإطلاق الإحتفاظ بهذه الأوراق أو نشرها بشكلها الأول عشية وقف إطلاق النار. .. ثمة أسماء لأفراد ومواقع كان من المفترض عدم الإشارة إليها بوضوح قد يسبّب لها الأذى أو المساءلة. لذلك كان لا بد من إعادة النظر وإغفال هذه الأسماء وبعض التفاصيل المحيطة بها.. بما لا يؤثر على المشهد الواسع الذي رسم خطوطه السرد الحار الذي بين أيدينا الآن.

لقد انتظرت هذه الأوراق أكثر من ستة أعوام حتى وصلت إلى هنا.. وهي تتضمن مقدمات الحرب وأيامها الأولى في أحد مواقع الجيش العراقي في الكويت، ثم وصفاً لرحلة قام بها الضابط مع مجموعة من جنوده من ذلك الموقع حتى وسط العراق مروراً بمناطق الجنوب، والبصرة، وقصباتها حتى المدن المقدسة.. المشهد برمته يبدو وكأنه أخذ بأمانة من جبهات الحرب العالمية الأولى.. تتحرك في أفقه مجاميع هائلة من جنود متروكين.. وعربات وفلاحين يتحركون في طرق موحلة تحت قبة من النار ويعبرون جسوراً مدمّرة إلتوت خرساناتها نحو مياه عكرة.. نحو الشمال!

زاوية الدخول، إلى كل ذلك، زاوية شخصية جداً. ممر من التأمل والألم والخوف يتسع لجسد واحد وذاكرة واحدة.

ونحن، إذ نقدمها كما هي، على صفحات «مشارف»، فلأنها تقدم مشهداً داخلياً حياً لتلك الحرب، مشهداً مختلفاً عن ذلك الذي قدمته وسائل الإعلام العراقية أو الغربية.. رواية أولئك الناس الذين لم نتمكن من سماعهم بعد، سواء خلال الحرب أو في الحصار الذي يعانيه العراقيون منذ سنوات ست.

* «مشارف» *

الخروج من قبة النار..

- وقائع غير معلنة لموتٍ معلن -

محمد علي البصري

غروب 16/1/1991

إنه العدّ التنازلي لموتنا.. بالأمس انتهت المهلة التي حددتها الأمم المتحدة لانسحاب العراق من الكويت. ومنذ يوم أمس يحق لقوات التحالف استخدام القوة لتحقيق ذلك.. هدوء بارد يحطّ على كل شيء. ضبّاط وحدتنا نزلوا إلى الملاجىء تحت الأرض. بعضهم يتفهقه. ولكن ثمة خوف يتملكه ويؤكد: إنه لا حرب!! فيما أسحب خطواتي خارجاً وسيناريو الموت المثير يكاد يرتسم في رأسي. اليوم قررت البدء في كتابة يوميات، محاولة فعل شيء في مشهد ذاهب إلى اللاشيء.

قبلها بدأت بكتابة رسائل إلى أصدقاء لي في بغداد. رسائل قد لا تصل غير أنني أودعتها عند أحد الجنود وأرسلت به إلى موقع خلفي لوحدتنا، وأخبرته أن يذهب بها إلى حيث العنوان، ساعة أن يسمع موتي أو فقداني. غروب بارد، والموسيقى المميزة لفترة برامج الأطفال في التلفزة، أسمعها من إحدى الغرف القريبة لثكنتنا الموقتة: قاعدة جوية مهجورة قرب الحدود مع الكويت. لم تصلنا الصحف منذ أيام - هذا جيّد تماماً - لأنني تخلصت من عبء متابعة خطابها الرديء، غير أن العنصر الفاعل في ذلك الخطاب، ما زال حاضراً ومؤثراً، أكان ذلك عبر تعليقات الإذاعة أو التلفزة. خطاب ضمانات النصر، والجمعان اللذان التقيا عند الحدود: جمع الأخيار - هؤلاء نحن طبعاً - وجمع الأشرار! لغة تذكرك بعصور الفتوحات والفرسان الذين انقرضوا. فيما الآخر خطط لهزيمتنا على لوحة أزرار معقدة وصواريخ التحكّم عن بعد. إعلامنا يقول: لا عليكم. هؤلاء عبيد الكومبيوتر وأذلاّء التكنولوجيا. الرعاة سيهزمون لا بل سيسقطون طائرة الشبح حيث سيذرّون الرمل على عيون الطيّارين!!

غروب بارد وأوامر تؤكد على تقنين استخدام الوقود، وتخزين أكبر كمية منه عبر وسائل بدائية. غروب بدائي. أُفُق صحراوي يهجع. أصوات السيارات العسكرية المسرعة في الطرق الجانبية من حولنا هي الأعلى في هذا السكون. جندي ينزل مسرعاً من رابية قريبة متوجهاً نحو ملجأ آمر وحدتنا أسأله: ماذا يركضك هكذا؟ التشويش، التشويش، أجهزة الرادار توقفت وظلّت مجساتها تدور دون أية رسمة على الشاشة!!

الرابعة فجراً: 1991/1/17

هبوب عاصفة الصحراء

نهضت من نومي على صوت إطلاق النار من الأسلحة المضادة للطائرات، أصوات بشرية تنادي باضطراب وخطوات مهرولة بين قاعات وممرات الثكنة. يا للمصادفة السيئة، فهذه هي الليلة الوحيدة التي خلعت فيها ملابسي العسكرية ونمت. فقد درجت على عادة - وهذه إكتسبتها منذ حربنا مع إيران - إرتداء ملابسي العسكرية حتى في سرير النوم. لذا كان عليّ وسط ذلك الإضطراب أن أرتدي ملابسي وأحمل بندقيتي ومخازن العتاد وأُعلق على صدري القناع الواقي من الضربة الكيماوية - أحد شعارات هذه الحرب. أخذتها معي جميعاً، سقطت خوذتي فيما أنا أتشتت بين نيران نازلة من السماء وأخرى تنهض علواً من الأرض.. آخر كلماتي بالأمس كانت تشير لاحتمال ضربة جوية. وها هي تطرق علينا بعنف بالغ. الراديو الصغير بين يدي وبدأت البحث عن أصداء ما يحدث على الأرض في المحطات. توقفت عند إذاعات عديدة، فيما كان التشويش قد ألغى الإذاعات العراقية تماماً. جاءت الإمارات فمصر، فصوت أمريكا، ولندن. وفي صياغة شبه موحدة: بدأت عمليات التحالف الدولي ضد العراق وبموجات من الطائرات راحت تقصف مواقع في كل البلاد. العمليات حملت إسم: «عاصفة الصحراء». مصادفات عجيبة لا أدري من أين تطلع لي؟ فقد كتبت قبل شهرين أو أكثر، عن احتمال وقوع الحرب أو عدمه، وذهبت في دقة التوصيف حين قلت «أن العاصفة ستهب من جوف الصحراء نحونا»، وهكذا تداخلت العنونة، وها هي العمليات العسكرية تكتسب تسميتها: عاصفة الصحراء!!

مرّت طائرة فوقنا، ولاحقتها الشهب والأنوار التي تخلّفها قنابل المدفعية المضادة والصواريخ. لم أدخل الملاجىء الشقية لكرهي الشديد لرمالها المتحركة والتي بخبث تتسلل إلى الملابس والأحذية! لم تزل خطوط القذائف المضادة للطائرات تتقاطع في ظلام السماء. في نقطة التقاطع تلك كأنني بدأت أشاهد ملامح طفلي! - ها هي ملامحك مرعوبة الآن على إثر أصوات الإطلاقات والإنفجارات التي عمّت العراق على ما يبدو - طفلي في سنته الرابعة ويقيم مع والدته التي تنتظر موعد وضعها

طفلنا الثاني.. آهٍ أيها الكائن الذي لم يكتشف الضوء بعد. ما الذي ستجيء به إليّ؟ هل سأعود إليك وتغمرك عيوني بالتماعة الدهشة؟ أنا على يقين يا زوجتي الحبيبة بأنك لن تترددي عن تقويس ظهركِ لتحمي ما عندنا على هذه الأرض. روحك تحرسني الآن مثلما أجدها قريبة روح أميّ التي أتحسسها وقد نهضت من ترابها وجاءت إليّ. أمي، زوجتي وطفلي تعالوا إليّ وغطّوني بدرع محبتكم ضد هذه النيران وغيرها القادمة.

حتى هذه اللحظة، هي حرب إذاعات - بالنسبة لوحدتنا على الأقل - لا أحد يعرف ما الذي حصل بالضبط. أركض خلف آمرنا لأسأله ماذا يقول مركز القيادة؟ إذهب عنّي انقطع الإتصال ولقد أصيب المركز بقذيفة صاروخية على ما يبدو. وبينما الفوضى عمّت الثكنة، صعدت إلى غرفة المطعم، أشعلت شمعة، وضعت قدر الحساء على النار، غرفت من الحساء في صحن مستعمل لم أجد غيره وقضمت رغيفاً من الخبز الأسود. في الفجر تعالى القرآن عبر إذاعة (صوت الجماهير) من بغداد. وبعد الدقيقة الأولى من التلاوة، دوى انفجار ضخم. فالصواريخ الموجهة تابعت خطوط الإشعاع الراداري لأجهزتنا، وفجّرتها. تذكرت الجندي الذي كان يركض بالأمس نازلاً من الرابية ومنوّهاً عن التشويش، من سيجد له أثراً؟ أركض نحو رابية الأجهزة الرادارية، الراديو في جيبي أعلى الصدر، (القرآن) اختتم عند السابعة صباحاً لتبدأ البيانات والخطابات وبينهما شعر شعبي سمج، عبثاً يثير حماسة تافهة بطريقته الرخيصة. وتعليقات هي إنشاء رديء عن النشامى والعز والكبرياء. ثم بدأ يومنا الأول في الحرب يتشكّل عبر ما يستجد من الأحداث. وجهت أكثر من ضربة لرعائل وحدتنا المنتشرة في منطقة واسعة هي جزء من قاطع الدفاع الجوّي الثالث. خمسة رشاشات مضادة للطائرات تعطلت بعد دقائق من استخدامها - بسبب عدم استعمالها ولو لمرة واحدة في رمي بالذخيرة الحيّة -!! قمت بما يلزم للتعويض من أسلحة بديلة.

وفيما الطائرات تقصف الأمكنة حولنا، وتمطر قنابل خاصة على مدارج قاعدة جويّة قريبة منّا ومقذوفات أخرى مخصصة للتوجه إلى عمق الملاجىء المحصّنة للطائرات، كانت الإذاعات تقول: غارات بل موجات متتالية من الغارات على بغداد - آهٍ يا أحلامنا - والقواعد الجوّية - هذا ما يحصل فعلاً عندنا - ومواقع الحرس الجمهوري - إلى الشمال القريب منا -. الرئيس بصوتٍ كأنه آتٍ من مكان ما تحت الأرض أو ملجأ، يخاطب الجيش والعرب الشرفاء! وينهي خطابه القصير بجملة فيها ثقة جعلتني أضحك بصوت خافت: «يا محلى النصر بعون الله». أيّ نصر ينتظرنا؟! إذاعتنا تلت بعد ذلك بياناً صادراً عن (التجنيد العامة) تضمّن دعوة مواليد الأعوام 54، 55 و1956 للخدمة العسكرية فوراً. الكثير من الأسماء، أقارب وأصدقاء تشملهم الدعوة، صديقي بل شقيق روحي، والذي كبر معي على فكرة الأمل والمحبة، والأب لنورسين، سترعبه كل هذه التطورات وقد تقضي على ما فيه من آمال شخصية وإلى الأبد. فالهدم عندنا يتم وفق ضوابط وتعليمات دقيقة. إنه ليس

عشوائياً بل هو هدم (منظّم) وفي غاية الدقة أيضاً! ومنظوماته فاعلة ومتحركة في أحلك الظروف. المزيد من الحطب - أقصد الناس - يُلقى بهم إلى جوف النار والذي لم يغلق منذ أوائل الثمانينات.

وهذا الإنجاز (المتوقد) يصل لذروته هذه الأيام.. النيران حولنا، ومواقع المدفعية بعيدة المدى، القريبة منا بدأت بقذف لهبها إلى الأفق البعيد باتجاه (حفر الباطن). ما لبثت الطائرات أن استلمت الإشارة وتكفّلت الإجابة عليها. الإذاعات تعلن عن انضمام فرنسا إلى الجولات القادمة من الغارات علينا، وتعالي يا نيران، وتعالي يا فصول إستباحة دمنا. وفجرك مخضّب بنثار أجسادنا يا عاصفة الصحراء.. بلادنا تصدرّ المحنة والسلطات الغاشمة وتهدي أبناءها إلى فراغات الآفاق ووحشة السواتر والخنادق. إنها لا تطيق رؤيتنا نطلع إلى الصباح بروح متجددة، ومنذ أكثر من عقد كامل! فيا للبلاد.. يا لمحنتها، يا لتراث الخراب الذي تعيده (معاصراً) وفاعلاً في أيامنا..

السابعة صباحاً: 18/ 1/ 1991

ملاجيء.. ملاجيء

نزلت من الطابق العلوي لإحدى بنايات الثكنة، إلى الطابق الأرضي. لم أنقطع عن الذهاب إلى مكتبي. ولم أدخل الملجأ حتى الآن على الرغم من توالي الغارات وازدياد ضراوتها، وتوالي مهرجان «الألعاب النارية» الذي تشعله الأسلحة المضادة، - التعبير لأحد طياري الأسراب الأمريكية المغيرة على بغداد -. رحل الجميع إلى الملاجيء تحت الأرض. وتوزعت المعاول والمجارف حول سياج الثكنة الخارجي مختارة أشكالاً متعددة من التنفيذ لملجأ سيكون بمثابة وهم خلاص. من أجل هذا راح ثلاثة من الجنود الذين عرفوا بكسلهم الأسطوري، في سباق من الحفر تحت قشرة الأرض الرملية الكريهة.

ضربت قواتنا الصاروخية إسرائيل.. الإذاعات بدأت تشعل الموقف إستعداداً لرد إسرائيلي متوقع، فيما تولّت الولايات المتحدة الرد (الحازم) عن طريق تكثيف الغارات الجوية وبذلك أقلعت طائرات من قواعد في تركيا للمزيد من النار ولزيادة رقعة الحريق. المزيد من المجانية لموتنا الذي أصبح سهلاً وكأنه (عمل شعبي) كما وصفه أحد الجنود ساخراً. وتنهال عليّ الأوامر: عجلات صالحة لتنفيذ واجبات لا تنتهي، المزيد من الوقود، نضائد جاهزة لتشغيل عجلات الأجهزة الرادارية، حفر المزيد من الملاجيء، حراسات، توزيع مياه الشرب، تعويض عتاد الرشاشات الذي تعرّض للقصف الجوي فأحاله إلى كرات لهب وشظايا، كل ذلك يريده (المقر الأعلى) مرة واحدة ودونما تأخير. لكن من أين؟ وقد تقطعت بنا السبل وأصبحت الحركة البسيطة، هي الأخرى معرّضة للرصد ومن ثم الإصابة الأكيدة. الجواب يأتي أبلهاً وسخيفاً ويائساً أيضاً: لا ندري.. وأنت المسؤول عن التأخير في التنفيذ. آهٍ كيف لي أن أنجو بنفسي؟ ليس من الحريق الشامل، بل من فوضى واضطراب عقليات ضحلة وأذهان

تمتلىء بكل ما هو متعارض مع المنطق - بمثل هذه القيادات يريدنا أن نهزم التحالف الشديد البأس -.

المطر ينزل الآن وتبتلّ الثكنة ويلتمع الأسفلت في شوارعها، علّها غيمة تخمد النار؟.. أمنية باهتة تشتتها الوقائع المشتعلة لأحداث القصف والرد الذي جاء مخيباً للآمال من وحدات الدفاع الجوي - وقائع وحدتنا تكشف مثل هذا الرد البائس - كلام عن إسقاط طائرات لكن لا حطام إلاّ للقليل الذي يتضارب مع الأرقام الإعلامية.

وإعلامنا مهّد لهزيمته، فمن غير المعقول أن يظلّ يردد أغنيات فقط، رديئة اللحن وبشعة في اختيار الكلام: الأغنية التي تتحدث عن عصرنا الذهبي.

لا ترد إشارة أو تعليق مناسب حول الأحداث، لا نشرات أخبار تتوفر فيها علاقة مع ما يحدث في الميدان. وكأنك تسمع إذاعة تُبث من جزر المالديف مثلاً لا إذاعة دولة تحارب وفي العمق العميق منها. هزيمة إعلامية كنت أتوقعها لكن ليس بهذا الشكل المدوّي. وجعلتني أتحسب لأخرى مثلها في الميدان. استدعاني آمر الوحدة وبدلاً من إجابة واضحة لطلبي الذي كتبته والمتضمن السماح لي بمغادرة الثكنة ليومين، بغية إيجاد طريقة لتعويض خسائرنا من بعض المواد، كذلك الإطمئنان على وضع زوجتي حيث اقترب موعد وضعها للجنين. بدلاً عن الإجابة، مرّر جملة مفادها: مغادرة أي فرد للثكنة تؤدي إلى (الإعدام)! نعم فالمصائر مبتذلة وتطير بسرعة ووقت الإمضاء على أوراق تحقيق فيها كل شيء ملفّق ومزيّف، لا يستغرق أكثر من لمحة بصر. سيرة موت عبثي كهذه جعلتني أختنق، فمن أي نار تهرب؟ نار الأفق المعادي لك بالكامل أم من نار «المعاني السود»:

كل شراعٍ
لم يعد إليكِ، يا مخافر الحدود
- لا باحثاً، سدىً، عن المعنى
ولكن هرباً من المعاني السود -
.. فهو شراعي.

متى ننتهي من روزنامة حياة يحددها القتلة وندخل إلى السلام؟ - آهٍ يا تسمية السلام. متى أفتح مغاليق المعنى فيك وأدخلها حياة طمأنينة -؟ أستعيد هنا على رغم حالتي المتوترة والهلع الذي يعصف بي ما يقوله ريتسوس: «السلام يعني يد طفل تمتد إلى قنينة حليب». ويقول بريشير: «الحرب.. يا للغباء». المعنى الذي يدفع به وعيي الشخصي يصبح حاجزاً أمام مسيرتي اليومية ضمن جيش يحارب ويحقق الإنتصارات (الإذاعية). هذا المعنى تدمره شهوة السلطة وتصعد وتتوالى فصول إستباحة دمنا. طفولة مغدورة ويا للأمهات وأوجاعهن، يا لحيرة الآباء وندمهم - لماذا يقتل أولادهم في الحرب تلو الحرب؟ -، يا لشقاء النفوس كلها يا للألم في الثنايا حين يطلق في فضاءات الروح غيوم العتمة ويرحّل النفوس إلى دهاليز القمع والبطش وموسم القتل المجاني..

الغروب ثانيةً.. 1991/1/21

كفاني التشويش على إذاعتنا، شرّ الإستماع إليها وشرّ الإستماع إلى أخبار كهذه تتصدر النشرة الأخيرة لهذا النهار: «إزدياد معدّل البطالة في إيطاليا» - تذكرت هنا جدلية الفنان دريد لحام الأثيرة: «إذا أردت أن تعرف ماذا يحدث في إيطاليا، عليك أن تعرف ماذا يحدث في البرازيل، وإذا أردت أن تعرف ماذا يحدث في البرازيل عليك أن تعرف ماذا يحدث في إيطاليا»!

أو أن تتوقف الإذاعة عن بث برامجها الحماسية لتعلن عن وصول برقية تأييد من عمّال البريد والبرق في الخرطوم!! وحضرني المثل الدارج: «عرب وين.. طنبورة وين».. الغروب البارد يزيد يأسي مثلما فعلَت إذاعتنا. قطرات المطر تتساقط وسط جوٍ ملبّدٍ بالغيوم والصمت الذي خيّم على الثكنة وما حولها نتيجة غياب مؤقت على ما يبدو للطائرات المغيرة. الصمت في جو الرعب ورائحة الموت المنتشرة قادني للدخول في موجة ألم غامرة.. سيما أن أحد أفراد وحدتنا قد عاد من مأمورية وهو من سكنة البلدة التي تقيم فيها زوجتي وولدي مع أهلها، والذي أوجز لي ما حدث هناك بعد ثلاثة أيام من الغارات المتواصلة والقصف الصاروخي. أين اختفى جسدك النحيل يا ولدي؟ أين تساقطت دموعكَ وصرخات رعبك كيف هدهدتها أمك؟

أصبحت أتفاعل مع الظلمة القسرية المفروضة على مرافق الثكنة وتمضي خطواتي في عتمة كثيفة. ها أنا أدخل الملجأ الذي رفضت الدخول إليه منذ ثلاثة أيام.. واستخدمت وسيلة في الإضاءة سبق أن تركها العراقيون منذ الربع الأول من هذا القرن في مدنهم، غير أنها ظلّت مستخدمة لفترة طويلة في الريف. واحدة من زجاجات (السڤن آپ) وقد امتلأت بالنفط وتدلّى في وسطها شريط قماشي خرج من فتحتها العلوية التي أغلقت بواسطة حبة (تمر). أخذت معي بعض أوراق الواجب وأخرى فارغة لكتابة بعض السطور دون أن أنسى الراديو طبعاً!

أخرج في الصباح بعدة سعلات قوية وببلغم مغطّى بلون السخام الأسود الذي كان ينبعث من المصباح النفطي - أهكذا يجعلنا نقضي أيامنا فيما بيوتنا تخليها زوجاتنا وصيحات أطفالنا إلى فراغ العتمة ووحشة الظلام! لِمَ كل هذا مرّة أخرى؟ يضربني السؤال وتأتي إليّ البلاد يأخذها الرعب التام مما دفعت إليها من حرب قذرة. ليلتي الأولى في الملجأ حاولت أن أجعلها أكثر هدوءاً وأقل رعباً، فاستعنت لمؤانستي بكتاب بالإنجليزية حمل عنوان «Identity» - كتابة غرائبية بالصورة ومقاربة بين مقاطع من شعر إليوت، أودن وفيليب لاركن وكولاج تعبيري في الصورة - ولم أرفع عيني عن صفحاته إلاّ حين اشتدّ القصف الجويّ ودكت القذائف منطقة القاعدة الجوية القريبة منّا - تحسست ذلك من التراب والرمل الذي انهال علينا في الملجأ - أضحك على مضض حين يخبرني صديقي الذي يقاسمني الملجأ متسائلاً: «هل تتوقع أن هذا الملجأ سوف لن يردم أجسادنا فيما لو سقطت قربنا

قذيفة أو صاروخ ؟». بعد موجة القذائف الصاروخية الليلية، رحت في نوم متقطع بسبب الناموس الذي يتسلل بمهارة من تحت البطانية الصوفية.

1991/1/23

صباح الأغنيات

في الصباح نهضت بمزاج رائق وكأنني أخرج إلى الحياة مجدداً، كنت أردد أغنية لكاظم الساهر! حلقت وجهي وغسلت شعري، مزيلاً عنه ما تعلق به من ذرات الرمل الناعمة. غيم في الأفق وجو بارد رطب، ولا أدري كيف خطر ببالي أن تكون زوجتي قد ذهبت عند شقيقتها في (الشطرة)، كي تنال رعايتها سيما أنها تحتاج لذلك كثيراً أثناء الولادة. لكنها مدينة نائية، بل في نأيٍ قسري عن العصر، هي في جنوب (الجنوب) وعلى الرغم من التبدلات البطيئة يبقى (الغرّاف) نهر المدينة الذي يخترقها صامتاً، يعيد الشطرة إلى جذر ريفي لا تستطيع منه فكاكاً. ندم وحنين وعيش بسيط وأغنيات هي أقرب للأنين منه للإنشاد. وهي جذوى روح تكتشف نفسها في حياة يختزلها العناء والضنك. قطع تلك الإسترسالات، صوت عبد الحليم حافظ بشجنه وعذوبة لحن أغنيته «أنا لك على طول». رقّة متناهية وتصوير لشاعر قلما نتعرف عليها في المتداول من العرض العاطفي الفج والسطحي الذي تقدمه أغنيات اليوم! أنتبه لنفسي، للشياطين رغباتها وأكاد أصرخ: أين أنا من هذا وإحتمال الموت يطلع إلينا كل لحظة؟ - هل لكم برسائل تبعثون بها لذويكم عبر الأثير؟ - هذا ما تقوله هيام، عبر إذاعة (مونت كارلو). وحتى هذا نحن الذين هجرتهم ونفتهم حروب الخليج لسنا بقادرين حتى على الحلم به. هيام تتقلل من (آثام) الدفء الأنثوي في صوتها وتقلّل من وحشتي حين تقدم فيروز في أغنية «طلع لي البكي». الأغنيات ثانية توخز إنسانيتي التي تشتعل في أقصى دمارها.. قد أموت الآن.. بعد لحظة.. بعد أيام.. إذن عليّ إيداع هذه السطور عند أحد هنا. فأخبرت صديقي الذي يقاسمني الملجأ بذلك، وافق وهو يضحك بلطف، كونه للتو عرف أنه سيذهب إلى (الكويت) لتعويض أحد المهندسين والذي قتل / غاب / فقد، لا أحد يدري! واتفقنا معاً أن نوصل أوراق كل واحد منّا إلى أهله في حالة وفاة أي منّا! كما اتفقنا على المراسلة. فثمة أكثر من بريد سيظلّ بيننا. زاد تعليقه من إلتباسي حين ودّعته وحملت معه حقيبته وسلاحه إلى السيارة إذ قال: أعتقد أنني سأكون بأمان أكثر هناك.. إعتنِ أنت بنفسك جيداً وارسل لي بالبريد (السرّي والشخصي) بعض ما تكتب وسأوافيك أنا بما لديّ من إنطباعات مرفقة مع بريد نتائج القصف وبيان الخسائر والموقف اليومي للأفراد والعتاد. إطمئن لا أحد يفتح البريد (السرّي والشخصي)!

السابعة مساءً: 1991/1/24

ثمن جريمتنا الجماعية..

بعد صباح كالحٍ كالرمل، انساب َمن عمري - أيّ عمر؟ - وبعد حلول اليأس التام في النفوس وحرق المزيد من الأصابع، وفضاءات الهواء في الرئتين نتيجة سيجارة مشتعلة دائماً. أحاول إيجاد منفذ لإقناع آمر وحدتي بالخروج من الثكنة ولو ليومين - دونما إعدام طبعاً -. علّني أصل لخيوط من مصير عائلتي: أين سرب حماماتي الذي أودعته في ثنايا ولدي؟ بالتأكيد لم يظل مكان أو فضاء طفولة لرفيف تلك الحمامات، طالما أن الطائرات وفيرة وكريمة حد الإفراط في غاراتها وعصف قنابلها الذي يأتي على تلك الفضاءات، ويلقيها كسرة من بارود متجلّد فوق أسطح المدن والبيوت والشوارع. أين مرحك وأغنياتك التي حفظتها في روضة الأطفال؟ - أمامه حلم ومسافات، خلفه الحنين.. عالمه «ماربورو»، تعال إلى حيث النكهة، تعال إلى ماربورو. - أين دموعك من أجلي؟ حين أخذت أطيلُ الغياب بين إجازة دورية وأخرى ومنذ أن أخذتني منك َعمليات إجتياح الكويت. أين مرحك وبهجتك وقفزاتك من مكان لآخر حين أعود؟ أين قبلاتك الناعمة كوردة؟ وأين الأذرع الطرية حول رقبتي؟ - مدّ ذراعيك وفك عنّي خناق الوحشة. - أسئلة وأسئلة ترديني إلى فراغ شاحب: أهكذا أحلتنا يا وطن؟ إرادة مستلبة وضعف تام في إتخاذ قرار شخصي بسيط، قرار ترك كل الأوامر الكالحة كما لون الأفق الرملي الذي يحيط بنا. تركها خلف ظهورنا والإحتفاظ بجوهر حياتي ولو لمرةٍ واحدة، يبقي لنا بعض كرامة شخصية. لكنني وسط دوامات تتشتت فيه نفسي وتيه في أصداء الألم والكآبات. أجد نبع حياتي وقد جفّ ومن هنا أقول: لتجفّ كل الأشياء حولي، ومن هنا يأتي الهدوء إليّ مع كل دمارات القصف الجوي والموت الذي يَخطُّ في سماء ذَهّبَت حافاتها أشعة الشمس التي حملت لوجوهنا وأذرعنا بعض الدفء الحميم.

* خرجت من ملجأ آمر الوحدة خائباً. لم يوافق على الرغم من براعتي في إظهار ما كنت أراه سبباً مزدوجاً للخروج، فيه الموضوعي والذاتي.

* اشتعلت المواقع الصناعية القريبة منّا، الحديد والصلب، البتروكيماويات والذي أصبح محطة للتخلص من الفائض من القنابل، ونقطة تدريب للطيّارين حديثي العهد بالقصف.

* نيران تستعر من القاعدة الجوية القريبة منّا - ثمة محاولات لترحيلنا إلى هناك. خاصة بعد خروجنا العملي من الخدمة وتدمير أجهزتنا -.

* الغارات تتواصل.. لا أدري كيف اهتديت إلى عدد من الأشجار قريباً من السور الخارجي لثكنتنا ورحت أحث الخطى إليها. في الطريق القصير وفجأة ثمة من انقض عليّ ودفعني إلى خندق

شقي سقطنا فيه معاً وما هي إلا أجزاء اللحظة حتى اهتزت الأرض وغطانا التراب وامتلأت الرئات بالبارود وطارت فوقنا الشظايا. طائرة كانت منخفضة جداً وفي وضع التصويب نحو ما تبقى من ثكنتنا.. لم يصب أحد والقنبلة سقطت وسط ساحة العرضات فيما تولت الشظايا إشعال النار في كدس الوقود وإحداث الثقوب الكثيرة في خزانات الماء.

لِمَ كل هذا الخراب الذي أقمناه حولنا؟ لِمَ بحثي الدائب عن مصادر المعرفة ومراجعها ومتابعة أنشطتها الفاعلة.. لِمَ الجهد في اكتساب الوعي؟ لِمَ سجل حافل بالخسارات الشخصية؟ أكُل ذلك من أجل أن أنتهي هنا؟ يا إلهي ماذا أفعل هنا؟

أرى أن بؤسنا كتركيبة إجتماعية هي فقدان القدرة على إتخاذ قرار يحفظ لها حق الهواء والبقاء على وجه البسيطة - قرار تموت من أجله أصغر وأدق الكائنات في الحياة.. لكن أجيالنا المحتشدة هنا في ظل المحرقة التي تعدها وتنفذها قوات التحالف الدولي وطائرات وقنابل (النظام الدولي الجديد)، والبقاء أسرى الرغبات التي تتفجر بها العبقرية (الفذة)، أرى - فيما يرى اليائس - أننا نستحق كل ما نتعرض إليه، المزيد من الكوارث نستحقها فعلاً، لا بد من دفع ثمن جرائمنا الشخصية إضافة لجريمتنا الجماعية. جهلنا بالدفاع عن أولويات الحياة: الحرية.. نعم أراها قريبة، شجرة أخرى لم تتعرف إليها أذرعنا. علها أذرع من سيبقى من أطفال بلادنا ستمتد إليها. وداعاً آخر أفراحنا البائسة. أهلاً لموتنا المنقذ..

ليل25/ 1/ 1991

* مطر كثيف هذا اليوم - لا طائرات.

* احتفلت أكتافنا بالمطر الساقط ولفح وجهي الكثير من الهواء البارد.

* أبحث عن زاوية دافئة.. أشعلت النار في صندوق عتاد وحذائي القديم.. استنشقت المسافات المختزلة في خطواتي!!

* غارة الأمس عجلت بأمر رحيلنا إلى القاعدة الجوية - خبر مفزع آخر -

* في ملجأ عميق تحت الأرض. غرف مضاءة - منذ فترة لم أرَ مصابيح مضاءة - منظمة، كمكاتب وأخرى للنوم والجلوس والطعام. وفيها تجمع الضباط والفنيون وآمرو الأقسام والوحدات الفرعية. كرهت إحساسهم المفاجىء بالأمان. خرجت نحو مكاننا القديم بحجة التأكد من الحزين ونسبة النضح في الوقود.

* خارج الملجأ، عجلات الضباط تجثو متباعدة وتتطلع بسكون نحو ظلام الأفق الصحراوي. الجنود عند باب الملجأ تجمعوا بصوت وهم يستمعون لأخبار الراديو. تفرقوا وأنا أسرع لسيارتي حين بدأت غارة جديدة.

* انطلقت بالسيارة مسرعاً، غير أنها سرعان ما ارتفعت عن الأرض ونزلت بقوة فضرب رأسي سقفها القماشي. وارتطمت السيارة عند مرتقى ترابي. المكان في كرة من لهب برتقالي. رميت بنفسي على الأرض، فيما توجّه بصري على مركب اللهب.. يا إلهي إنه الملجأ.

* الملجأ تحوّل إلى مقبرة جماعية.

* صوت طائرة، ثم أخرى ثم أخرى.. ثم صوت رعد فبرق يضيء أفق المحرقة.. لم يخرج أحد واستغرقت منّا عملية الإنقاذ وباستخدام شتّى الوسائل الليل كله. إتّضحت معالم الجثث في النهار..

* حامت حولنا القاصفة الستراتيجية الـ B52 ولكنها اختارت محور صفوان ـ البصرة لتلقي بمقذوفاتها (39) طناً! وفي فترة تطول لأكثر من ربع ساعة تزلزل فيها الأرض وتنتزع فيها الأفئدة من الأجساد ـ في حمم كهذه هناك من يطالب الجسد البشري الهشّ بأن يبقى في خط المواجهة ـ.

* أحد ضباط القاعدة حضر لتقديم التعازي إليّ. وقال: خذ من بقي معك وعودوا إلى مكانكم القديم.

1991/1/28

ولد حلو.. لأيامنا القبيحة..

* إستدعاني الضابط إياه غروب هذا اليوم وأخبرني بضرورة ذهابي إلى مركز القيادة الجنوبي لنقل التفاصيل بالكامل عن وحدتنا. أديّت التحية واستدرت ثم ناداني قائلاً: عرفت من آمرك أنك طلبت إجازة يومين للإطمئنان على عائلتك.. إذهب على بركة الله!!

شهقت تماماً بعد سماعي لما قاله الضابط.. لا أدري كيف كتبت التقارير وبيان الخسائر وتوقيتات الغارة وأسماء الذين رحلوا والجرحى ومواقع الإخلاء والموقف النهائي والفوضى والـ... و..

* ليلاً حملت حقيبتي وفي الثانية عشرة تماماً بدأت رحلة حسبتها مستحيلة بل كان الموت هو الأقرب منها. وبدأت مع كل مدينة أو قرية نصل إليها ـ كان معي ثلاثة جرحى ـ أضع الإحتمال تلو الآخر ودائماً الأسوأ ـ: أين وكيف سأجدهم؟

* من نقطة تقاطع طريق (صفوان ـ بصرة) بطريق المرور السريع (صفوان ـ ناصرية) استدارت العجلة يساراً والتزمت بوصايا الإبقاء على الأضوية مطفأة. قبل ذلك كانت (صفوان) عبارة عن كتلٍ من الأبنية المهشّمة والظلام البارد الكثيف العتمة.

* في الثالثة فجراً، وحال دخولنا الناصرية، بدأت إحدى الغارات وانطلقت الأسلحة المضادة بأشرطة طلقاتها الحمر تخترق بطن السماء. ضياء القمر كشف البيوت والشوارع، موحش كل

شيء. وزاد من تلك الوحشة، مشهد جسر المدينة الرئيسي المهدم الأوصال والساقط في نهر الفرات. وعدنا للبحث عن طريق يؤدي إلى جسر المرور السريع. نزل الجرحى الثلاثة عند مجمع الباصات في المدينة وكان فارغاً إلاّ من بعض الجنود.. وعجوز يبيع الشاي والدخان.. تذوّقت شاياً لا أحلى ولا أعذب!

اقتربنا من (الشطرة) وقررت أن أدخل إليها للسؤال عن زوجتي وولدي. فهنا بيت شقيقتها التي تحبها بشكل خاص وقضت عندها وقت صباها. طرقت الباب بقوة فخرج (عديلي) واحتضنني بقوة. مدخل البيت يضيئه مصباح نفطي صغير. خرجت زوجته وقد أربكها حضوري المفاجىء، لتعلن عن عدم معرفتها لشيء عن زوجتي أو الأهل عموماً في (واسط).

* طلع الفجر علينا في الطريق بين (الحي) و(واسط).. والبطانية لم تحمني من تيارات الهواء البارد الذي يدخل من عدة فتحات في سيارتنا البائسة. والسائق أظهر شجاعة نادرة على مواجهة البرد والنعاس والتعب والقلق والخوف. عبد الحسين ناصر محمد يا ابن (الحي) تحيّاتي إليك دائماً.

* ثقبان كبيران في جسر تموز الذي يتقوّس على نهر دجلة. غير أن الإصابة هذه لم تمنع المرور عليه. سيعودون إليه بالتأكيد. عبرت الجسر والشمس تغمر المدينة بضوء مبهج وما لبثت أن وصلت الضاحية التي يقطنها أهل زوجتي. بتأثير صوت محرك السيارة وجلبته ـ حركة السيارة بدت شيئاً لافتاً في المدن العراقية منذ بداية الحرب لندرة الوقود ـ خرجت إبنة (مهند) شقيق زوجتي وصاحت زهراء: «إنه ولد حلو.. أحلى من سلام».

إلتفت إليّ السائق ومدّ لي يده وأخذ كتفي بالأخرى وعانقني وقال: عساه مولود الخير والبركة. خرج لي أهل الدار تباعاً.. فرح يختلط بالدموع وأذرع تنفتح على آخرها.. ثم جاءت إليّ الحبيبة شاحبة. تتحرك ببطء وتلف جسدها بملابس ثقيلة لتدفن رأسها في صدري وتبكي. نعم: إبكِ أيتها البائسة حطام أحلامنا وقلقنا. وما تحملناه من أعباء لقادر على الفتك بقطيع ثيران مرّة واحدة. دون أن أدري كان (سلام) قد إلتصق بساقي وسحب ملابسي كي أنتبه إليه.. ياه أنت أمامي الآن، ماذا فعلت بي؟ تعال هذه اللحظة وليأت بعدك الطوفان. ذهبنا نحن الثلاثة إلى مهد من الخيزران نام فيه طفلي الصغير. رحت أتطلع نحوه وكأنني أسأله: ما الذي جئت به إليّ معك؟ وكيف ستخترق حقل الألغام والأشواك معي؟

* جورج بوش يخطب في الكونغرس هذا الصباح ويقدّم على المنصة، زوجتي كولن پاول ونورمان شوارزكوف في استعراض أمريكي مبهر للقوة والعجرفة: «لقد انتهى هذا اليوم معنى الهزيمة في ڤيتنام»! عبقرية العقل الأمريكي تفتقت وصممت ونفذت إنتصارها الدموي علينا كملاذ من رعب ظلّ يطاردها دائماً ويوصمها بالعجز، رعب الهزيمة في ڤيتنام. ويضيف (لأنه عاوز يضيف): «القوة الأمريكية هي تمثيل للمعاني الإنسانية السامية».

1991/2/3

رسائل من الجانب الآخر:

استلمت هذا اليوم رسالة من صديقي.. ورحت أفتحها بشوق اعتماداً على إحساسه بالأمان النسبي هناك. الأمان ذاك وجدته وقد تحوّل شيئاً فشيئاً عنده إلى كوابيس متداخلة. فهو يقول: «منذ يومين ونحن نحاصر في ثكنتنا بل أننا وقعنا في فخ حقيقي. قذائف موقوتة وألغام انتشرت على امتداد مساحة كبيرة ومقتربات الطريق الرئيسي الذي يربط الكويت بالبصرة. والألغام هذه حكايتها حكاية، فقد توزعت حولنا وعلى مداخل المبنى الذي أصبح ثكنة لنا، بعد أن أسقطتها الطائرات قبل يومين. كنت قد ذهبت إلى الملجأ للنوم غير أن إنفجار القذائف المتتالي منعني من ذلك. سمعت صوت شيء ثقيل يتحرك على سقف الملجأ، المتكون من الصفيح والأعمدة الحديدية والمغطى بالتراب. في الصباح المبكر أيقظني صوت مرتبك يقول: إنهض أيها النائم. هناك لغم فوق الملجأ. حين خرجت ارتسم أمامي منظر أقرب إلى المجزرة. أصوات إستغاثة متقطعة تطلب العون. ألغام خضراء داكنة تنتشر في الباحة أمام الثكنة، وطرقها الداخلية وتحت عجلات وحدتنا وبابها الرئيسي. ثلاث سيارات محترقة وإثنان من الجنود جرحى وإثنان فقدا! أصوات الإنفجارات تتوالى في فترات زمنية شبه ثابتة بين إنفجار وآخر. الحريق هو أقرب إلى ما أراه منه إلى جو معركة. إنفجار يدوي، جسد يقذف إلى فوق ثم يرتمي على التراب. أرعبتني طريقة سقوطه على الأرض. دم متجمد بعد نزيف طويل على ما يبدو ووجه التصق على الأرض في رخص وابتذال. قلت مع نفسي: «أليست السماء مشرعة الأبواب؟» فيا إلهي العظيم، هذا بناؤك على الأرض، الإنسان. ألم تر كيف سرقت منه نبضة الحياة على حين غفلة وبطريقة لا ترضاها حتى البهائم؟

هذا الحريق جعل العديد من مراتب الفصيل يختفون فجأة! قد يكونون الآن قد اجتازوا نقاط التفتيش وعبروا من سيطرات الإنضباط العسكري، أو وقعوا في شباك الإستخبارات العسكرية و(لجان الإعدام). غير أن هذا الإحتمال يضعف يوماً بعد آخر فحتى هؤلاء تعرضوا للقصف مما جعلهم يختفون من المراكز المهمة ونقاط الطريق الرئيسية. أتمنى أن يصلوا إلى بيوتهم بسلام كي يقللوا من وحشة تلك البيوت. هذه الحالات ستجدها كأرقام ومواقف في البرقيات التي ينقلها البريد إليكم.. محبتي لك»..

1991/2/5

المنازل ـ القلوب

صديقي وصل اليوم جريحاً، بساق وضعت في الجبس وعصا يتوكأ عليها! هرعت إليه وقابلني مبتسماً، ذهب في صمت عميق وأطرق رأسه ثم بكى حين حكيت له ما جرى هنا والأصدقاء والأخوة الذين رحلوا وطمرهم التراب عميقاً في الملجأ. ها هو في طريقه الآن إلى البصرة ومن هناك علّه يجد طريقاً سهلاً للوصول إلى منزله في بغداد. دون أن ينسى على الرغم من إصابته ـ إنفجر قربه لغم موقوت ـ، أن يطلب منّي ما كتبت كي يأخذه معه كما اتفقنا.. وهكذا فعلت.. إحتضنني وهو يقول: سأذهب إلى منزلي. أتمنى لك ذلك.. متى سنرتاح؟

البيوت ـ المنازل ـ القلوب (ولكِ يا منازل في القلوب منازل) وبيتي مهجور منذ بداية الإجتياح. هدأت في جنباته أغنيات زوجتي حين تردد مع الصوت المنبعث من جهاز الموسيقى أغنيات (جورج مايكل) أو (ستنغ) أو جوهرة الصوت SADE، أو تلك التي تحبها قبل خروجنا في الصباح إلى العمل، أغنيات رفيقة الصباح، فيروز. هدأت أصوات سلام وتبعثرت في أركان الصمت دراجته الهوائية، وكراته المطاطية الملوّنة ومكعبات الميكانو.. خفتت تلك الإيقاعات واستحالت إلى صمت قاتل منذ أن رحلت زوجتي إلى أهلها. وحاولت مراراً تبديده في كل مرّة أجيء إلى صالته وغرفه ومطبخه حين أصل في إجازة أو مأمورية. إذن ماذا لو أتيت لكم الآن؟ وتركت كل شيء إلى الحريق. بدأت أحسب هذا الأمر وأقلّبه في رأسي لعدّة مرّات. ماذا لو أتيت وأخذتكم إلى منزلنا؟ ماذا لو عشنا لحظة مشتركة أخرى؟ ولكن كيف؟ وأية لحظة من الممكن أن نهدأ فيها وكل ما هو مرعب، ينشط حولنا؟ أية عوالم نستعيد وأية لحظة من الصفاء المشترك؟ هكذا تطمر الأسئلة (العاقلة) رغبتي كي أدخل في لوائح العمل الصارمة مجدداً وأتابع مستجدات الموقف الذي يبدو وكأنه ذاهب إلى فوضى تامة. وكل ما نفعله هو الهروب من تأثيرات القصف الجوي. ولكن إلى أين؟ فهو يطيل كل شيء! فشكراً للبلاد على أفق رعبها، ومنازل الجحيم المؤقتة. ووداعاً يا حياة أقمناها هناك على وهم. وها هي الحقيقة مجرّدة: حطب مآله إلى النار المستعرة.

1991/2/11

(أوكازيون) أجسادنا الرخيصة..

أين يا نفس تمضين بي؟ آه يا تطلعات ما الذي فعلته بي؟ كيف يا روى تأخذيني هكذا إلى مسافة

رحيبة من بهجة الإكتشاف؟ ثم بعد كل التوق والتوثب والتأجيل والإنتظار، ها أنذا وسط قبة النار.. إننا هنا نحترق وتكتم أفواهنا وتغلق عيوننا والعالم على مقربة منّا يستبيح دمنا باسم تحطيم الماكنة العسكرية العراقية. هيّا يا مؤسسات وهيّا يا خبراء العسكرتاريا ووسائل الموت، فهي فرصة نادرة لتجريب ما عندكم من جديد الأعتدة والصواريخ ووسائل التوجيه الألكترونية، فلن تجدوا حقل تجارب أفضل منّا. اختاروا قنابلكم الجديدة، اختاروا وسائل التدمير الجماعية والفردية وكل شيء. لن تجدوا أرخص منّا كائنات للتجربة. وحتى (خنازير غينيا) لها ثمن وسوق تبادلات تجارية، لا بل إنها تنقل بصناديق نظيفة في الطائرات وتنقل إلى مختبرات نظيفة ومضاءة ويقدم لها العلف النظيف وحتى أنها تُقتل بعد إجراء التجارب العلمية بهدوء وراحة ـ تعطى كمية مضاعفة من المخدر ـ. بينما أجسادنا تلُقى على قارعة الطريق، محترقة ومشوّهة ومنخوبة بالرصاص. ولها رائحة عفنة أحياناً، فهيّا يا قنابل هيّا يا قذائف إنطلقي برؤوس المواد شديدة الإشتعال وتعالي إلى تجمعاتنا وعجلاتنا وملاجئنا ودوري على رؤوسنا وأقطفي ما شئت منها ولتطفأ في العيون إلتماعتها ولتسكت حتى حشرجات وتلعثمات الخوف. لا أحد سيسأل لم كل هذا؟ إقذفي بنا على الرمل البارد الخفيف وعلى الأسفلت المحفور من قنابل سابقة. دماؤنا لتسيل على حافات الملاجىء، على العجلات، ولتترك خطوطها على ملابسنا الممزقة على أحذيتنا، وسارعوا يا من تطلبوننا ثأراً أو خلافاً أو رغبة تساوركم في تحريك جنرالات جيوشكم المعطلة، سارعوا فهو موسم الواجبات، والعمليات البطولية وهي الفرصة مؤاتية فأمامكم إنسان مهزوم، خائر الروح، عبثت به الأقدار ودمرته شهوة السلطة. وأضاف هو ذاته عظمة كاذبة إليها وانساق طائعاً إلى مؤسساتها ودمر دون أن يدري سلم الأولويات وداس بقدمه التائهة على الكثير من القيم والمعالم الأساسية لحياة أي مجتمع. موسم للتنزيلات الهائلة. نعم (أوكازيون) الأجساد الرخيصة وهي قادرة مع حقولنا وضفافنا ووديانا وهضابنا على تحمل جحيمكم. فـ 60 ألف طلعة جوية وأكثر من 40 ألف طن من المقذوفات منذ بداية عمليتكم «عاصفة الصحراء». تحملتها الأرض بكل معالمها، المدن والعمارات والمصانع والجسور والأجساد بالطبع. حتى ليبدو أن الفضاء ما عاد ليتسع للمزيد من رائحة البارود فيرده إلى صدورنا عنوةً ويفجّ في دمنا المزيد من الكهوف الغائرة ليستقر هناك، نتوءات سود لزمن معتم وقذر.

آهٍ يا رؤى ويا أحلام ويا ضوء ويا معرفة ويا معاني حقيقية، ما الذي فعلته بي؟ عرباتي التي كانت منطلقة صوبك بخيول جامحة تكسّرت دواليبها وفرّت الخيول مع خيط التراب الذي كانت تخلفه! ها هنا أنا وحيد مع البقية المخذولة فيما حولنا السيوف مسلولة تنادي أعناقنا. لست بيائس وكانت إشاراتي للنذير ويومه القادم القريب مبعث إستهجان واستغراب الناس حولي، قلت: حرباً، قالوا: أبداً. قلت: دمار وظلام ومجاعة. قالوا: لا تعرف التفاؤل. وهكذا فأنا لست بمستغرب كل الذي حصل. لكنني حزين لما تتعرض إليه الطفولة، تلك الأيدي الغضّة ها هي تلوّح في فراغ وهي فارغة

دائماً. العيون تمتلىء بالعتمة والأحلام ذهبت إلى رعب القذائف والخطوات متعثرة. لا نزهات، لا نشيد، لا حروف قراءة ولا رائحة النهار في باحات المدارس. لا شيء يمنحنا الإحساس بالزمن، تجمعي يا جحافل وتعالي فهو موسم تصفية الأوكازيون وأسعارنا رخيصة، رخيصة أكثر مما توقعوا، ودعوا جانباً ما تقوله أغنياتنا عن (الفرح الذي يملأ الشوارع):

«والشوارع مدري هيه من الفرح تحضن الناس مدري هيه الناس من كثر الفرح تملي الشوارع..».

أيعقل أن إذاعة تقدم هذه الأغنية يومياً فيما البلاد تتحمل 3 آلاف طن من المقذوفات، يومياً بالطبع؟! المذبحة تملأ بلادنا (لا فرح). الولاءات الكاذبة والخادعة وأنتم مدعوون إلى كرنفال موتنا المتواصل منذ 25 يوماً بلا توقف والحافل بمفاجآت لاحقة ستجلب لكم السرور، طالما أن أعناقنا هي المشكلة.

* الغارات تتواصل. وجماعة صواريخ الستريللا القريبة منّا شبه عاطلة عن العمل. على الرغم من الوفرة في مشاهد الطائرات المنخفضة والبطيئة والتي تمثل بذلك هدفاً مثالياً لمدى الصواريخ المنطلقة من قاذفة محمولة على الكتف. اليوم أعاد لتلك المجموعة حيويتها، آمرها الملازم الشاب الذي عاد من إجازة مرضية. ها هو أمامي الآن يحكم وضع القاذفة على كتفه ويسدد نحو طائرة كانت في شبه إستدارة تنخفض بإتجاه مهاجع الطائرات في القاعدة. أطلق نحوها صاروخاً ثم وقف ثابتاً بعد أن وضع القاذفة على الأرض وراح يصرخ على الصاروخ: «عليها عليها لن تفوتك»! الصاروخ في مسار متعرج غاب خلف دخانه الرمادي. الطائرة أطلقت صاروخين على القاعدة. وفيما هي ترتفع (صادها) الصاروخ فعلاً. تعالى صراخنا وركضنا نحو الملازم الشاب وعانقته بقوة ودون أن ندري بكينا معاً! لقد افتقدت هذا المشهد وكدت أنساه تماماً. مشهد إلحاق الأذى بمن يتفنن في قتلك وحسبما يشتهي.

1991/2/13

الكارثة تكشف عن ساقيها..

الكارثة التي ترسمها تقارير الصحافة، بدأت تتكشف عن عمقها على الأرض. هناك حيث تتعرض المدن العراقية لمخاطر التلوث والتهديد بإنتشار الأوبئة. وهذا جرّاء فقدان الماء الصافي والكهرباء والخدمات الصحية وفيضان مياه المجاري. لم تكن مخاوفي ولم يكن قلقي إلا في محلهما، فها هي الكارثة تطرق أبواب مدننا وأهلنا. وشوارعنا تغرق في ظلامها وتنتحب الأرصفة وتفتقد الخطوات والضجيج الحلو. ها هي (الحفلة) قاربت على الإنتهاء ولكن لِمَ كل هذا؟ لِمَ كل هذا الظلام؟ لِمَ كل هذه النعوش تسافر إلى التراب؟ ولِمَ أطفالنا خنقوا وتاهت أنفسهم بين تلال الرعب

والمخاوف؟ أيعقل أن كل هذا دفعنا إليه بأذرع ومخططات متشابكة؟ حروب دائماً هناك حروب ودماء وأعداء ومبررات وهجمات وهجمات مضادة. أيعقل أننا إحتملنا كل هذا الرعب منذ أوائل الثمانينات؟ وهل يعقل أننا كنّا أدوات تنفيذه ووسائله المباشرة دون وعي؟ أنا أحسب أن غياب التكافل الإجتماعي ومنظوماته الفاعلة كان هو السبب الذي جعل المخاطر الجماعية تتفتت إلى مصائر فردية! حتى إذا وصلنا إلى خطر الإبادة الجماعية، عاد (الوعي) إلى فاقديه وبدأوا يرون المشهد بوضوح ولكن بعد ماذا؟ بعد أن طال الحريق كل شيء.. وآهٍ منك يا عراق يا «آية للزمن» كما تقول الإذاعة.. آه من الفضاء المخرب حولك. إلى أين ستمضي بالصفاء المتبقي في روحك والمعاني السود تتقدم نحوك وتحاصرك من كل صوب؟

* هذا الصباح تمعنت في ملامح وجهي أثناء الحلاقة - تركت لحيتي تنبت قليلاً - وجدت وجهي شاحباً وقد انطفأت فيه إلتماعات كانت تصعد إليه من جوانبه حيّة لم تكن إلاّ قوية وتزداد عناداً ضد محاولات تخريبها. ومثلما «رادار الأواكس شوّش على الآذان» كما تقول أغنية «الله أكبر» لمغنٍ عربي يناصر العراق، شوّشت الحرب وتفاصيلها على كل الحزين من الذكريات التي بقيت لي زاداً أخفف به من جوع الحياة هنا. لكن ثمة ذكرى باقية كجرح مفتوح في حياتي وتنأى عن كل التهديدات وتبقى مناراً يضيء عتمة حياتي، ويرسم لها مدخلاً جديداً حتى بعد أن يغلق آخر. فاليوم وقبل عامين ماتت أمي وبعد أن سبقها أبي إلى حضن التراب بأسبوع. ماتت وأبقت لي المعاني التي مثلتها تلك الحياة الخصبة التي عاشتها. ماتت وتركت لنا إزارها الأبيض وفرشة الصلاة وروحها الصافية ودموعها وقلقها وينبوع حنينها، الذي طالما شربت منه فارتويت، ارتويت ولم يزل نبعاً يتدفّق. آه يا جليلة لو تدرين ما الذي فعلت بي النوائب؟ آه لو تدرين أين أنا الآن؟ ولكن ذلك يتحقق الآن فأراها حماماتك تطير من أكتافك وأكفك وتأتي لزيارتي وتهدئ روحي وتزيل عنها الفزع. بها، بدعائك، بتراتيل السلامة خرجت من كل هذه الفخاخ التي نصبها الموت. فسلاماً على روحك الذهب وسلاماً على حنينك الصافي المتألق، ولأنني ارتويت منه، فسأطلب منك إبتهالاً آخر، كي أعود إلى بيتي. فها أنت غائبة وقد حضر إلينا طفل جديد، تركته على صدر أمه الحزينة التعبى. تعبت يا أمي وأثقلني حمل الأسى وهزّ ثناياي هذا الدمار. وبك وبإسمك وبما تركته من معانٍ سلسة وتغرف من الخير والجمال، سأستعين لأخرج للأيام وبصوت مدوٍّ أصيح، بالقبيح الذي تجيء به: ها أنذا فلتأخذي مني ما تشائين وما سيبقى يكفيني لمواجهة المعاني السود. ويا روحك الطيبة، يا أبي، يا إعتدال ميزان ما اهتز تحت تأثير النوائب. أرى أنك تنتحب للشدائد التي تعصف بي - أتذكر هنا نهارات العاشر من محرم حين نستعيد موقعة الإمام الحسين (ع) وكيف كنت تنتحب بصوتٍ مكتوم يتردد بين جدران بيتنا ويملأ صدىً شجياً - عفيفاً يا أبي غادرت الحياة، منسجماً إلى ما أخذتك إليه خطاك. وها هي ذكرى رحيلك الثانية إتكاءة أستريح إليها. وبما تبعثه الآن في روحي من شجن عميق، أطرد به الفزع والمخاوف وأخرج

به من قبة البارود التي أحاطت بحياتي.

1991/2/14

الملجأ.. أو حكاية مقبرة لأحلام الطفولة..

هُرست أجساد المئات من الناس في ملجأ بالعامرية، جنوبي غربي بغداد. بينما يصرّ الجنرالات الأمريكان على اعتباره هدفاً عسكرياً وإستراتيجياً أيضاً. قبل أيام كتبت عن أجسادنا كعلامات رخيصة لوجودنا ككائنات مهشمة، تتوزع في حقل تجارب للقذائف ووسائل التوجيه المتقدمة. وها هي الأحداث تؤكد يقيني، فقد هُرست الأجساد الغضّة وطارت الأحلام إلى مدار الرعب ومات الياسمين. وتدفق البارود في الرئات. شظايا تلتصق بها أجزاء من جسد طفل أو جديلة امرأة وكتف صبي وحذاء لطفلة ما زالت تلتصق بجزءٍ من ساقها! ولم لا فهو هدف إستراتيجي، بل هو هرم كآبتنا وأحلامنا. لقد أظلمت الليالي في مدننا لتزداد العتمة في أرواحنا. وها هي العتمة تزحف على بقية اليوم ويصبح النهار أسود حالكاً. فموج من النعوش سيغطي شوارعنا وستكتظ مقابرنا بالمزيد من ركام وأنقاض الأحلام. هكذا تمضون في إستباحة دمنا وبمرح بالغ تنشرون قمصان أطفالنا الممزقة والمبللة بالدم والتي التصقت بها بقايا أجسادهم الغضّة. فشكراً لكم، لزيادتكم شحنة الحزن في أغنياتنا القادمة، ولطردكم الغيوم من سمائنا لأنها تعكّر من مزاج الطيّارين الحاملين هداياهم لنا. شكراً وتبجيلاً لإنجازكم الفذّ وأنا أكاد أسمع نداءات (البدائية) العميقة في ثناياكم تتعالى! ولكنه يوم دم لن ينشف وأراه لاحقاً من سيجعلكم في مضمون المعنى الذي طلعتم منه. وحين تريدون أخباراً منّا، فأقول إننا ننتظر، نهايتنا لن تكون بعيدة، وقطعت خطوطنا ولا إتصال مع أي شيء لنا، سوى أحلامنا الميّتة. شخصياً ما عادت شبكة الدخان المتقاطعة التي تشكلها الطائرات المغيرة فوق موقعنا، تشكل عندي حتى مبعث القلق البسيط، دمنا مستباح وأفقنا مقطع الأوصال كما أرضنا. ولكنني أعيد ثانية ما قلته في كتابتي لمحاولة رواية قبل أكثر من 12 سنة: «إنني مهزوم لكنني لم أجد عدوّاً يليق بمعنى إستسلامي له».

1991/2/15

حكاية التراب الذي عفّر حياتي..

لو قيّض لي أن أخرج من هذه المحنة، معافى جسدياً على الأقل، فماذا سأفعل؟ وهذا المدار المحترق والأرض الممزقة الأوصال والناس التائهون في أوحالهم وهذه التركيبة المهزومة التي إسمها وطن. الذي

كمّم فمي وقلّل من أحلامي، أحلامي بحياة بسيطة (أبسط مما تتصوروا يا أخوانا)! ما ستكون علاقتي بهذا التراب؟ الذي وسم مشاعري وحنيني ومسرتي وحزني العميق، تراني بقادر على الخروج من رائحته صوب أفقٍ آخر؟

«أيها المواطنون...

هكذا بدأ صوت المذيع (إياه) صاحب الصوت الجهوري وقارىء البيانات المرعبة التي ارتبطت دائماً بمعركة، موت، نذير شؤم أو حدث مميز ضمن هذه القائمة ستعيشه البلاد. هكذا بدأ يقرأ في بيان يعلن عن استعداد العراق للإنسحاب من الكويت ولكن بشروط! وبدأت جولة من الترقّب المشوب بالحذر.. هرعت إلى محطات الإذاعة لمراقبة ردود الفعل الأولية وما لبثت الآمال التي أشرعت في صدور العراقيين أن ارتدّت إلى مبعثها كأمنيات مستحيلة. وإنني لحظة سماعي للفقرة الأولى من البيان تملّكني الفرح ولكن مع قلق عجيب فأنا أعرف تماماً طريقة تفكير القيادة العراقية وولعها بالغموض والإنشاء في بياناتها الصادرة. وما إن جاءت الفقرة التي تشير لشروط العراق! قلت مع نفسي: لقد بدأ الخرط!!

نعم جاءت تعليقات محطّات الإذاعات العالمية بحذرها أولاً ثم برفضها لاحقاً للإعلان العراقي. ولم ينسَ جورج بوش أن يشير لأسفه تخييب أمل العراقيين وشعورهم بالفرح الغامر بل أن يعلن عن «خدعة وقسوة» ينطوي عليهما البيان العراقي- تمعّن اللغة والوصف المتداخل (خدعة) و(قسوة)-. لقد انتهى شوط من الفرح السريع والقصير- أطلق العراقيون نار بنادقهم فرحاً.. حتى الفرح عندهم بنادق ونار!!- لكن ثمة تفصيلات أخرى حقيقية، فكم استفاقت الحياة في أركان صغيرة وفي ثنايا النفوس، وكيف بدأت المشاعر تستيقظ بعد طول رفقة مع الرعب والخوف والقلق. كم من الخطوات ارتسمت وهي تتلمس طريقها نحو فسحة للحياة؟

كل هذه المشاعر والآمال تصاعدت بقوة، غير أن الأخبار التي جاءت مع الساعة الثامنة مساءً كانت كفيلة باغتيالها تماماً!

1991/2/17

صباح أسود..

صباح أسود.. نعم أسود، ليس بسبب العتمة الداخلية وكثافتها التي تتزايد يوماً بعد آخر، بل هو أسود لما شكلته الغيوم الناتجة عن احتراق آبار البترول ومعامل التكرير والبتروكيماويات من طبقات متماسكة حجبت الشمس تماماً. وبدت الثالثة بعد الظهر وكأنها لحظة الغروب وانخفضت درجات الحرارة دون معدلاتها. وأطبق الدخان على الأفق وتداخلا في عناق حميم. حريق إذن

هذا النهار، وهو صورة مكثفة للنهارات السود التي نعيشها، ضحايا وكوارث وتهديم لبنية البلاد الإقتصادية، وقبل ذلك إنسانه!

لقد صغرت أسئلتي عن غربتي في وعي الكارثة يوم لم يكن من وقائعها الراهنة قد ظهر شيء بعد. لقد إضمحلت الأسئلة والسبب: لأن الكارثة حلّت بين الناس وبقوة هائلة نسفت كل (السواتر) التي بنيت حول الناس وكل الحواجز الحديدية التي فصلتهم عن رؤية مسافة أمتار من مستقبل ما! قد أموت وهذا هو المرجّح حالياً وفي منظور تطور الأحداث القريب وسأخسر بهجتي الصغيرة وجلسات الشجن مع روحي في ساعة موسيقى أو أغنية من النوع الروحي العميق.. ستذهب أحلامي وسيوحشني دفء الغرف في منزلي، سأخسر متعة القراءة.. كل هذا من أجل أن يحيا (الكركدن):

«هناك
أذرع رفعت أنقاض الفجر
حبّة الأرض.
قشّرتها شظايا المعدن.
حشد قلقين ظهروا،
كنتوء على وقت مبلطٍ بالرتابة
في أذرعهم المبللة، بكاء آخر الليل
الليل: أفق منكب على تمجيد الظلام.
هناك،
تدحرجوا نحو جوف الرمل البارد
نفخوا في الأبواق
بكاء أذرعهم الخضيب».

(الكركدن) الذي يمضي بفوضاه ساحقاً بأقدامه الثقيلة كل زهرات مباهجنا الصغيرة. أولئك/ نحن الذين عشنا تجربة ذاتية مع الحرية والمعرفة. ها هو (الكركدن) خارج حقله المحترق يسحق كل شيء ويتغوط عند ضفاف الأنهار فتذعر النسوة المشغولات بغسيل القمصان والأكفان معاً!

أعلّل نفسي لأقول: ليس نهاية العالم أن أموت. ولن تصبح الحياة بعدي صخرة. ولكنني حزين على سهولنا وملامحنا وهي تحترق والكركدن بفوضاه يسحق كل شيء. هل من المعقول حرق غابة بأكملها من أجل الإمساك بكركدن؟!

1991/2/20

إذاعات.. إذاعات..

(ساعات الفرصة الأخيرة)، (قنابل لتفجير حقول الألغام)، (مقذوفات خاصة لبتر الأعضاء) و.. وخطط لا تنتهي لهلاكنا! في الأفق غارة، وتهتز تحت قدمي الأرض. خطوات تتعثر في هروبها. نحو الأفق تطير الأفئدة فيما يستغرق الدم بعزف نشيده المتواصل. وتتواصل العناوين: «فاينانشال تايمز»، «هيرالد تربيون»، «الأنباء»، «الرأي»، «الأهرام»، «القبس»، «الثورة» - ثورات كثيرة تضرب كالعادة بيدٍ من حديد - «الراية»، «واشنطن پوست»، «دير شبيغل»، «لوموند»، «ليبراسيون»، «الشرق الأوسط»، «الأحرار» - أينهم حقاً؟ - «الإيكونومست»، «الشعب» - كالعادة هي صوته المعبّر!! - «شتيرن»، «هاعولام هازيه» - يا هذا العالم إحتكم لضمير ما ذات مرة! - «پاري ماتش»، «الدستور» - كم هو مصان في البلدان الجمهورية؟ - «لوس أنجلوس تايمز» - تنذرنا بخسارتها جرّاء تغطيتها لأخبار الخليج -. صحف ومجلات وكتّاب تقارير إخبارية، محللون عسكريون، تربويون وغيرهم سيجدون في مذابحنا / إنتصاراتهم ما يكفي للسبق والتحليل والفبركة والغطرسة أيضاً. إذاعة لندن تقدم برنامجاً خاصاً عن التأثيرات المباشرة للحرب - عبر المشاهد المتلفزة طبعاً - على الأطفال في بريطانيا! يا إلهي.. ما الذي يقوله الأطفال في بلادنا حين تسقط عليهم وعلى مدنهم وبيوتهم القذائف الموجهة والصواريخ (الذكية)؟ لا بل إن المتحدثين ذهبوا إلى أن تأثيرات مشاهد الحرب وعند الأطفال الذين ذهب أباؤهم إلى الحرب في الخليج ستستمر فترة طويلة. ماذا يقول أطفالنا حين خرج ملايين الآباء؟ نصف مليون أب على الأقل خلال حرب السنوات الثماني ذهبوا بلا عودة. أيمكن أن تكون الحقائق هكذا ملوية الأعناق ومغيبة تماماً؟

تعليق يومي لرجل يحترم عقله والحقيقة المعرفة - هذا يتم خارج أتون الجحيم العربي - هو د. غسان سلامة الذي بدأ يدرك الحقائق المحتجبة خلف دخان الحرائق. الـ CNN وعبر مراسلها پيتر أرنيت في بغداد، أعلن من غرفته في فندق الرشيد بداية الحرب الجوية. وبدأ يسوّق الوقائع حسب طريقته إلى العالم. الـ CBS والـ BBC عند الملجأ المهدم في العامرية وعدة زوايا لالتقاط مشهد الجثث المتفحمة!!

المارشات العسكرية هي لحن الإذاعات المفضّل.. الخرائط التي توضح الطرق المؤدية إلى قتلنا على أبواب الصحراء مطلوبة هنا كثيراً! - في الولايات المتحدة طبعاً -. كتب في التحليل النفسي لشخصية صدام حسين وأخرى تحقق هذه الأيام مبيعات عالية مثل «جمهورية الخوف» وقصص كردية في أسلوب الپوستر السياسي للكاتب سامي عبد الرحمن - الذي التقاه الراديوالسعودي وأرعبني بذكر اسمٍ لصديق من بين العديد من ضحايا الإغتيال في كردستان العراق. دلشاد مريواني

الشاعر والقاص والمترجم الذي عرفت من خلاله بقاعاً لا أحلى ولا أجمل في بلادي. وعرفت من خلاله تلك الشخصية شبه الأسطورية للكردي العراقي الحقيقي. وداعاً أبا (سيڤا)، سأتذكر ما حييت لحظات اشتعالنا البهي بالصداقة والكلمات. سأتذكر ترجمتنا المشتركة لقصائدك: (سمفونية البنفسج، صبية من تل الزعتر، السائر تحت غيوم ناوپردان والتي أهديتها لي..). عبد الرحمن الأبنودي يصف المتظاهرين الذين خرجوا في بعض العواصم العربية لإيقاف المذبحة ضد شعبنا، بأنهم مجموعات من الرعاع!! ماذا أبقيتم للجنرال شوارزكوف...؟ جنرال عاطل عن البسالة في جيش شقيق يستغرب كل الحملة وتكاليفها، ويصرّح عن إمكانياته في تلقيننا الدرس المطلوب!

مفاوضات.. إنسحاب دون شروط.. الخط الساخن في دبلوماسية طهران - موسكو يأتي عبر رحلة مكوكية لرجلنا الدبلوماسي الأول. تجهمت الولايات المتحدة من المبادرة السوڤييتية فيما وصفها فيتز ووتر الناطق الرسمي للبيت الأبيض بأنها مشوشة ولا تنسجم مع المتطلبات الأمريكية لإنهاء الحرب. إنفجارات هائلة قربنا والطائرات تتقاطع في خطوط الدخان المنبعثة من محركاتها والتي ترسم في السماء أشكالاً تذكرنا بالألعاب الجويّة والطيران الإستعراضي. إطلاقات من الرشاشات والأسلحة الخفيفة لخبر قبول العراق مبدأ الإنسحاب من الكويت دون شروط، كما أذاعه راديو طهران. بغداد شهدت أعنف الغارات في موسم (عاصفة الصحراء). صباح المطر هنا.. ولكنه مطر حامضي كما تصفه أجهزة الأنواء الجوية، فالغيوم علق بها الكثير من الدخان الذي تصاعد إثر قصف المنشآت البترولية على الخليج. والمطر الساقط بدأ في تأثيره على الحقول والنبات، ومضغ أوراق الشجر بتركيبه الجديد. لقد نزل المطر الحامضي وتركنا أسرى الهدوء الغامض. كما ترك الأشجار للذبول..

1991/3/2

في بيتي، عائداً من الموت للتوّ..

عائد من الموت، عائد من كرات النار، من الشظايا، من حرائق العجلات، من القنابل العنقودية، عائد من أرتال الموت المتنقل حين أصبحت أرتال العجلات المنسحبة هدفاً شهياً للطائرات المغيرة، فاحترقت العجلات والأجساد وقذف عصف الإنفجارات بالجنود على الطريق، فقتلى ممزقين، جرحى لم تتوقف عندهم يد تمتد بالعون وظلّوا ساهمين يتطلعون صوب الأفق بانتظار موتهم! وهؤلاء أوفر حظاً من الذين داستهم العجلات في الليل، العجلات والدبابات والمصفحات الثقيلة الشاردة وجعلتهم عبارة عن قطع متجلدة من القماش والأنسجة الحيّة والعظام! عائد من كل هذه الفوضى المرعبة، من كل هذه المصائر وبالصدفة وحدها خرجت من المجزرة. انتظمت عجلة الحمل التي أقلّتنا

من الزبير في البصرة، نحن الذين بقينا حتى صدور أمر انسحابنا لإعادة تنظيمنا في بغداد، والذي تزامن مع انسحاب القطعات من الكويت. 24 فرداً من مجموع الـ 245 الذين كانوا يشكلون وحدتنا. انتظمنا في رتل ضمّ العشرات من العجلات والدبابات والناقلات المدرعة. تركنا مساحة الزبير الواسعة، فيما كان الجنود يهيمون سيراً وهم يخوضون في وحل الهزيمة. نعم وحل كثير فالأمطار لم تتوقف منذ ثلاثة أيام. يغوصون في الوحل مبتعدين عن الطريق العام، المستهدف دائماً من قبل الطائرات وهم يحثون الخطوات الغائصة صوب البصرة. مئات متصلة من الجنود تشكل ذلك المشهد، فيما كانت النيران تلتهم بعض العجلات والتي سقط بالقرب منها العديد من الجثث.. مجانية وعبث لا ترقى لهما أي سريالية خالصة. أحد الكلاب أسرع لإحدى الجثث وراح ينهمك في نهش أحدها، قبل أن يسارع أحد السابلة إلى إطلاق رصاصة عليه من رشاشته وأرداه قتيلاً قرب الجثة! سريعاً عبر المشهد صوب جسر الزبير والذي نسفته الطائرات منذ الأيام الأولى لحملتها الجويّة. سدة ترابية إلى جانب الجسر كانت هي المنفذ الوحيد لعبور شط البصرة الذي يأخذ مياه المنازل من وسط وجنوب العراق ليصب في البحر. الوحل امتدّ أيضاً لتلك السدة الترابية فيما سدّت الطريق إليها العشرات من العجلات وناقلات الأشخاص المدرعة المحترقة أو العاطلة.. من عجلة حمل مماثلة لعجلتنا، متروكة على جانب، تدلّت جثة قتيل من جنودنا وبللتها مياه المطر، لتنزل القطرات الحمراء منها ولتشكّل على الوحل خطاً وردياً. وجه القتيل يواجه الأرض، لذا لم أشاهد من ملامحه سوى جذعٍ متدلٍّ وأطرافٍ متورمة. شق سائق عجلتنا الطريق بمهارة بين كتل الحديد وتوقف خلف الرتل الذي كان يروم عبور السدة الترابية. غاصت واحدة من عجلات الحمل في الوحل وسط الطريق وسدت احتمال الوصول إلى الضفة الثانية. أصبحنا هدفاً مثالياً لهجمة جويّة، قفزت من مقصورة العجلة وغاصت أقدامي في الطين، وعبرت من تحت غيمة سوداء خفيضة تتشكّل من بئر نفطي مشتعل بتأثير ضربة جوية. اقترب من أسماعنا صوت طائرة واقترب بذلك احتمال حريق إضافي واحتمال تشظية عنيفة أخرى تمزّق العدد الوفير من الأجساد المزدحمة هنا. غير أن (جراراً) لا أدري من أين جاء؟ وكيف تمالك سائقه نفسه واحتفظ برباطة جأش نادرة فذهب كي يربط العجلة التي غاصت في الطين بحبل معدني ويسحبها إلى الضفة الثانية؟

جاءت عجلتنا بعد ذلك وصعدت إليها وصعد العديد من الجنود الذين تركوها مثلي. أرتال السابلة لم تزل تتضخم وتتزايد فيما تقترب المسافة من البصرة. توقفنا لجريح راح يؤشر لنا بتوسلٍ وطريقة تثير الشفقة كي نأخذه معنا. وما إن تباطأت العجلة حتى هرع إليها العشرات غيره من الجنود الذين تملكهم الإعياء. وما إن وصلنا (ساحة سعد) علامة البصرة المميزة عند الجندي العراقي - كونها تضمّ مجمع الباصات القادمة إلى البصرة والمتجهة منها - حتى بدت الفوضى تتضح بكل معانيها، دبابات شبه تائهة في وسط المدينة. مدافع ثقيلة على الأرصفة وجنود على ناصية

الطريق يلوكون قطعة خبز. توزعت نظراتي ما بين التقاط تلك الإشارات وما بين معالم المدينة ذاتها، فتيات صغيرات يتطلعن من شرفة في عمارة سكنية على ما يشهده الشارع. المجمع الإعلامي والتلفزيوني في البصرة اخترق سقف طابقه الثاني صاروخ ضخم والدمار يبدو هائلاً في المبنى، فيما أحدثت إحدى الدبابات ضجيجاً هائلاً حيث كانت تسير أمامنا، لتتوقف فجأة وتستدير نحو اليمين حيث مبنى فرعي للحزب وأطلقت زخة من رشاش الدوشكا أعلاها على صورة كبيرة للرئيس!! أذهلتني المفاجأة تماماً.. سيحدث شيء ما هنا.. هكذا قلت مع نفسي..

وصلنا (العشار) وكان ضجيجه هذه المرة لغير حركته اليومية كمركز نشيط للبصرة، بل لحشد الجنود المتحرك من رصيف لآخر ومن ساحة لأخرى ومن جسرٍ صغير لآخر.. الكورنيش غصّ على آخره بالجنود وهم يقفون بأعداد ضخمة في محاولة لعبور شط العرب باتجاه (التنومة). خرجنا باتجاه الجسر الصغير الذي يؤدي إلى مقام الإمام علي (ع). حالة فوضى أقرب إلى الهياج، جنود على الأرصفة وبين العجلات التي ابتدأت بالتراصف الكثيف ولعدة خطوط متجاورة منتظمة في محاولة لعبور جسر مؤقت أقيم على شط العرب. العجلات أصبحت أعدادها بالمئات وبلا حركة تقريباً- ترى أي مجزرة ستحصل لو جاءت طائرة، الآن-؟ وها هو دوي واحد يقترب منّا. وكالدود الذي يفزع على الأرض حين يداهمه خطر ما، قفزنا من العجلات وإلى الشوارع الصغيرة المجاورة للمكان أو تحت جسر صغير.. أو الارتماء على ضفة نهر من أنهر العشار الصغيرة المتعددة. (كانت الضفة تحمل علامات من الحجر المرصوف أثناء حملة إعادة تعمير البصرة). يا للمفارقة فها هي الآن شاهد على حملة تهديم الإنسان العراقي! ها هو فزعنا يقودنا إلى لا هدى، إلى أي مكان غير مقتربات الجسر التي أصبحت كعنق زجاجة. إمرأة شابة من إحدى الشرفات تنشر غسيلها أخذت تتطلع إلينا وظلّت تحملق في وجوه جنود بلا ملامح. منذ الثالثة بعد الظهر حتى السابعة مساءً كنّا ننتظر حركة الرتل الضخم للعجلات. وطوال الوقت كنت مأخوذاً بالمشهد. أفواج من الجنود تعبر الجسر مشياً إلى الضفة الثانية من شط العرب. أسأل العابر إلى أين؟ إلى بيتي.. إلى بغداد، إلى الحلة، إلى كركوك.. إلى الرمادي.. إلى كربلاء.. وفيما كان الغروب يأتي ليضيف مع خطوط الظلام التي يحملها وحشة يعمّقها البرد وأمواج الوحل الكثيف، كنت أستند على جدران أحد البيوت البسيطة التي تطلّ على الشارع العجيب في مشاهده. خرج الرجال الكبار السن والدهشة تملكتهم فيما راحت بعض النسوة توزّع على الجنود الماء وبعض البيوت لم تتردد على الرغم من ضيق الحال في توزيع الشاي الساخن وبعض أرغفة الخبز.. البيت الذي أسندت ظهري إليه، خرج منه رجل ثلاثيني العمر مع طفلتين.. حدقوا بي وأجبتهم بإبتسامة جافة على شفتي بالكاد استطعت أن أرسمها. ثم تعالى بعد لحظات بكاء إحدى الطفلتين- إبكي أيتها الطفلة.. ليأتي أي شيء منك.. ليأتي ما يغيّر إيقاع الهياج المرعب هنا.. ليأتي صوت الحياة مؤجلاً على الأقل إيقاع الهزيمة والموت الذي يتأكد في منظر أي جندي.

أي دبابة تلوذ هنا. أخيراً عبرنا إلى الضفة الثانية، وفي الطريق التي تخترق بساتين النخيل، كان السائق ينادي برقم وحدتنا كي يهتدي إلينا الجنود ويواصلوا الرحيل معنا.. طلعت إلينا مجموعات نعرف منها البعض ولا نعرف أيضاً وبدوا لي للحظة، ككائنات مخيفة تخرج من قبورها، إذ كانوا يلبسون (البطانيات) وزادهم الظلام شبحيةً وغرابة. وصلنا (التنومة) واكتظّ شارعها الوحيد بالعجلات والجنود - ماذا لو قضيت الليلة عند عمتي التي تسكن عائلتها هنا؟ - لم أتوقف وخرجنا من المدينة وانعطفنا يساراً لنسلك طريق (كتيبان) الذي يخترق بساتين النخيل. الجنود على امتداد الطريق يمشون حفاة ولا أدري كيف سيواصلون وإلى أي مدى ستأخذهم مقاومتهم؟ الطريق ذاتها، أخذت من حياتي الكثير في حرب الأعوام الثماني - معارك شرق البصرة 82، 1984، مجنون، النشوة، بحيرة الأسماك، الفاو بضياعها وعودتها، الشلامجة و.. و... وها هي ثانية أكف الموت تهزّني مع 30 جندياً في عجلة تخترق الظلام بهدوء. عند مفرق (النشوة - مجنون) توقف السير.. نزلت فإذا بالعجلات جاثمة على الطريق في خط طويل.. لا أحد يعرف ما السبب في التوقف؟ لكنني شممت رائحة الموت قريبة منّا.. صحت على من معي: إنزلوا بسرعة، ومن فتحة بين غيوم حجبت قمراً مضيئاً ظهرت طائرتان فيما راحت قدماي تسرعان بي لأنتهي عند ساقية مبلل قاعها ولأرتمي على طينها. تعالت الإنفجارات وطارت فوقي الشظايا وأربعة رجال عند أعلى الساقية بلا حراك بعد حشرجة بسيطة. النار كانت تلتهم أول الرتل المتوقف ووسطه وآخره فيما بدت لي عجلتنا سليمة. عادت الطائرات ثانية وبدا الجزع لا الخوف أو الرعب هو الذي يتملكني!! ليكفي كل هذا وتعال يا قدر تافه. أريد أن أنام! نعم أن أغمض عيني وأنا.. احتل التعب والضنى كل أجزاء جسدي ولم أعد أخشى أي شيء.. وبين غارة وأخرى اهتديت مع عشرة جنود إلى بيت بدا مهجوراً وسط بستان للنخل. وسائق العجلة (ثابت هليل) أكثرنا وسط الرعب هدوءاً، عاد للرتل المحروق وجاء بسلاحه الشخصي وحقيبتي وبعض البطانيات ومدّ لي بواحدة وقال: «تعال لننام وفي الصباح يحلّها حلاّل». بدا ذلك مع الحريق والبرد والقذائف نوعاً من ميتافيزيقيا لا تتحقق إلاّ هذه اللحظة وفي هذا المكان المرعب. كيف سأنام وهذا الرعب الطائر يكاد لا يتوقف؟ أنزلني تعبي إلى الأرض الباردة فرشت نصف البطانية وغطيت جسدي بنصفها الآخر..

صباح من الحرائق والأجساد المثقوبة بالشظايا، والمقذوفة على جوانب الطريق، رائحة الأجساد المشويّة، نهار معطل عن الحياة فيما راح فلاحون من أهل المكان يخرجون إلى الطريق متطلعين فيما يحصل. واصلنا مسيرتنا بين السيارات المحترقة دون أن ينسى السائق توجيهي نحو صور وجداريات كبيرة أمام الوحدات العسكرية المتواجدة على الطريق وقد اخترقتها طلقات رصاص وجهت إليها عن قرب!

عجلات هنا وهناك محترقة، أو مدمرة، على أطرافها أجساد غافية، لم تزل مبللة بالدم أو أخرى

مهملة على طرف الشارع. الأرض تكاد تنكمش على أطرافها وتفزّ مذعورة كي تنضمّ إلينا، جسداً قابلاً للتهشيم معنا. وسريعاً سريعاً خذنا يا إبن هليل. طالما أن الضباب خيّم على كل شيء وعلّه الضباب يكون مظلتنا الواقية من جحيم أسراب طيور الألمنيوم ومخالبها الوحشية الجارحة! آهٍ يا صباح أجسادنا المبللة بكل شيء، المرتجفة، المرعوبة، المحمومة، المسممة، الغضّة. وعلى مهلٍ بل لتتأخر خيوطك الضوئية يا شمس، هكذا كنت أبتهل بل كنت أشبه ببدويّ يعزف على ربابته أدفع جذعي إلى أمام وأعود به إلى الخلف أثناء الغناء. وأيّ غناء بصحبة الأجساد المحترقة؟ وصلنا عند نقطة كانت شبه مغلقة بحطام الآليات وكالعادة تناثرت أجساد الرجال حولها. وتولت إحدى الدبابات فتح الطريق ودفعت بأكوام الحديد جانباً ومررنا من تلك الفتحة بسرعة. غير أن المشهد تكرر ثانية عند عنق (جسر مجنون الحديدي) فثمة ضربة سبقتنا إلى المكان والحطام لم يزل ساخناً والدخان اختلط بالضباب الذي تكاثف وعانق أطراف القصب والبردي الذي وفّر لنا مكاناً مناسباً للالتجاء بين سيقانه الطويلة، حين مرّت فوقنا طائرة. غاصت قدماي في أرض موحلة ويداي راحتا تضربان بسيقان القصب التي راحت تطلق حفيفها وتتمايل إثر خلخلة الهواء التي سببتها ضربة الطائرة القوية.. الشظايا طارت فوق رأسي وعن قرب سمعت صوت استغاثة.. قررت حينها أن أواصل طريقي هكذا بين الأغصان، بين الجداول وعلى امتداد الأرض الطينية وبعيداً عن مخاطر الطريق الذي أصبح فخاً مهلكاً لسالكيه. ووجدت فيه الطائرات المغيرة صيداً سهلاً للمزيد من الأجساد، مشاريع الإستشهاد - كما تحب أجهزة الإعلام تسمية العراقيين -. ومرة أخرى يخرج (ثابت هليل) بعجلته من المحرقة سالماً! وبدأ يضرب على منبه العجلة داعياً إيانا للركوب مجدداً.

تركت قراري الذي اتخذته للتو، جانباً! وركبت بسرعة فيما راح الجنود يقذفون بأنفسهم في بدن العجلة. ومعهم جاءوا جنود جرحى من غير وحدتنا والذين بإمكانهم الحركة وصعدوا أيضاً. المشهد يكاد يتكرر على امتداد الطريق، نثار أجساد مرمية على قارعة الطريق. غير أنني لن أنساه إطلاقاً، مشهد ذلك الجندي الشاب وهو جالس على طرف الطريق والدماء تكاد تغطّي كتفيه وظهره. استدار بوجهه نحو الأفق، وجهه شاحب وشفتاه تتحركان ببطء. يده امتدت بحركة ما كأنها تشير إلى هناك، إلى فراغ الأفق وامتداد العشب والطين. كان يحرّك رأسه بإطراقةٍ، بندم كنت أعرفه. ظهره إلينا وآخر الضياء في عينيه يختلط بآخر الضباب الذي بدأ ينقشع. وحين تجاوزته أخرجت برأسي من النافذة وتابعت حركة جذعه البطيئة إلى أمام وإلى خلف! يا إلهي للتو كنت أتحرك هكذا.. أهذا هو إيقاع اقتراب الجسد من الموت؟ آهٍ يده لم تزل تشير إلى الأفق. إلى مكان ما كان يراه تلك اللحظة وظهره للمجزرة!

الشمس هزمت الضباب وحلّ الصباح علينا ونحن في أقصى طرف الهزيمة نرحل على عجل ولكن إلى أين؟ ضاقت بنا الأرض وطافت فوقنا مجدداً، طائرتان التمعت أجنحتهما بتأثير الشمس

الجديد الطريّة. نبهت سائق العجلة إلى ضرورة التوقف والترجل من العجلة. انتشرنا مجموعات صغيرة بين طيّات الأرض وعشبها الأخضر الندي ّاحتضن أجسادنا واستقبل هلعنا ببرودته. وقفت عند ربوة ترابية فيما ابتعد عنّي الآخرون، وذهبوا إلى العمق على عجل. وشاهدت كيف نزلت أربعة صواريخ تماماً على تجمّعاتنا الصغيرة. تلك اللحظة لا أدري كيف توجهت بالعتاب إلى روح أمي - التي جاءت إليّ في المنام قبل يومين، وأخبرتني بأنني سأعود إلى بيتي سالماً - سألتها: كيف يا أمي تقولين بسلامتي وهذا الموت يهبط إليّ بأزيزه النافر وبأجنحته المفتوحة إلى أقصاها؟ وتابعت الصواريخ حتى مسافة قريبة قبل أن تفترق إلى إتجاهين، إثنان بكل اتجاه لتصيبا أربع عجلات توقفت على الطريق وتناثرت الشظايا وظلّت عجلتنا بين حريقين، بين نارين نتأملها وهي مسمّرة على الطريق وكأنها تنادينا: هيّا فالرحلة طويلة. ومن نثار ما تبقى من مجموعات الجنود، بدأت صيحات تتعالى، هستيريا لمشاهد تتضمن حركات مثل الإرتفاع إلى فوق ثم الإرتماء على الأرض. عناق بين إثنين ثم يفترقان وكل واحد يغطي وجهه بكفيه! بدأت العجلات بالتوقف والجنود بين رواح ومجيء. قفزات متبادلة وعناق وبكاء. تحاملت على بقاياي المتشظية وأثناء مسيري أحسست بعجزي عن الحركة، أحسست أن ظهري قد انكسر! وعرفت حدود التوصيف لتلك الكلمة وكيف تُقال لمن تقع عليه نائبة من النوائب. نعم انكسر ظهري.. انكسر ظهر بلادي.. انكسر ظهري.. حين وصلت إلى تلك المجموعات عرفت أن الثامنة صباحاً - أي بعد دقيقتين من الآن - ستكون موعداً لوقف إطلاق النار!!... كيف إذن سمحوا لأنفسهم بقتلنا قبل خمس دقائق لا غير.. خمس دقائق كانت تفصل فتياناً كثيرين عن الحياة؟ قذفت بنفسي على طرف داخلي من ساقية جافة، لا كانت رطبة! ورحت أبحث عن علبة الدخان. أخرجت سيجارة داعبتها بين أصابعي واستنشقت دخانها بعمق وبالكاد أمسكت بها وأصابعي ترتجف..

امتلكت زمام نفسي وقذفت بجسدي والآخرون في العجلة، التي نشطت بنا وراحت تجتاز الطريق وخلفنا كنا نترك الحرائق ونثار إخوتنا فيما رحنا جميعاً نبكي في نحيب جماعي.. نائحون في صباح مجنون وذاهبون نحو مداخل مدن الجنوب الصغيرة التي خرج أهلها يتساءلون عبر مشهدنا الخاطف عن كل الذي جرى. عن إبن، عن شقيق، عن زوج، عنّا أيضاً.. نسوة كثيرات نثرن التراب على رؤوسهن وأُخريات يضربن بالكف على الصدور.. نعم. هو يوم التراب على الرؤوس وشقّ الصدور.. بل هو تاريخ إستعادي لمذابح جرت هنا دائماً.. - راديو ترانزستور، يحمله أحد الجنود يلتقط إذاعة بغداد وهي تذيع أغنية تقول: «كل شيء يهون طالما أنت سالم»!! طبعاً، لا شيء يهم.. المدن التي دخلتها تشير إلى غربة ووقائع مرّة وتشير إلى هزيمة معلنة هذه المرة. في المدخل المؤدي إلى مدينة (واسط) استقبلنا صبيّ بإشارة النصر ولكنه تعمّد وضعها بالشكل المعاكس فأصبحت (٧) بفتحة تتجه إلى أسفل (٨)!! نعم أيها الصبي لك الحق في كل ذلك.. طين هزيمتنا هو ما نحمله إليك. ولك

أن تبحث عن طريق يبدأ من هنا من حيث انتهينا إلى فوضى هذه العودة الدموية..

عند منعطف لشارع الحي الشعبي الذي تسكنه زوجتي في دار أهلها، استدارت بي العجلة. واقتربت من الدار وانفتح الباب ليظهر إبني بملامح ترابية مفزوعة..آه يا ولدي..آه يا قلبي..آه يا بلادي المحزونة..آه جسدك الغض المفزوع، آه يا حضنك الطري، النسوة يخرجن إلي تباعاً بالعويل والعناق، تعالي إذن أيتها الحبيبة وخذي جسدي المخضّب وروحي المفتتة إلى ما تبقى من قدرتنا على الخروج دونما خجل إلى صباحات تالية..



تصوير: ارڤين شينكلباخ
(مهرجان الشعر العالمي - «مشكنوت شأنانيم» - القدس - 1995)

طه محمد علي

سيرة ذاتية

* طه محمد علي وُلد في قرية صفورية عام 1931، وهو يقيم الآن في مدينة الناصرة.

* نشر ثلاث مجموعات شعرية:

1) «القصيدة الرابعة وعشر قصائد أخرى» - 1983 - إصدار «الصوت»، الناصرة.

2) «ضحك على ذقون القتلة» - 1989 - حيفا.

3) «حريق في مقبرة الدير» - 1992 - إصدار «مركز إحياء التراث العربي» في الطيبة.

4 قصائد

طه محمد علي

جداء جميل.. جارنا في صفورية

جميل ـ
إبن عمة والدي ـ
جارُنا بصفورية..
تزوج ثلاثَ زوجات
لم يرزق منهن
لا بابن يحمل إسمَه
ولا بابنة تُحيي مواتَ القلبْ

* * *

جميل إبن عمة والدي
جارُنا بصفورية..
عنزتُه الشامية الشقراءُ
واسعةُ العينين طويلةُ الشعر

ولدت له
ولزوجاته الثلاث
بعد عودته من الحج بيومين
ستةَ جداء توائم، لينّة
حريرٌ أنفاسها
يذكّر بطفولةِ الكون.

* * *

جداءُ جميل
مخلوقاتٌ ليست من هذا العالمْ!
جداء جميل وزوجاته
ست عجائن فجرْ
ست نُجيمات فارّةْ
من حضانة دراري
لا يهدأ لها ظل.
يغفو الحجرُ
تنامُ الشياطين
الشهبُ والأسماكُ تنام
وجداء جميل لا تنعس.
تخلد لراحتها الرياح
وجداء جميل لا تتعبْ.
تتسوّر قوس البوابة
تعلو أكوام الحطب
تعدو على حفّة السور إلى السطح
تجري في الباحة، في الممر،
بين الرواق
وبين مخزن الغلةْ

فتذوب ألوان فرائها الزاهية
في جذَلِ حركاتها المَرِحَة.

* * *

يُجَنُ جنونُ جِداء جميل
في عَشيّات اخضرار اللوز.
ومع أوبَة قمر الحصاد
تقفز جداءُ جميلُ وزوجاته
من شبابيك جلودها؛
تتأرجح، تثبُ، ترقص ـ
في فضة نشوة الدنيا
كقناديل زنبق معلّقة
تُعابثُ أسلاكها
جِراءُ عفاريت!

* * *

الجديانُ الوافدة
أفعمت قلب جميل
وقلوب زوجاته
ببهجة نادرة.
أشاعت فرحاً متفائلاً..
فرحاً مخملياً دافئاً ـ
ملأَ البيتَ والنفوسَ
غمرَ الرواقَ والممرَ
وعطّرَ مخزنَ الغلّة.

* * *

الغبطةُ لم تكنْ وقفاً
على الزوجات الثلاثْ.

الحبورُ لم يقتصر
على الشقراء الشامية
ذات العينين الواسعتين
والقلب الذهبي.
لم يكن السرورُ مرهوناً بجميل
ابن عمة والدي
جارنا بصفورية:
"الفرحُ المتفائل"
عَمَّ الناس
شملَ البلدةَ
كنشوةِ أول الغيث!

(1996)

الخروف ذو الدم الأبيض

تُرى..
كيف ننسى
دمَ الوطن
الذي ذبحناه
في الغابة؟!
كيف ننساهُ..
وننسى خوفَهُ الأشعثَ
منّا..
على أنفسنا،
ونحن في ظلمة البئر
نستدرِجُهُ؟!

حائراً ظلّ
طول الليل
يبكينا ويُنزَف!
ساخناً كان
وأبيض..
كدموع المسرَجَة!
ودمعه..!
يا دَمْعَهُ
ما رَحِمنا دَمْعَهُ!
ما رَحِمنا الجمْرَ
في عَبْرته
ما رَحِمنا الدمعَ
في ريبته،
إذ نحن
في فناء الكهف
نستدعي الحبالَ
هامسين:
"قيّدوه!"
كيف ننساه
وننسى وَجْدَهُ؟!
وعلينا..
كيف ننسى
حُزنه الوَرْدِيّ؟!
ساهماً ظلّ
كل الليل
يرثينا ويُنزَح!

راجفاً كان
وأحمر..
مثل جرح السُنبلَة!

(1989/3/24)

(من «حريق في مقبرة الدير»)

ناقوس مرور الأربعين على تخريب قرية!

صفورية!!
ماذا تفعلين هنا
في هذا الليل المجوسي
العاكف على ذاته
عكوف القلب
على البغضاء؟!
وأين أقراطك؟!
أماشطة أنت
أم مشنقة؟!
إن كنتِ ملكة
فأين كوفيتك وعقالك..؟
وإن كنتِ راقصة
أو عين ماء
فأين جواد شرَحبيل؟!
ماذا صنعت بسيف صلاح الدين
وأين وفود الظاهر؟!
أين الجميع:
أين الظل والرمان والمشاعل

وأين الساقية..؟
أين قاسم والمعاصر والقسطل..؟
وأين أعراس عناقيد التبغ
الأشقر كالجدائل؟

* * *

الماضي يغفو بجانبي
كما يغفو الرنين
بجانب جده الجَرَسْ..!
والمرارة تتبعني
كما تتبع الصيصان
أمها الدجاجة!
والأفق..
هذا الجفن المطبق
على الرمل والدماء
ماذا تركَ لكِ
وبماذا يعدكِ؟!
ومَن هذا الذي يدنو منكِ
كلما تحفَّز النهد
خارج عروة الحرير؟!
"لو كنتُ من مازن!"
لو كنت من كلبٍ!
لو كنت من صخرٍ!
من جذع زيتونة
من شوك صبَّار
أو هدب سنبلة..!
لو أنني سُنونو

أو أمسية!
لو أنني صهيلْ..
لو كنتُ ملاذَ حلمْ
موئلاً لليأس
أو للرجاء..
لوددت أن أكونْ
فراشة تطيرْ
لأدنو من حبيبتي البعيدة
وأرسم لعينيها
على السحاب
كم أنا يباب..!!

(1988/8/30)

(من «ضحك على ذقون القتلة»)

شَرخٌ في الجُمجُمة

حينَ تُوفّيَ مُدرّب المدرسة
سكَّرَت البلَد..
ترهّلَت أثداءُ النّساء
ونامَ النّاسُ منَ العصرِ
مِن شدّةِ الحُزنِ.

* * *

أحضَروا لهُ الطّبيبَ
فاهتمَّ كثيراً بالبطنِ والدّماغ.
جفّفَ الدمَّ عن ياقَته
وأخذَ من جيُوبِهِ عيّنَاتٍ رماديّة

وزّعَها على أفرادِ الأسرةِ
كما يوزّعُ الكعكَ،
أيامَ الخميس.

* * *

رثاهُ رجلٌ
ذو حاجبينِ
ومروحَةٍ
يعملُ ضابطَ إيقاعٍ.
قالَ فيه كلاماً
نزّلَ السّنونو من سابعِ سماءٍ
وجمّدَ الدّواءَ
في الحُلوق.
ذكرَ أهمّ أسبابِ الوفاةِ:
شرخٌ في النّقوشِ البيزنطيّةِ
التي تُغطّي جدارَ الجُمجمَةِ
أورامٌ في الجُملةِ اللاتينيّةِ
اليُمنَى.
تعَبٌ، جوعٌ، وتشرُّدٌ،
ديونٌ، وتعاطي مُهلكاتٍ.
صاحبُ المقبرَةِ
نفسُه،
تذكّرَ الموتَ.
بصقَ على الدنيا
وقدّمَ الجدثَ مجّاناً.
أغميَ على كبيرِ الحُرّاسِ.
لا شيءَ كالفاجعَةِ

يُعيدُ خدمَ المقابرِ
إلى لُغة الأمرْ
أخذَ المَسكينُ
يَشهقُ بالأرمنيّة
"سأحميكَ!!
سأحميكَ.. يا ابن أمة اللهِ
منَ القاق
والضّباعِ المُرقَّطَة."

* * *

نَقَشوا على قبرِه مواضيعَ إنشاءٍ
نقلوها من أصقاعَ نائيةٍ
على عربات خيلٍ
منعوا التجوّلَ
وطافوا به البراري والمُستنقعات
كي يحفظَهُ الرّبُ
عن ظهرِ قلبْ!

(1971/8/1)

(من «القصيدة الرابعة، وعشر قصائد أخرى»)

خضر محجز

سيرة ذاتية

* شاعر من قطاع غزة/ معسكر جباليا.
* من مواليد عام 1952.
* تفتحت موهبته الشعرية من خلال المعاناة داخل سجون الإحتلال. فقد سُجن عدة مرّات لمدد تتراوح ما بين أربع إلى خمس سنوات. وصدر بحقه قرار إبعاد إبان حكومة «الليكود» عام 1992، فمكث في السجن في انتظار الإبعاد حتى تمّ إلغاء القرار بعد مجيء حكومة «العمل» في أواخر عام 1992. وبعد إلغاء قرار الإبعاد تمّ تحويله إلى الإعتقال الإداري حيث سُجن في معتقلات «كتسيعوت» بعض الشهور، وقبل الإفراج عنه تمّ إبعاده إلى «مرج الزهور» في الجنوب اللبناني حيث كتب هناك مجموعة من القصائد نُشرت في الصحف والمجلات اللبنانية والسورية، وأطلق هناك عليه لقب «شاعر المبعدين».
* صدر له ديوانه الأول بعنوان «الإنفجار» عام 1993 عن «إتحاد الكتّاب الفلسطينيين».
* يعد الآن لإصدار ديوانه الثاني.
* له رواية مخطوطة يقوم الآن بتنقيحها تمهيداً لإعدادها للطبع.

4 قصائد

خضر محجز

قصيدة لم تكتمل بعد

حيفا تلملم ما تبقّى من ضفائرها، وترحل في قطار الليل غربا.
والموج كف عن الحنين إلى السواحلْ.
والكرمل المشدوه صامتْ.
والبحر مات من التطلّع للمدى..
لا صوت ينشد "عائدون" ولا صدى..
ولكم جزعت، وكم هلعت، وما جرؤت بأن يطال بكايَ يافا.
هي ذي تنام على الرصيف بعلبة الكرتون، والعبسيُّ عنترةُ بن شدادٍ
يراقب شاربيه، وما استجد من النظام العالميِّ، لكي يواصل/
فتح الحصون المغلقات بقلب أرض الرومِ، يسأل سادن الأرواح:
هل تريد جداول الأنوار في أثداء عبلة، سيدي؟
ـ لا، بل أريد توالد الأشياء في الأرحام قبل نضوجها، وعظام هانيبال،
غيم الأفق، حلم اليومِ، همس المخدع الليليِّ، كل ثمار يثرب، ملعب الفرسان
في ساحات بابلْ،

وأريد طلّ البرّ، أحجار البحار، زروع دجلة، والمخارج، والمحاور،
والمداخل.
ـ ما لي إذن؟
ـ لك غيمة في قلب روما..
وأنا المقاتل، يا إلهي!
صمصامتي انكسرت، ونام الدهر عن حلمي، وكل حدود قلبي تضمحلُّ..
فآه يا قلبي، اختنقتُ، ولا أحدُ/
إلاّ ويخشى من رياح قصيدتي.
وتعملقت حولي احتكارات الحقيقة، كلها حفرت أخاديد الجحيم، تقسّم الأرواح
في ساديّة، تتلو بيانات العذاب: فهؤلاء إلى الجحيم، وهؤلاء إلى
الجحيم، ولا نعيم إلى الأبد.
أسرقتَ ختم الله يا ابن الله.. كيف، ولا وكيل، ولا ولدْ؟!
أتدور كل دوائر الأفلاك في ساحاتها، وتقول وحدك ـ دون خلق الله ـ: لا؟!
صدّقتَ أمك، أنك المشحون بالسر المقدّس،
لتموت وحدك باحتقانات المسدس.
"لبثْ قليلاً" فالفصول تعيد ترتيب الطبيعة مرةً أخرى، وينتصر الصليب
على احتدامات الجسد.
من قال إن البحر باقٍ في مواقعه هنا؟!
من كان يعلم أن عجل الأرض يقذف أرضنا عن قرنه، ويبول فوق جبالها، كي
يحدث الطوفان في هذا البلد؟!
"ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فرداً"
فنشرت أشرعتي، وودعت القبائل كلها، وبصقت في وجه المراحل.
كل المراحل أينعت في جلدي البنيّ، في عينيّ، في شعري "المخربش"، في
تلافيف الدماغ، وفي دمي.
حتى دمي يحتاج للتكرير والتطوير.. عصر العلم يصفع كل شيء في أغانيَّ
القديمة، يزرع نجمة زرقاء في قلبي، ويسرق كل شيءٍ في فمي.

والبحر أزرقُ، والموانىء كلها زرقاء، والألق المعتق أزرقٌ، والأوكسجين محاصرٌ في الشاحنات الزرق أزرقُ، والفراتُ. النيل أزرقُ، لون عينيّ الحقيقة أزرقٌ، والدمُ أزرقُ في عروق الآخرين على المعابر: "فادخلوها آمنين" وشاهدين على انتماء دمي لغير أبي وأمي.

(1995/4/8)

أصالة

جدّنا الزيرُ سالمُ ما زال حياً، يمارس شهواته باقتدار:
فهو يدعو قبيلتنا دائماً للقتال، يقول:
(كُتبَ القتل والإنتحار عليكم)..
يطمئن إلى طاعة الجند، قبل الرجوع سريعاً إلى الدفء.
آه، لو كنت أملكُ بعض الشجاعة،
لطرحت اقتراحاً بريئاً:
(سيدي، هل تبادلني؟).

(1995/6)

رماد الأغنية

عصر كل خميس:
ينهض الشهداء من الأضرحة.
يبدأون الغناء:
(من رماد الأغنية،
يولد الليل البهيم:
وحصاد الأمنية،
موت عشق مستقيم).

عصر كل خميس،
ينهض الشهداء من الأضرحة،
يشعلون قناديلهم، في محاولة للرجوع،
لكنّ الحارسُ المتقلّد في عنقه مسبحة،
يغلق الباب.. يشتم آباءهم.. ويسبّ الإله،
فيعودون للأغنية:
(النهار المندحر،
يفضح الصاعد منّا.
والظلام المنتصر،
يطرد الحارس عنّا).
في ليالي الخميس،
ينهض الشهداء من الأضرحة،
يصعدون السماء..

(1995/8/19)

ممن سنأخذ روح الحرير

(إلى: ع.ع. الذي يراودني عن عقلي)

ألم يحتضر فيك شوق الوقوف قبالة تلك المرايا الصفيقة؟!
تغيب طويلاً،
تعود قليلاً،
وها أنت ترجع مثل اكتحال الحقيقة/
ببحر تجشأ أصدافه خيمةً خيمةً، تحت أقدام هذا الفضاء القريب،
إذن، فليكن ما يكون، فطعم زيوت المحار تغيّرَ،
شكل ابن آوى تغيّرَ،
والسنديان بأرض القلوب تغيّرَ..

ممن سنأخذ روح الحرير، أمن (رسبوتين) الذي ما تغيرّ؟!..
إذن، فليكن ما يكونُ،
فثمة صيف سيفضح لحماً ترهّل مثل ثريّ الحروبْ.
لعلمكَ،
زهر البدايات مات بأيدي الغريبْ.
قرأتُ على قبره: (كلما دخلتْ أمة لعنتْ أختها).

(1995/8/27)

السرُّ في التكوين

منى السعودي

نسيتُ سقوطَ الضوء على الجسد،
اذكرني يا ربّ،
نسيتُ الربَّ
تعالي يا إلهة النسيان،
ازرعيني بذرةً في الأرض
لتستمرَّ ولاداتي،
وها هو الموتُ يقف على طرف الأفق
يمدُّ ذراعيه كالشهوةِ
بين السماوات الموحشة.

* * *

نسيتُ الفرحَ
هل أحدٌ يطرقُ البابَ
قبل أن يلملمني ليلُ الفناء،

* * *

حين تكونُ وحيداً مثلي
مجبولاً بالحلم والنبوءات
لا تلمس جسدي
إصعد في روحي
لأعرفَ وجهك وجهاتك
لأنّك من أحببتُ وناديت..

* * *

السرُّ في التكوين،
فاصنع وعاءً في الفراغ
واكتب بنار التحولاتْ
ولا تلملم رمادكَ
اتركه للريح تأخذه في سفر
فهو من جسد الروح
وفيه نبض عودتك.

* * *

إهدأ وافتحْ عينيكَ
لتسكر بنور الدهشة
والموتُ يقف على طرف الأفق
قبل أن يدخل في الأجنة والخلايا..

* * *

يحقُّ للأرض أمّنا، أن تهتزّ وتتشقّق
أن تكون سريراً للدمار

يحقُّ للريح أن تقتلع الأشجار والكائنات
أن تقتحم النوافذ والأبواب في الليل أو في النهار

يحقُّ للغيم أن يحملَ الصواعق
للطبيعة أن تمارس العنف..
ولكن أنت أيُّها الإنسان،
لا تطلق رصاصةً واحدةً في الفضاء.

(عمّان / الأردن)

---

* **منى السعودي: نحاتة وفنانة تشكيلية أردنية، ولدت في عمّان 1945. درست في باريس. وعاشت طويلاً في بيروت.**

الخفيــات

أبو بكر زمّال

«ولزمتُ الصمتُ حتّى نسيتُ الكلام»
«الإشارات الإلهية»
- التوحيدي -

(إلى بهية..)

(1)

على سرير الآية طفلان
من دمعة اليُتم يبكيان
خطوة العجوز بلا معنى، وعنكبوت تتراءى في نوبة الكلام
ينتهي المصلون من الصّلاة الوسطى..
ويمضون
ويفتح المسجدُ عنبره للملائكة..
ويدخلون
فراشة - لا أراها - تخطف تسابيحهم من كُمّ السماء،
تجلسُ قُبالة لغتي، تُنزّه غزلان المخيّلة في بهو
عبقري الحسّان.. ويحلو لي أن أطيع الموت لأملأ
يدي بالهواء../

(2)

لا أتنكّر لجسدي
عطر يسافر في الخطيئة تآخت لتوّها بالهمس، وشقت قلب
الوردة نصفين..
والإشارات تطوف احتفالاً بالقادم وحدَه من هول ما رأيت
ورأيت هكذا:
- وجهَ أبي زمن أفلت من عباءة الفقيه، كان شغوفا
بوجه أمّي. ربّما لأنها أمّي أعطت لوجهي هذه السّحنة
وهذه الأغنية..
صباح الخير وجه أمّي:
تكبر الثمرة في موقف يخلع جِلدَ متنه، ويستلقي على كرسيّ
الأفق..
أعرف كيف ظلّت ضفيرتك تعقد لطفولتي لُعبة الذئب،
وهم الشهود الذين جاءوا أباهم عشاءً يبكون.. أولئك
الذين أدركهم الجذب.. إخوتي، يا أمّي
هاتي قميصي الليلة
سأخرج إلى الغيب..
نسوة ظمأى لعطشي ولا ماء،
غير إنّي
ستكون الأبجدية بيننا عرساً أو..
خلوتي../

(3)

هل ترسم النهاية خطوطاً لليدِ التي تقطر أحلاماً؟../

(4)
لو كان لله أن يبدأني في التراب؟
بصري عارف
ولغتي حجاب، كانت ما ارتدته هذا المدى و
هذا الحرير،
كيف أطفئ الشموع؟
أنا ما وجدت غير عصافيرَ على هيئة الحكمة تمرح
بتاج البهلول
هل تشبهني العصافير؟..
لكنني لا أسأل:
ـ هل شاخ الإنتظار؟
ـ ما هذا العذاب الصديق؟
ـ ولماذا يلبسني الجسد؟../

(5)
لم يعد سوى ربما أقرّب لساني بين نهديك يديك ترحل
في زفير الفصول إلى أوّل النطفة الهشّة. وللشهوة أن
تهب داخل الوثن. رأس يحرس أيّامه، لولا البهجةُ التي
تورّخ للنحاة، لآخر الخطباء ساحباً خطبَ ربّه من فم
المدن،
شعري سفسطه../

(6)
هذا الذي رآنا

وأعطانا فاكهة ـ ماء، كان أجرى في النّاي
قليلاً من النّعاس..
هو نفسه خضب خجلَ البحر بالبخور.. وتبخّر
ثمّ
ها هو في عواصمه يشاءُ على مهل:
وجاءته الشمسُ عروساً.
في ساقيها خلخال تماهى بالحياء
جلّ مسكها فائضاً بالبهاء.. قال:
ـ مرحباً بفتنتك، بوسعك أن تتدفقي في الهفوات
ما كان منكِ غيرُ الدّهشة والرّخام..
والحزنُ يبدأَ
يوشم على فخذي الرمّل نحلةً تتغطى بلحاف من لهب..
أيْ أنت:
أترى النّارَ بستاناً
والأزهارَ الجمرات؟
وكيف تمسح الغيومُ نوافذَ السماوات؟
(من يجلس أمام سيد عبد القادر، ويسلب نعمة النّوم من
عيون المئذنة التي أنشدَت على ضريحه نشيد الكرامات؟)../

(7)
دلّني حبيبي
ضاقت خيمتي وطريقي هجرة تفيض..
لم يُسكرني الذهول.
أين منّي الرؤى حين ـ شاخصاً ـ أقرأ وِرداً ولا يشفيني
نبيذ العارفين؟

مدائحي تلهو بالطين وفي ثوبها المختوم بالشوق ثلاثون
طيراً. ساقُها ساقُ بلقيس حافيةً تسيرُ نحو القوارير
وتلاشت باكية..
فتعاليّ إلى الحضرة
ثمّة الطّيباتُ..
ضوءٌ يغتسل فخوراً بجناحيه..
ملاك أبيضُ يهيئ مائدةً هلامية تتثاءبُ كلّما حكّ
أطرافها بلهيب الجنة، ولديه ما يكفينا من زادٍ للحلول..
تعالي..
نعاين مرقدنا المُسترخيَ في بضع كلمات
تعالي..
خُذي من روحي شمعةً سلّها ذات يوم بلبلٌ كسا خطوة
الجرح بالسّحاب وأحاط السّدرة بالغناء..
ولمّا أسلمها
وتلّ رقائق نورها، أجهشت بالبكاء../

(8)

يا ويلتي
أأبصرتني أجوب وادي المعنى
أجد ريحَه وقد مهّدت العبارة../
(متصوف يخلس خلسة من الخلاسية فناءه
مستوحشاً للشفاء أيقظ روحه، في البدء
روّعته لشدة بياضها، ولكنه ما لبث أن
عاد إلى ورعه، فدعوات أمّه الصديقة
تمثلت في وجده كالفتوح تؤوب ولا تعود)..

(9)

بلى..
أستطيع ـ الآن ـ أن أُمسك بظلّي
وأفجّره بالثلج،
وهذا النهار بدوي يتسوّل ويحسن نسج المسالك
ويتشرّد،
لم ينتظرني.
طوّى قماطه وأخرج من جيبه طِلّسماً كان أكثر سحراً حينما
عجن عناصره بمسحوق الحنّاء وتفرّد../
من أنا؟
ما زلتُ مشدوداً إلى قلبي
ما من ألم إلاّ ويتوّجني أميراً،
من أنا لأسأل؟
ومن أعطاني شكل السّوسنة؟../

(10)

كان عليّ ألاّ أقرأ الكتاب
وكان يلزمني الزبَد..
شيّعتني الحرقة
وأنفاس بهيّة..
قد أكون آخرَ من يعدّ ما استطاع من التيه للوافدين
من الشطحات..
فاعبري كلّ أبوابي:
باب ـ يُفضي إلى زنقة الداخل المقطوف من نواوير الياقوت
باب ـ من صلصال القرمز المنبثق في ترانيم الخلوات

باب ـ تهبّ من جوانبه الأنسامُ الصادحةُ بالصلوات
باب ـ عند تاريخه المحفوظ بعناية الآلهة نامت المدحات
هنا أضعُ الفوضى.
وشغاف الفضة في نعليك،
وأختار ليديك نجمتين رخوتين
والعطرُ شاهد
ـ فأعبُري قبل البكاءِ أو
فردّي عليَّ الفضاء ـ../

(11)

جلس مولاي الجنون على ركبتي، لم يجد ما يوزّعه
غيرَ هذر القتيل لأكونَ القتيلَ، بالصدفة عزمَ على
كبدي أكلتْ منه الطير، وعندما غدوتُ مطلقاً تحلقتْ
على رأسي واتخذتَه محفلاً.. (وأنا هنا، أسميه مولاي الجنون
خوفاً عليه من جنوني)..
بضعةُ مشايخ يلوذون بأحوال هود
تقاسموا شيبَ أخواتِها، وظلّوا ينامون!!../

(12)

يا أنا الواقف،
دمي رذاذات، تويجات نبوية..
فكيف ـ إذن ـ يخذلني سالفُها، فيما أعرف في مساءٍ آخر؟
كيف تُلقي نَردها فوق مهدي؟
كيف ينهض فستانُها بين أصابعي؟

كيف سلوت بين العابرين في ورقتي؟
كيف جاءت، ولم ترحلْ في قوسها؟

إيه يا أنا
سأَمسحُ الرّيح بمناديلي
ويكون لكلّي هذا النصّ:
قدماه تمائمُ و
جسدهُ الزجاج../

(ليلة 18 إبريل ـ 1995)
(الجزائر)

* المؤلف شاعر جزائري.

جروح محفورة حتى العظم

نصيّف الناصري

(إلى هارون محمد)

نامي، نامي يا نموري الصغيرة، أيتها المتوحشة يا أحزاني،
الليل برموشه الطويلة التي تنسدل على آلامي، ليل حياتي التعيسة
ينزلني برفق إلى الأعماق القديمة، والسماء الغاصة بأسراب الحشرات
والمطموسة بالعويل، أجراسها الصدئة تترنح مهدمة فوق رأسي،
نامي، نامي يا نموري الصغيرة
فوق الأعمدة، وفي الميادين
فوق الأشجار المتوحشة العارية، وعلى الأبراج
ترفرف مدفوعة صوب الماضي، رغباتي المنكمشة.

* * *

ما الذي سأفعله بمستقبل ميت، أنا الذي عشت حياتي كلها
في مستنقع من الجحيمات؟
تعلقت الظلمة في جبيني
تعلقت الصحراء
تعلقت العناكب والطحالب،
العالم هاوية

وعيناي معصوبتان برماد حاضر ميت
على أية سنبلة أتكىء؟ أية شمس تعينني على النهوض؟
حاضري رماد
وماضيّ عدم
لي من الذكرى ثمة جروح محفورة حتى العظم
لو أردت النوم يكبّلني قصف مدافع، وتقودني هلوسات الحروب
إلى جو من الجحيمات، أسمع حشرجات موتي، وتفيض أمواج العذابات
إرتفاعاً يناسب إغراقي،
لماذا يداي متخشبتان كحاضري؟
لماذا أبصق القصائد وأعاين مشهد خرابي؟
أصوات الموت المزمجرة لا تزال تصبغ عشب النهار
لا قناديل لي ولا ثلج
لا فضة ولا ربيع
لي هذه الساعات المهشمة والعاطلة التي لا تضيئها الشمس طوال العام.

* * *

عندما أمرُّ ببغداد، قادماً من الجنوب، في طريقي إلى الشمال
أعجز عن رؤية "نصب الحرية" و"تمثال السعدون".

* * *

العزلة، العزلة
آه، أيتها العزلة
مسوّدةٌ أنتِ مثل شجرة مسيّجة
أرضك شجية وشفيفة
وجرائمك المشمسة تشع على لياليّ
مرة ترفعني من الهاوية
ومرة أخرى تأخذني إلى أرض قبور غريبة
ومرة أخرى تغرقني في مياه ساعات ميتة

ومرة أخرى تدلني على سجون وكهوف مليئة بالتثاؤب
ومرة أخرى تلفني كجثة محطمة،
جرانمك الثقيلة الحمولة والمرفوعة فوق عشب حياتي
تسطع في ليل العظم،
في صدأ الأسلحة المتروكة
في مرايا الأمل الذي يقوسه طيران البوم
في الحب المرفوع فوق الإنهدامات
في جوع الطيور والأشجار المضمدة المجنونة.

* * *

هذه السماء الخشنة التي أرقبها الآن، تحتضر وتتعثر في أنفاسي
تتعثر الغيوم والأدراج،
الموت الذي غفل عني عندما غشي عينيه النعاس ما يزال مخيفاً
ملقى بإهمال فوق صدري كأرنب جريح،
آه، يا موتاً يرافقني مثل ظلي ويلتصق بي مثل زنير يعري فراغ الظلام،
لا صيف عندي لأفتح أبوابه من أجل الأبدية،
بحاضر شرس يتهاوى إلى الوراء، أرقب إنهداماتكم
وأرى الخرائب التي لن تروها،
هنا ـ على شواطىء نهر دجلة
في المدينة التي بناها المنصور، أرقب صعود الصحراء صوب
الجنائن العالية وأتساءل: ماذا يعني أن تتعرى الأشجار من لغاتها؟
أهو الزمن يغوص في أذرع العناكب؟

* * *

الآن ـ تطير أمامي الغربان الجائعة في سماء المدينة
وتطير معها أحلامي
أحلام فقيرة سود
أحلام صُفر

أحلام خُضر
أحلام زُرق
أحلام بنفسجية،
مرة رأيت في الحلم، طفولتي المهدمة تنهض من أنقاضها
وتصافح الفراشات التي آوتها يوماً.

* * *

طلبت عشبة
فوجدت مسماراً
طلبت شمساً
فوجدت ثلجاً
طلبت نجمة
فوجدت مقبرة
طلبت ثدياً
فوجدت شوكاً
طلبت يداً
فوجدت مدية.

* * *

أصدقائي الذين ماتوا عام 1987
بينهم شعراء وعشّاق ومجانين
ماتوا في الهجوم الايراني على "بحيرة الأسماك"
من أجل مياه لا مرئية
زهور وشموس تلفح وجوههم اللطيفة
جدائلهم الخضر ابتلعها ليل الهاوية،
أصدقائي الموتى
يأتون في أحلامي ويعرضون عليّ جروحهم العميقة
قائلين: ـ "إنها عميقة" وكأني لا أملك في حياتي جروحاً عميقة،

أصدقائي الموتى أنا وهم باب في المياه
يمرّ من خلاله ليل الأبدية.

* * *

هنا ـ يلعب الملائكة الأيتام مع الكلاب البيض في منعطفات الشوارع
هنا ـ الدبابات المزمجرات يتحدثن عن أحزانهن
وفي آخر الطريق يقف الشاعر شاحباً، وقدمه على رقبة
مستقبل ميت،
هنا ـ كل شيء ميت، ولا يوقظ أية سنبلة
مرآة الشمس العميقة مثلومة
والهواء عويل
هنا ـ كل شيء ميت ما عدا القمر الذي يتشظى مثل صحن صيني.

* * *

أريد الآن أن أخوض في عراك وحشي لأصعد من هذا الرماد
الذي تزينه بقع الدم ـ الدم العفن
لا أريد أن أعيش وسط هؤلاء الذين يعيشون ببلادة
ويتألمون بلا جروح
لماذا يعانون من عبودية بلا ظلام؟
لماذا يعيشون في قلعة بلا جدران؟
لا يخجلون من دناءاتهم
يضحكون على أنفسهم ويكذبون على أطفالهم
تاركين تلك الآثار العميقة الباقية في أجساد الفقراء
"الذين تنازلوا عن جلودهم
لمدافع الهاون
وعظامهم للترميد".

* * *

ما الذي أخشاه وأنا جزء من الهاوية؟

ماضيّ الذي يدمع في طرقاتي الآن، لن أرفع له راية.

* * *

ذهبية حقول الطفولة

أراها، والشمس، شمسها يدي

مرئية طفولتي

كواكبها ساطعة ترفّ

حديقتان إلهيتان تركضان في صدرها،

آه، يا طفولتي، من أجل أعيادك وقرابينك التي ترتفع مسلوبة

من سلطتك الشيطانية على خرابي المظلم

هل تأويني سماؤك الهشة؟

مبتهج بخرابي إذا فجرك أضاء جبيني

أنا ابن ماضٍ لا مبارك

تعثرت بشدةٍ فوق الجبال حتى تخلصت من عناد موتي.

* * *

كنتِ نرجساً، نرجساً أبيض مشعاً، ونسمة وفضة ووردة

حمراء في زند النهار، كنت نبعاً، يحضنك عطش الأرض،

أرجوحة كوكبية، نورساً، مدينة، كنت الحلي السلطانية

المرتعشة بين أصابعي، كنّا نستطيع أن نحلّق

لكن لم يبق وشم أو ظل قيلولة

لماذا انطفأت رغوة الصيف مثل وشيعة فقيرة؟

كأن لم تكن هناك يد حانية

كأنما ضروع نهر "الغرّاف" كانت مجرد سراب.

* * *

إرفعيني إليك أيتها النيران العالية

ضميني إليك أيتها الحرارات الأشدّ حناناً من الذهب العميق

إظفري آلامي أيتها النيران الخصيبة، بين الليل وبين الملح

حدقي صوبي يا غيوم الحروب
أيتها اللافحة والمختفية
كرماد حياتي
إرفعيني من العزلة
العزلة
العزلة.

* * *

إيه، الشتاءات التي تفسخت في زمهريرها بعيداً عن البيت
ما تزال تهب على أحلامي،
شمسي قتيلة
ومعصيتي مطفأة،
زادي الشظايا
وخمرتي، دموع أصدقائي الموتى.

---

* **المؤلف شاعر عراقي يقيم في الأردن.**

قصائد

سعد سرحان

محاكمة

وقد ضبطناك
للمرة الألف
متلبسةً بالبَوار
ماذا نفعل أيتها الأرض؟

ماذا نفعل أيتها الأرض
وقد ضبطناك
متلبسةً بالعطش
ودماء القبائل؟

أنت، أيتها الأرض، إمتحان عدالتنا:
فهل نرجمك بالحدائق
حتى يُغمى عليك
أم نترك أحلامك عُرضةً للجراد.

(94/5/14)

صدوع

أحتاج أن أملي
هذا العالمَ الغفير
على مسامع العميان.

أحتاج وسادة مزعجة
غير التي تناولني أحلاما
سرعان ما تتحقق.

أحتاج بعض حديقة
لصبار روحي.

أحتاج دمعة فصيحة
تقنع البحر بحزني

أحتاج حصتي من الكرز كاملة.
...
...
...
ولا أحتاج الرصاص أبداً.

(94/11/26)

أثاث

نحن الذين اجترحنا الحدائق

أما الغابات فموجودة منذ اليابسة،

نحن الذين صممنا أحواضها،

نحن الذين اصطفينا من الشجر
ما يليق بالأعشاش
ووشوشات العشّاق

نحن الذين شذبنا أفياءها
بعد أن بايعنا الماءَ ماءً،

الأصص التي هناك
نحن الذين اقترحناها
على الشتلات المنذورة للعزلة،

...
...

شجيرة الكرز
تلك الوحيدة
أنا الذي ارتكبتها
ذات
نزيف.

(95/1/15)

أشـجار

نكذب على الأشجار:
نأتي الشجرة بأدواتنا الحديد،
أبواباً، دفئاً للشتاء
ستصيرين أيتها الشجرة
دولاباً للملابس.. والأسرار
أسرّةً للإنجاب
أرجوحةً..
غير أن أشجاراً كثيرة
تنتهي إلى بنادق
إلى قوارب للصيد
وإلى أقفاص
...
الثمار المُرّة إدانةٌ.

(مراكش/ المغرب)

يوم عيد ميلاد الزعيم

(إلى ع.ع.)

حسونة المصباحي

اندلقت عليه حرارة النهار الصيفي الطالع مثل سطل ماء ساخن، فاستيقظ مرضوض الجسد كما لو أنه ضُرب بالسياط طول الليل.. زعيق أطفاله الخمسة يختلط بشكاوى زوجته، وبالأغاني الوطنية المنبعثة من الراديو، وبضجيج الحيّ الناهض من سبات الليل الخانق الثقيل.. عليه أن يفرّ حينا.. المكوث في البيت أيام العطل أشق عليه من السير حافياً على الأشواك، أو من قطع صحراء من دون قطرة ماء واحدة.. لذا هو حريص منذ فترة طويلة، وتحديداً منذ أن وضعت زوجته الإبن الثالث، أن يغادر البيت في أول النهار، وأن لايعود إليه إلاّ في ساعة متأخرة من الليل. أي عندما يصبح واثقاً، تمام الوثوق، أن زوجته تعبت حتى لم تعد قادرة على تحريك لسانها، وأن الأولاد غرقوا في نوم عميق عقب هرج يوم كامل.. وطبعاً هو لا يحتار البتة في العثور على الأعذار اللازمة لتغيّبه.. وإذا ما لاحظ أن أعذاره ليست مقنعة بما فيه الكفاية، أخذ في الصياح والعياط مثل مجنون إلى أن تنهار زوجته من الرعب وتفقد كل قدرة على الإحتجاج أو المقاومة..

إنتبه إلى أن الشهوة أصابته، فمدّ يده وراح يداعب جسمه بهدوء ومتعة.. ما شاء الله! ..خمس وأربعون سنة.. خمسة أولاد.. عشرون عاماً من العمل المضني في معمل للكبريت.. إفراط في تناول الكحول خصوصاً أيام العطل.. متاعب تهدّ الجبال.. ومع ذلك هو لا يزال يتمتع بفحولة شاب في العشرين! ولو جربّوا وأتوه الآن.. الآن.. بخمس فتيات عذراوات لقام «بواجبهن» في أقل من ساعة.. ما شاء الله! لكن لا بد أن يعترف أن هذه الفحولة الخارقة سرعان ما تخبو لما يفكر في مضاجعة زوجته، ويصبح ذابلاً، مرتخياً مثل فأر جائع في قبو بارد. وقد حاول، أكثر من مرة، أن يفعل ذلك، غير أن محاولاته باءت جميعها بفشل ذريع.. وربما لهذا السبب تفاقمت الخلافات بينه وبينها، ولم يعد أي منهما يطيق الآخر. كلمة واحدة تفلت منه أو منها كافية أحياناً لكي يتحوّل البيت إلى جحيم لا يُطاق.. وعلى أية حال هو ليس مذنباً بالمرة.. المذنب الحقيقي هو زوجته التي أصبحت مثل قربة

خاوية، رغم أنها تصغره بعشر سنوات.. لا صدر.. لا أرداف.. لا شيء غير جسد كئيب مثل خشبة محروقة.. وفوق ذلك هي دائمة التجهّم والصراخ.. ولا مرة استقبلته بإبتسامة، أو بكلمة حلوة، أو برائحة طيبة.. كما هو الحال أيام زمان.. أيام كانا عروسين جديدين فرحين بالحياة، ومنتشيين بالحب.. كل شيء يمضي إلى نهايته.. ذلك قانون الوجود.. لكن يبدو، بالفعل، أن النساء يترهّلن ويشخنّ بسرعة.. أما الرجال فبإمكانهم أن يحتفظوا ببيضات حديدية حتى وهم في سن متقدمة.. وهو يتذكر جيداً أن أباه مثلاً أنجب وهو في الخامسة والستين.. أما الشيخ عبد العزيز، عمّ والدته، رحمها الله، فقد كان في الخامسة والسبعين حين ولد إبنه الأخير الذي قتل برصاصة في الرأس في إنتفاضة الخبز التي حدثت قبل عامين.. إ.. إنتفاضة الخبز! لقد مرّ عليها بالفعل عامان وثمانية أشهر بالضبط.. وكان يمكن أن يقتل فيها هو أيضاً.. غير أن الأعمار بيد الله كما يقولون.. وحتى هذه الساعة هو لا يدري كيف أخطأه الجنود الذين حاصروهم أمام مبنى إتحاد النقابات وشرعوا يطلقون الرصاص مثل مجانين في جميع الإتجاهات.. وكان إبن الشيخ عبد العزيز إلى جانبه حين أصيب.. وقد رآه يتخبّط في دمه غير أنه لم يستطع أن يفعل له شيئاً.. ولما جرى هارباً من هول ما رأى، شاهد صديقه الحميم حسن الذي اعتاد أن يرافقه إلى البار يومياً عقب انتهاء العمل، ملقى على الأرض، والدم يتدفّق منه بغزارة.. ظل يجري ويجري.. وهو لا يدري كيف استطاع أن يصل إلى بيته بعد ذلك..

صرخ المذيع: «اليوم يحتفل الشعب بمرور ثمانين عاماً على ميلاد قائده العظيم.. قائده الذي حقّق له الحرية، والكرامة والمناعة.. قائده الذي..» ..صدمه الصوت الغليظ مثلما يصدمه جدار في الظلام، فقفز من الفراش ورأسه يدور.. الأعياد الوطنية أصبحت شبيهة بالمآتم.. وهو لا يستطيع أن يقاوم الوحشة التي تجلبها له، والغيظ الذي تشيعه في نفسه إلاّ بالإنزواء في بار، والشراب بنهم حتى هبوط الليل..

إغتسل على عجل.. شرب القهوة التي أعدتها له زوجته في جرعتين، ثم اندفع نحو الباب..

- إلى أين؟ ولولت زوجته.

- إلى الجحيم وبئس المصير! ردّ هو.. ثم ركض لكي يدرك الباص المتوجه إلى «باب البحر» بقلب العاصمة..

* * *

مشى في الشارع الطويل تحت الشمس التي كانت شبيهة بنصال مصوبة إلى رأسه.. أعلام وهتافات وقصائد عصماء وأناشيد وأغانٍ وطنية ومدائح وأذكار وطبول ومزامير وزغاريد والزعيم بلغ الثمانين فجر هذا اليوم.. والبلاد من أقصاها إلى أدناها تهتف واقفة: «تعيش! تعيش! تعيش! يا حبيبنا! يا أبانا! يا قائدنا! يا منقذنا!» والزعيم يسبح في البحر الأبيض المتوسط حتى يثبت لـ

«شعبي الكريم» أنه لا يزال في صحة جيدة، وأن الشائعات التي يروّجها أعداء الوطن كاذبة، ومغرضة، مغرضة! محروساً بالرشاشات والمدافع والرادارات، يسبح الزعيم ليثبت للأصدقاء والأعداء على حد السواء أنه لا يزال محتفظاً بحيوية شاب في الثلاثين. والتلفزيون الوطني حريص على نقل هذا الحدث الكبير في بداية كل النشرات الإخبارية. والكاميرات تركّز على حركات الزعيم وهو يخترق مياه البحر الأبيض المتوسط بخفة بطل العالم في السباحة. والوزراء والمستشارون بالجبانب البيض والنظارات السوداء يهزّون رؤوسهم، ويضحكون سعداء. سعداء جداً.. جداً! يا لهذا الشباب! يا لهذه الفحولة! يا لهذه القوة سيدي الرئيس! وعلى أية حال، ليس هذا بالأمر الغريب، فالعراف البربري العجوز قال لأمه قبل ولادته بقليل أن الله سوف يهب الصبي الذي في بطنها قوة تحيّر العالم بأسره. وها قد ثبت ما كان قد تنبأ به ذلك العرّاف البربري العجوز الذي كان عليه أن يسير أسبوعاً كاملاً قبل أن يبلغ القرية البحرية، مطلع يوم صيفي قائظ. والذين شاهدوه داخلاً إلى القرية، رووا في ما بعد أن ذلك الغريب بدا لهم، بوجهه الطويل النحاسي اللون، وقشابيته الداكنة، المكسوّة بالغبار، وساقيه الخشنتين الحافيتين، شبيهاً ببطل خرافة صحراوية. ودون أن يسأل أحداً، أو يلتفت يميناً أو شمالاً، تابع الغريب سيره بخطى ثابتة حتى بيت الشيخ علي. والصبية الذين كانوا يلعبون قريباً من هناك، حسبوه جنيّاً، ففروا هاربين. وطرق هو الباب ثلاث مرات. ولما فتحوا له، صاح بصوت أجش: «أين فطومة؟».. وجاءت فطومة التي كانت حاملاً في شهرها الثامن على مهل. وحالما وقع بصرها على الغريب شهقت مذهولة ذلك أنها رأت في حلمها قبل ليلتين طيفاً له ملامح الغريب العجوز. وكان ذلك الطيف يهمس لها بصوت حنون: «لا تخافي.. سوف تصلين بسلامة.. وسوف يكون للإبن الذي في بطنك شأن عظيم!».

سألها الغريب العجوز: «هل أنت فطومة حقاً؟».

حركّت رأسها بالإيجاب. وعندئذ خاطبها قائلاً: «لقد قطعت الصحراء وجئتك لأن ملاكاً في المنام قال لي إن الله سوف يهبك صبياً جميلاً بعينين زرقاوين يحيّر العالم بقوته ونبوغته وشجاعته، وينقذ البلاد من شر الغزاة الكفرة!».. نعم هذا بالضبط ما قاله ذلك العرّاف البربري العجوز.. وكانت فطومة تريد أن تكرمه الإكرام اللائق بضيوف النبي، غير أن العراف البربري العجوز اكتفى بقربة ماء، وبشيء من الخبز والزيتون، ثم اختفى من جديد مثلما تختفي أطياف أحلام الليل.. أما بحارة القرية فقد رووا أنهم، وهم يهيئون مراكبهم فجر ذلك اليوم، شاهدوا نوراً عجيباً كنور ليلة القدر فوق بيت الشيخ علي.. وكانوا لا يزالون يتجادلون في أمر ذلك النور لما أطلقت النسوة زغاريد الفرح والبشرى، وجاءهم خبر يقول أن فطومة أنجبت طفلاً جميلاً، أزرق العينين- تماماً كما وصفه العرّاف البربري قبل شهر من ميلاده..

صحيح أن مثل هذه الحكايات العجيبة التي تُروى عن ميلاد الزعيم لم تعد تعني شيئاً بالنسبة

إليه.. بل هو على يقين تام منذ زمن بعيد جداً أنها كاذبة، ومضحكة، وسخيفة حدّ القرف والغثيان.. ومع ذلك يجد نفسه عاجزاً عن إنتزاعها من ذاكرته. وها هي راسبة هناك، دائماً وأبداً، كما لو أنها كتلة من الأوساخ المنفرة التي تأبى أن تزول.. منذ أن أصبح يعي العالم من حوله، وهو لا ينام ولا يستيقظ إلاّ عليها حتى أنه حفظها عن ظهر قلب، وبات عارفاً بأدق تفاصيلها وجزيئاتها.. اللعنة! حتى الذاكرة صادروها، ولم تعد صالحة إلاّ لهم..

دخل بار «الزنوج».. نفس الوجوه تقريباً.. محمود «الروج» الذي كان عتّالاً في الميناء الكبير، ثم انقطع عن ذلك بعد أن تجاوز الستين، وساءت صحته، وتهدمت كل أسنانه تقريباً.. وقد لُقّب بـ «الروج»[1] لإدمانه على النبيذ الأحمر منذ سنوات الشباب. ومنذ ما يزيد عن العشرين عاماً، وهو يحلم بأن يربح الملايين من خلال أوراق اليانصيب التي يواظب على إقتنائها كل أسبوع. ودائماً يقول لهم: «إسمعوا.. إذا ما أنا ربحت، فسوف أدعوكم للشراب على حسابي لمدة ثلاثة أيام كاملة.. ليس في بار حقير كهذا، وإنما في أرقى فندق على الشاطىء...». وبالرغم من أنه أب لسبعة أولاد، تزوج أكبرهم قبل ما يزيد على الثلاثة أعوام، ورزق صبياً وبنتاً، فإن محمود «الروج» لا يزال يحتفظ بصورة إمرأة مالطية يقول إنها عشقته أيام كان ملاكماً مشهوراً، وشاباً جذاباً «تتساقط عليه النساء الجميلات مثل الذباب» كما يزعم هو. وحين يتعتعه السكر، يخرج الصورة، ويطبع عليها قبلات حارة، ثم يعيدها إلى مكانها المعتاد داخل حافظته البنية اللون، وعيناه مغرورقتان بالدموع. على يمين محمود «الروج»، ساعي البريد صالح الملقّب بـ «الفرتتو»[2] لأنه خفيف الحركة، سريع التنقّل مثل فراش. وبالرغم من أن الطبيب حذّره، أكثر من مرة، من مغبّة مواصلة الشراب والتدخين بنفس النهم الذي تميّز به أيام الشباب.. إلى جانبه.. الساق على الساق، يجلس مفتاح، المرح دائماً، وصاحب النكات الطريفة، والتعليقات اللاذعة، والذي لا يكاد واحد يعرف عنه شيئاً سوى أنه يختفي بين الحين والحين، لأسبوعين أو ثلاثة، يعود بعدها ميسور الحال، ويعزمهم جميعاً على كأس أو كأسين. وربما لهذا السبب يخمن البعض أنه قد يكون مهرباً، أو مروجاً للسلع المحظورة. بينه وبين محمود «الروج»، يجلس عادل الفتى العاق، الطويل، النحيل الغائر العينين، والذي أهدر الثروة التي تركتها له أمه في ظرف عامين.. بعدها لم يعد يفعل شيئاً غير الشراب والنوم ومتابعة أخبار المغنين والمغنيات.. وكان هناك آخرون يعرفهم بالنظر فقط، منشغلين بقراءة الجرائد. وعلى الكونتوار، قرب المدخل، كهل متغضّن الملامح، يتطلع إلى الشارع بحزن وقلق، كما لو أنه في انتظار مرور جنازة قريب له..

حيّا، ثم جلس في ركن قصيّ..

- ماذا.. أأنت تقاطعنا؟! قال مفتاح بنبرة إستنكار واضحة..

- لا.. أبداً.. أنا متعكّر المزاج هذا الصباح.. وأحب أن أبقى وحيداً بعض الوقت..

- هذا لا يعقل يا مبروك.. أنت صديق قديم.. وما يشغلك يشغلنا.. وبعد كل هذا.. أنت تعلم جيداً أن الكأس لا تحلو إلاّ بحضورك!ـ قال محمود «الروج»..

- أشكركم.. لكن دعوني أشرب الأولى والثانية لوحدي.. بعدها أعدكم أنني سوف ألتحق بكم..

- كما تشاء.. نحن في إنتظارك على أحرّ من الجمر.. قال مفتاح.

جاءه الجرسون ببيرة.. لمسها فوجدها باردة جداً.. آ.. هذا أروع شيء يفتتح به الإنسان صباح يوم قائظ وثقيل كهذا.. ملأ الكأس.. ظلّ يتأمل الزبد إلى أن استوى ثم رفع كأسه وصاح:

- على صحتكم جميعاً!

- على صحتك! ردّ الآخرون بصوت واحد..

شرب نصف كأسه في جرعة واحدة.. ثم أشعل سيجارة وراح يتطلّع إلى الشارع حيث يمر جمع من الشبّان مرتدين أزياء بلون العلم الوطني، ورافعين لافتة ضخمة كُتب عليها بالخط الأحمر الغليظ: «عمر مديد للزعيم الأوحد!».. والزعيم الأوحد يسبح في البحر المتوسط مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد رغم بلوغه الثمانين حتى يموت الأعداء والطامعون في كرسي الحكم غيرةً ويأساً، ويقتنع «شعبي الكريم» أنه لا يزال قادراً على تسيير شؤون البلاد بمفرده لسنوات طويلة أخرى.. وربما إلى الأبد.. والوزراء والمستشارون يركزون في خطبهم وتصريحاتهم على موضوع واحد: صحة الزعيم.. ويقولون دائماً إن «صحة الزعيم» هي ثروة البلاد الأساسية.. لذا يجب الحفاظ عليها حفاظنا على بؤبؤ العين.. نعم.. نعم.. تماماً مثلما نحافظ على بؤبؤ العين.. ويحرك «شعبي الكريم»، بكبيره وصغيره، بغنيه وفقيره، بنسائه ورجاله، رأسه موافقاً على ذلك. أما الزعيم فيبارك من كل قلبه هذا الإهتمام وهذه المحبة لأنه يضع مسألة صحته فوق كل شيء. فبدون صحة سيادته، تشلّ البلاد، وتتعطل الحركة، وتنفق الناس والدواب جوعاً، وتتساقط الطيور ريشاً على الأرض، وتحترق غابات الزيتون، وييبس البرتقال، ويعقم النخيل.. وربما يعود الغزاة الكفرة لينهبوا خيرات البلاد من جديد.. وقبل عيد العمال بأسابيع، شاع خبر يقول أن الزعيم «أبقاه الله ذخراً للوطن!» سوف يعلن عن زيادة هامة في الأجور بهدف «التخفيف من معاناة شعبي الكريم».. وفي اليوم الموعود، تكدّس الشعب بأسره أمام التلفزيونات والراديوهات. وما أن حلّ الزعيم قاعة «الشعب»، محفوفاً بوزرائه وكبار مستشاريه، حتى اهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها بالهتاف الحار: يعيش الزعيم! يعيش! يعيش! أما أولئك الذين كانوا متلهفين أكثر من غيرهم على الزيادة في الأجور، فقد هتفوا: بالروح! بالدم! نفديك يا زعيمنا الأوحد! يا حبيبنا! يا أبانا! وردّ الزعيم على هتافات «شعبي الكريم» بابتسامة ملائكية ركّزت عليها الكاميرات طويلاً طويلاً حتى استقرّت إلى الأبد في الذاكرة الجماعية. ولما تنحنح معبراً عن رغبته في الشروع في إلقاء خطابه التاريخي المنتظر، خشعت البلاد من أقصاها إلى أدناها، وساد الصمت حتى أصبح بالإمكان سماع إبرة تسقط على الأرض..

«شعبي الكريم!».. هكذا استهل الزعيم خطابه كعادته دائماً. وفي الحين ذابت القلوب حباً وإخلاصاً له.. ولهجت الألسن بالدعاء له بالصحة والعافية وطول العمر.. وبعد أن عبّر عن تقديره واعتزازه بـ «العمال بالساعد والفكر»، وعن سعادته بحضور «عيدهم المجيد» راح الزعيم يستعرض، كعادته في جميع المناسبات الوطنية الكبيرة، بعض ذكريات الشباب أيام كان يدرس الحقوق في جامعة «السوربون». وقال إنه كان في ذلك الوقت يقطع راجلاً كل يوم تقريباً، المسافة الفاصلة بين الحي الجامعي العالي في «بولفار جوردان»، وساحة «السوربون» ليضع باقة زهور على تمثال معلّمه الروحي «أوجست كونت» الذي علمه أن «العقل هو المرشد الوحيد للحقيقة» وأن «شرط النهوض بالأمم هو أن يكون العقل فوق كل شيء». وحرك الوزراء والمستشارون و«شعبي الكريم» رؤوسهم موافقين.. نعم لا بد من العقل.. ولو لم تكتشف أنت ذلك، أيها الزعيم الفذ، لكنّا لا زلنا نعيش حتى هذه الساعة في المغاور والكهوف، نقتات من لحم بعضنا مثل الوحوش.. يا للمعلم العظيم هذا الـ «أوجست كونت».. إننا مستعدون الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، أن نجتاز البحر، ونذهب حتى ساحة «السوربون» لنضع باقة زهور على تمثاله حتى تتأكد مرة أخرى، أيها الزعيم الحبيب، يا من أخرجتنا من الظلمات إلى النور، أننا أوفياء لك ولمن أنت لهم وفيٌّ.. ثم غاص الزعيم في ذكريات الكفاح الوطني كما هي عادته في مثل هذه المناسبات، متوقفاً بالخصوص عند المحيطات الباردة. ولم يفته أن يقص، للمرة الألف، تفاصيل رحلته الشاقة الخطرة التي قطع خلالها الصحراء الكبرى متنكراً في زي راعٍ بدوي للتعريف بقضية الوطن في بلاد مصر والسند والهند وأندونيسيا وجزر الواق واق.. أوف.. يا للهول!! كم تعذّب الزعيم! وكم قاسى من المحن والويلات! يعيش الزعيم! يعيش! يعيش! من حقه، إذن، بعد كل هذه التضحيات الجسيمة التي تكبدها من أجلنا ومن أجل وطننا، أن يعيد على مسامعنا، ملايين المرات، قصص مغامراته، وآلامه، ومحنه، وصبره.. نعم.. من حقه.. ومن واجبنا نحن أن ننصت جيّداً لكل كلمة ينطق بها حتى نحفظ حياته عن ظهر قلب، ونمحو من صدورنا جميع الإشاعات الخبيثة المغرضة التي يروّجها البعض والتي تشكك في صحة ما يقول الزعيم.. ثم إن الجيل الجديد طلع فاسداً لا يعرف من تاريخ البلاد شيئاً يُذكر.. وهو يطيل شعره، ويلبس السراويل الضيقة، وينتعل الأحذية العالية الكعاب.. ويتزيّن مثل النساء الفاسدات.. لذا لا بد من الإعادة حتى يعرف هذا الجيل العاق كل شيء عن الزعيم الذي لولاه لما كان أصلاً.. إذن أعد أيها الزعيم البار.. أعد.. أعد.. إن كلامك ينزل علينا برداً وسلاماً.. وينعشنا، ويطهّرنا، ويضيء لنا الطريق.. فجأة ينخرط الزعيم في البكاء من شدة التأثر، فيبكي وزراؤه ومستشاروه و«شعبي الكريم» بأسره، حتى تتبلل البلاد بجبالها وسهولها وصحاريها بدموعهم المتهاطلة تهاطل المطر بعد انحباس طويل.. يستمرّ الأمر على هذا الحال عدة دقائق، ثم يكفهر وجه الزعيم، وتربدّ ملامحه، وتقسو نظراته، فترتعد فرائص الوزراء والمستشارين، ويحني «شعبي الكريم» هامته كما لو أنه يخشى

ضربة على الدماغ.. يظلّ الزعيم صامتاً لحين، ثم يصرخ:

- أتعلمون ما كنتم قبل أربعين عاماً؟!

- حفنة من غبار كنّا أيها الزعيم الحبيب! يجيب الجميع، وقد احمرت خدودهم مثل تلاميذ صغار يفلحون في الإجابة عن سؤال صعب..

- نعم.. كنتم حقاً حفنة من غبار.. وأنا الذي جعلت منكم شعباً حياً وأمّة واقفة على قدميها.. يعيش الزعيم! يعيش! يعيش! نحن سمعنا هذا مرات ومرات، لكن لا بأس أن تكرره علينا حتى لا تتعب ذاكرتنا، فننسى فضائلك، ونتغافل عن واجباتنا نحوك، ونكفر بالنعمة التي أنعمت بها على هذه البلاد.. يهدأ الزعيم وتنبسط أساريره فترتاح النفوس، ويسترخي الوزراء والمستشارون في جلساتهم، وتشرئب أعناق «شعبي الكريم» إستعداداً لسماع الخبر السعيد الذي انتظره على أحرٍّ من الجمر عدّة أسابيع.. وفي بار «الزنوج» طلب الموظفون الأربعة في وزارة الفلاحة زجاجة نبيذ، وتهيأوا لضرب كؤوسهم إستبشاراً بما سوف يعلن عنه الزعيم في ختام خطابه التاريخي. وقال مسعود، السائق في شركة النقل العمومي، لزوجته أنه سوف يشتري لها، آخر الشهر، الفستان الذي تبتغيه لحضور زفاف أختها الصغرى. ووضعت حلّومة، أم الخمس بنات، يدها على فمها تأهباً لإطلاق زغرودة تهزّ الحي بأسره. وقرر المعلم فرحات أن يشتري دراجة لإبنه في عيد ميلاده. وملأت العجوز أم الزين منخريها بالسعوط، ثم التفتت إلى أولادها الأربعة الذين يعملون في مناجم الفسفات وقالت لهم أنه لا يوجد في الدنيا كلها، زعيم يحب شعبه مثل «زعيمنا».. غير أن الزعيم، الذي يحب اللعب مثل الأطفال، عاد يتصفح، من جديد، سجل التاريخ الحافل بالبطولات والمآثر.

لا بأس أيها الزعيم الحبيب.. نحن بسببك أصبحنا الشعب الأكثر صبراً في العالم بأسره.. لذا كن واثقاً أنه بإمكاننا أن نظل ننصت لك أياماً وليالي، بل أشهراً وسنين دون أي ملل أو تأفف.. وراح الزعيم يستعرض بعض الذكريات عن طفولته الصعبة القاسية، وعن إخوته الستة الذين كانوا يغارون منه لأنه كان «أذكاهم وأشطرهم». ولمّا وصل إلى أمه، ارتفعت الأصوات بالدعاء لها بالرحمة والغفران في «دنيا البقاء».. أي فطومة العزيزة.. يا سيدة النساء جميعاً.. لا تحسبي أننا نسيناك في خضم هذا التاريخ العجيب الذي يشيب له رأس الوليد.. بل تأكدي أنك في حبة القلب، وأننا سوف نظلّ أوفياء لذكراك.. أنت التي أنجبت هذا الزعيم الفحل الذي أبهر العالم بنبوغه وحكمته وشجاعته وفصاحته.. فجأة أشرق وجه الزعيم كما تشرق الشمس عقب عاصفة هوجاء.. ولمعت عيناه الزرقاوان ببريق الفرح والسعادة.. وعندئذ اغتبط الوزراء والمستشارون حتى أن قلوبهم راحت تزقزق مثل الطيور على شجرة الربيع الخضراء.. أما «شعبي الكريم» فقد وضع يده على قلبه في انتظار الإعلان عن النبأ السعيد.. أخرج الزعيم منديلاً.. مسح العرق المتصبب من جبينه بغزارة..

حدّق ملياً في القاعة حتى تجمدت تماماً.. تنحنح ثم قال: «أما الخبر السعيد الذي أرغب في أن أزفه إليكم في ختام خطابي...» وقبل أن يكمل كلامه ارتجّت البلاد بالتصفيق والهتاف حتى تعبت الأكف، وبحّت الحناجر.. إنه خبر سعيد بالفعل، بل أروع بشرى تبشرنا بها في هذا العام أيها الزعيم الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً.. وحالما تنطق به، سوف نحملك على الأعناق حتى قصرك المواجه للبحر.. بل حتى إلى ساحة «السوربون» إن أنت أردت أن تضع باقة زهور على تمثال معلمك الروحي «أوجست كونت».. نعم.. نحن على إستعداد أن نفعل كل شيء للفوز برضاك، وعفوك، وحنانك ومحبتك.. مرة أخرى أشار لهم الزعيم أن إصمتوا فصمتوا.. تنحنح هو ثانية ثم قال: «وكما أعلمتكم منذ حين.. الخبر السعيد الذي أرغب في أن أزفّه لكم هو أن الأطباء أكدوا لي أمس فقط أن صحتي على أحسن ما يُرام.. وما دامت صحتي جيدة فإن البلاد بخير وأنتم كذلك.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...»..

في الزاوية التي على يمينه رجل أربعيني يحدق فيه بإصرار وفضول حتى لكأنه يودّ الدخول إلى دماغه ليتعرف على ما يدور فيه من أفكار وخواطر. أكيد إنه بخير.. ثمة في ملامحه ونظراته ما يثبت ذلك بشكل قاطع.. وعلى أية حال لم يعد هذا أمراً مفاجئاً أو غريباً ذلك أن عدد المخبرين في هذه البلاد أصبح يعادل نصف عدد الشعب، بل ربما يزيد عليه، حتى أنه يتراءى له أحياناً أن كل من حوله مخبرون.. ماسحو الأحذية.. باعة الجرائد.. نادلو المقاهي.. سائقو التاكسيات.. القحاب.. المتسولون.. حتى الأصدقاء الأقرب إلى القلب أصبح من الصعب إئتمانهم.. وهناك قصص كثيرة تُروى عن أناس ذاقوا الأمرّين بسبب زلة لسان أمام أعز أصدقائهم.. وذلك الجار المسكين كان يلعب الورق في مقهى الحي مع جمع من الأصحاب.. ولما شاهد الزعيم على شاشة التلفزيون يوسّم بعض المناضلين القدماء، قال: «أوه.. يا جماعة.. ما كنت أتصور أن الزعيم شاخ إلى هذا الحد!».. فقط هذا ما قال. ولم يكن في نبرة صوته ما يمكن أن يوحي أنه كان يرغب أن يحمّل كلامه معنى آخر غير المعنى الذي تدل عليه تلك الجملة المختصرة الواضحة.. الواضحة إلى درجة أنها لا تتحمل أي تأويل مهما كانت ضآلته.. وكان عائداً إلى بيته حين أوقفه رجال الشرطة: «تعال معنا أيها الوغد!». صاحوا فيه، ثم رموه في السيارة السوداء، وحملوه إلى دائرة الأمن. وهناك تحلقوا حوله وسألوه:

- ماذا قلت هذا النهار وأنت تلعب الورق؟

- لم أقل شيئاً.. وحياتكم لم أقل شيئاً!

- عليك أن تعترف.. وإلاّ فإن العقاب سوف يكون قاسياً جداً جداً!..

- بماذا أعترف أيها السادة.. والله العظيم.. ورأس زعيمنا المحبوب لم أتفوّه بأية كلمة مؤذية!

- لا تأتِ بإسم الزعيم على لسانك أيها الوغد.. وأجب على ما سألناك عليه.. فقط لا غير!

صدّقوني.. أيها السادة.. أنا بريء.. والله العظيم بريء.. والجميع في الحي يعرفون أنني مواطن

صالح.. وأني منخرط في الحزب.. وهذه بطاقتي التي اقتنيتها قبل أسبوع فقط.. وفي بيتي أعلق صورة ضخمة للزعيم.. وإذا ما بنيّتكم التثبت من ذلك فتعالوا معي إلى البيت!

- يبدو أنك لا تريد أن تفهم! قالوا، ثم هووا عليه بالهراوات الحديدية إلى أن أُغمي عليه.. وحالما استيقظ، أحاطوا به من جديد..

- هل تذكرت الآن ما قلت؟

- والله أيها السادة.. ما نطقت بمنكر طول النهار!

- من مصلحتك أن تعترف وإلاّ فإنك سوف تندم كثيراً!

- وبماذا تريدون أن أعترف؟

- بالحقيقة لا غير!

- لقد قلت لكم الحقيقة كاملة!

- يبدو أنك لا تريد أن تفهم! قالوا.. ثم فعلوا ما فعلوه به في المرة الأولى.. وعندما فتح عينيه، طوّقوه وهو غاطس في الدم وصاحوا به:

- ستموت مثل الكلب تحت العصا إذا لم تعترف!

- والله أنا بريء أيها السادة.. وأحب الزعيم كما لا يحبه أحد في الدنيا كلها!

- طيّب.. إذا ما أنت تحبه حقاً، فذكّرنا بما قلت لما شاهدته على شاشة التلفزيون يوسّم بعض المناضلين القدماء..

- آ.. هذا، أسهل من شربة ماء.. أيها السادة.. لقد قلت: «أوه يا جماعة.. لم أكن أدري أن يكون الزعيم قد شاخ إلى هذا الحد!».. هل ثمة عيب في كلام كهذا؟

- أتسألنا نحن؟

- نعم..

- وتبغي منّا جواباً في الحين؟

- نعم..

- حسناً.. قالوا.. ثم رموه في زنزانة لمدة شهرين كاملين. وعند خروجه من هناك، قالوا له:

إذا ما أنت كررت فعلتك الشنعاء، وحاولت أن تشكك في شباب الزعيم وصحته مرة أخرى، فإن العقاب سوف يكون أقسى وأمرّ ألف مرة ومرة.. أفهمت؟!..

- لقد وعدتنا يا مبروك أنك سوف تلتحق بنا بعد البيرة الثانية - وها أنت في الخامسة - ومع ذلك لا زلت مصراً على البقاء بعيداً عنا! قال محمود «الروج» مستاءً إلى حد ما..

- المعذرة.. لكن ثقوا أني سوف أكون رهن إشارتكم بعد حين..

- خذ وقتك.. لكن لا تحرمنا من شرب كأس معك! قال صالح «الفرتتو».. أكمل هو كأس البيرة، ثم

ملأه من جديد وعاد يتطلع إلى الشارع حيث كانت تمر فرقة موسيقية تعزف أناشيد وطنية، تتقدمها فتاة سمراء جميلة ترفع صورة ضخمة للزعيم.. ممنوع منعاً باتاً التشكيك في شباب الزعيم، ذلك أنه عاش طويلاً حتى أصبح الماضي والحاضر والمستقبل. ولأنه مثل غول الخرافات، التهم كل أولئك الذين تقاسموا معه آلام السجون والمنافي في سنوات الكفاح الوطني، وقسماً كبيراً من أولئك الذين رضعوا أفكاره وتوجيهاته مع حليب أمهاتهم في بداية الإستقلال، فإن «شعبي الكريم» بات يعتقد أن الموت لن يجرؤ على الإقتراب منه أبداً.. أبداً!! وهكذا أصبح يهتف ليل نهار: نموت! نموت! ويحيا الزعيم! وكلما هتف بذلك، استعاد الزعيم شبابه، ونضارته، وحيويته، وحبه للذائذ الحياة. وعندما شرع في بناء مقبرة خاصة به، جلب لها أفضل المعماريين في پاريس وروما، همس له العراف البربري ذات يوم ربيعي رائق، معطّر بروائح الفل والياسمين: «إسمع.. إذا ما فرغوا من بناء المقبرة فسوف تموت حيناً!». ورجف الزعيم، وساء مزاجه، فانزوى في غرفة نومه مهموماً حزيناً. وطول الليل، ظلّ ساهراً أمام البحر. وفي الصباح نادى المعماريين وأمرهم أن يهدموا حينا ما كانوا قد بنوه بالأمس. ولأجيال وأجيال، ظلّ المعماريون يهدمون اليوم ما كانوا قد بنوه بالأمس.. وظلت المقبرة الخاصة مجرد رسم بياني على الورق.. ثم نصح المستشارون الزعيم أن يعيّن خليفة له لأن الزمان «غدّار ومتقلب، ولا يمكن لأحد أن يكون في مأمن من مخاطره وعواقبه». وأطاعهم الزعيم بعد لأي، ثم عيّن خليفة له يصغره بأربعين عاماً، وراح يكيل له المدائح تلو المدائح، منوهاً بنباهته وحزمه وصدقه إلى أن أضحى «شعبي الكريم» يعتقد أن الخليفة نسخة مطابقة للأصل. غير أن العراف تسلل ذات ليلة إلى القصر الجمهوري في غفلة من الرادارات والحرس المدججين بالسلاح، وهمس للزعيم، الذي كان قد ارتدى منامته إستعداداً للنوم عقب يوم حافل بالنشاطات والإستقبالات والتوجيهات والخطب، وهمس له بكلام شحب له وجهه، وارتعدت له فرائصه، فإذا به مرة أخرى على جمر السهاد والقلق. وما أن طلع الصباح حتى كان المستشارون قد أبعدوا من مناصبهم. والبعض منهم حوكموا بتهم مختلفة، ثم أُرسلوا فوراً إلى أقسى سجن في صحراء الجنوب. ولأن البلاد كانت في تلك الفترة، على شفا مجاعة كبرى، بسبب فشل الخطة الإقتصادية التي أقرتها الحكومة قبل خمس سنوات، فإن الزعيم وجد الفرصة سانحة لكي يضرب ضربته القاضية. وذات ليلة، أطلّ من الشاشة الصغيرة على «شعبي الكريم» ليقول له أن «الخطة الإقتصادية الفاشلة أعدت من وراء ظهري» وأنه «لا علم لي بشيء على الإطلاق!». وفي الحين هتفت البلاد من أسفلها إلى أعاليها: نموت نموت ويحيا الزعيم! أما الخليفة الشاب فقد التحق بالمستشارين في السجن بعد أن حكمت عليه محكمة أمن الدولة بـ «الأشغال الشاقة المؤبدة» لـ «مسؤوليته الكاملة في إنهيار إقتصاد البلاد!»..

وفي عهد الخليفة الثاني، انتعش إقتصاد البلاد، وترفّهت أحوال الناس، واتسع العمران، وهبط عدد المتسولين في الشوارع بصفة واضحة للعيان. ولعدة سنوات، ظلّ الزعيم يهش ويبش لخليفته

الذي اختاره عقب فترة اعتكاف استمرت ثلاثة أشهر كاملة، رافعاً إياه إلى أعلى عليين. «إنه فريد من نوعه، وليس في البلاد من يفوقه ذكاءً وخبرة ومقدرة إلاّ أنا طبعاً!» كان يقول في آخر كل خطبة من خطبه الطويلة العريضة التي تفوق مساحة البلاد مئات المرآت.. وظل يردد هذا المديح إلى أن خيّل لـ «شعبي الكريم» أن الزعيم وخليفته أصبحا يتشابهان حتى لكأنهما توأمان - ولكن صادف أن هدد العمال بالإضراب العام بسبب إرتفاع أسعار الخبز، فغضب الزعيم غضباً شديداً حتى خاف البحر. وفي الحين أمر الجيش بسحق «الخونة» و«أعداء الوطن». وهكذا تساقط الموتى بالمئات في العديد من القرى والمدن، وسيق آلاف من العمال والطلبة إلى السجون. ولمدة أشهر طويلة، ظلّت البلاد تبكي موتاها متشحة بسواد ذلك الخميس الأسود. وذات ليلة، وفي غفلة من الجميع، ظهر الزعيم على شاشة التلفزيون، وراح يبكي بمرارة حزناً على «أبنائي الذين قُتلوا ظلماً!». وفي الحال هاج «شعبي الكريم» وماج، ثم نزل إلى الشوارع مطالباً بتأديب «المجرمين الذين خانوا الزعيم والوطن». أما الخليفة الذي فاجأه الخطاب «الهام» للزعيم وهو يتناول العشاء مع أفراد أسرته في مزرعته الخاصة الكائنة على بعد مائة كيلومتر من العاصمة فقد أصيب بشلل نصفي وحمل في أول طائرة إلى أحد المستشفيات المختصة في باريس..

وعيّن الخليفة الثالث ذات ربيع قاحل تكاثرت فيه العواصف الرملية وحوادث الطرقات. وحال تنصيبه أمر بضرورة إصلاح التعليم في جميع مراحله إصلاحاً جذرياً خصوصاً بعد أن أكدت التقارير الواردة على الزعيم أن هناك «عناصر مشبوهة» تمكنت من تسريب السموم الماركسية واللينينية والمادية إلى أذهان أبناء «شعبي الكريم». وانكبّ الخليفة الثالث ومساعده على إعداد برنامج طويل المدى ينقذ الشباب من «المهاوي الخطيرة» ومن «الأفكار المدمرة»، و«يشد البلاد إلى تقاليدها وأصالتها». وعقب مرور ثلاثة أعوام على تطبيق البرنامج التعليمي الجديد، نادى الزعيم خليفته ليعلمه أمام جمع من وزرائه ومستشاريه أنه المسؤول الأول والأخير عن ظهور الأصوليين المتطرفين في البلاد. وقبل أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه، صاح فيه الزعيم وهو يرجف من الغيظ:

- إلزم بيتك وانتظر قراراتي!

وفي صبيحة اليوم التالي، شاع خبر في البلاد يقول إن الخليفة الثالث فرّ ليلاً إلى البلد المجاور متنكراً في زي بدوي.. أما الخليفة الرابع فهو الآن على قاب قوسين أو أدنى من الهاوية التي ابتلعت سابقيه..

- لقد تعبنا من الإنتظار! صاح مفتاح..

- الآن بإمكاني أن ألتحق بكم... قال هو.. ثم أخذ كأسه وبيرته وعلبة السجائر، وانتقل إلى طاولتهم..

المخبر في الزاوية لا يزال غارساً عينيه فيه مشعلاً السيجارة من أختها.. ترى هل حدس ما يدور في

خاطره؟!.. لقد جلبوا أحدث الآلات لمراقبة حركات الناس وسكناتهم.. ومن المحتمل أن يكونوا قد استوردوا أخيراً آلات جديدة لسبر ما في العقول، والكشف عمّا في الصدور.. جائز.. كل شيء جائز.. إن الزعيم لا يحتاج إلى شعب، بل إلى حرّاس مخلصين لحماية عرشه المجيد.. ولكن لماذا يُثقل دماغه بمثل هذه الأمور؟! تفو على السياسة وأهلها.. ما له وما لها؟ ثم إنه أفرط في الشراب.. تُرى كم شرب الآن؟ ثمانية بيرة! يا إلهي! وفي حرارة كهذه تذيب الحجر!! إذا لم يتخلص حيناً من هذه الأفكار المزعجة، فإن دماغه سينفجر لا محالة، وسيسيل لبناً على الأرض.. لا.. لا.. عليه أن يهدأ.. ويحاول أن يفكر في شيء آخر.. شيء جميل! ولكن هل بقي شيء جميل في هذه البلاد؟! آ.. ها هو يضع ساقه في الزبل مرة أخرى.. اللعنة.. بل ألف لعنة ولعنة! نعم.. هناك ما هو جميل في هذه البلاد رغم كل شيء.. الجارة زكية مثلاً.. لها كفل.. وصدر.. وفخذان.. ودلال.. خصوصاً حين تمشي أو تضحك.. أوه يا إلهي.. لو تدعه يقبلها.. أو يداعب صدرها.. أو يجامعها.. ولمَ لا؟!.

- ما لك شارد الذهن يا مبروك؟! منذ الصباح وحتى هذه الساعة وأنت سارح في عالم آخر.. أفق يا رجل وريّحنا! - صاح فيه صالح «الفرتتو»..

- نحن أصدقاؤك في السرّاء والضراء.. وأنت تعلم ذلك جيداً.. لذا من الأفضل أن تفتح لنا صدرك، وتعلمنا بما يشغلك عنا طول هذا الوقت.. - قال محمود «الروج»..

- لا شيء يشغلني عنكم أيها الأصدقاء الأعزاء.. لا شيء والله.. فقط الحرارة.. وأنا شربت كثيراً على ما يبدو! - رد هو..

- لا.. لا.. هذا ليس صحيحاً.. ثمة ما يشغلك عنا.. وهذا لا يمكن أن يخفى على أناس يعرفونك منذ سنوات طويلة.. مثلنا نحن! - قال صالح «الفرتتو»..

- صدقوني يا جماعة.. ليس هناك ما يشغلني عنكم.. قال هو..

- إذا ما كان هذا صحيحاً فلنشرب على نخب بعضنا بعضاً! - قال مفتاح، ثم رفع كأسه وضربها بكؤوس الآخرين.. راح هو يتأملهم الواحد بعد الآخر.. هم أيضاً بدأوا يفقدون توازنهم بسبب الإفراط في الشراب.. وها ألسنتهم مرتخية، وعيونهم محمرة، وحركاتهم واهنة، ووجوههم شاحبة متورّمة.. وكل واحد منهم يبدو كما لو أنه زاد على سنه الحقيقي بعشر سنوات أو أكثر من ذلك.. وبحكم تجربته، هو يعلم جيداً أن وضعاً كهذا يمكن أن يفضي إلى ما لا تحمد عقباه.. فقد يوقظ أحقاداً دفينة، وذكريات أليمة، ويفتح جراحاً قديمة، ويشعل عواطف نائمة تحت الرماد منذ أمد بعيد.. وأكيد أن محمود «الروج» سوف يخرج، كعادته، صورة عشيقته المالطية أو يستغرق في حديث ممل عن أيام الشباب والحب.. أما صالح «الفرتتو» فقد يصبح عدوانياً، ويخاصم الجرسون المسكين بسبب هفوة بسيطة، أو يتخانق مع مفتاح الذي يسخر منه دائماً، وضده يطلق ألذع التعليقات.. وعندئذ سوف تنقلب الكراسي والطاولات.. وتتكسر الكؤوس.. وقد يسيل الدم وتأتي الشرطة.. هل يعجل

بالخروج ويترك أهل البلاء في البلاء؟.. ولكن إلى أين؟!.. إلى الشارع حيث الحرارة القاتلة، وأفواج المتسلقين، والأكاذيب التي لا تنتهي؟! إلى البيت؟! لا.. لا.. لن يكون هذا محتملاً بالمرة.. الأفضل أن يمكث هنا وإلا فسيكون مثل ذلك الذي هرب من المطر فوقع تحت المزاريب.. ثم أنه لا يزال نهماً إلى الشراب.. فليشرب إذن.. وليكن ما يكون.. اليوم خمر وغداً أمر.. إيه يا لحلاوة هذا الكلام.. وحدهم الذين يعرفون لذة الكأس يمكنهم أن يتبيّنوا معناه العميق..

- على صحتكم أيها الأصدقاء الأعزاء! - صاح بصوت عال..

- على صحتك يا مبروك.. يا بطل! - صاحوا هم أيضاً.. ثم راحوا يقرعون كؤوسهم بكأسه وهم في زهو ومرح..

* * *

غادر بار «الزنوج» قبل ساعة الغلق بقليل.. كانت الحركة قد خفّت، غير أن الديكور الهائل للمسرحية التي عُرضت على مدى النهار بكامله، لا يزال قائماً.. مشى حتى نهاية الشارع الكبير من جهة البحر.. وهناك وقف يتأمل تمثال الزعيم المنتصب في خيلاء وسط الساحة الفسيحة، محاطاً بالأضواء الساطعة، والأعلام، واللافتات، وبجنود بدوا وكأنهم على إستعداد لإطلاق النار على كل من يحاول الإقتراب منه. ظل واقفاً يدخن، ثم فجأة إجتاحه غيظ راح يكبر ويكبر ويكبر إلى أن تحوّل إلى نار تأكله أكلاً.. وعندئذ رفع قبضته في الهواء وصاح بأعلى صوته:

- يسقط الزعيم! يسقط! يسقط!

هوى الجنود على رأسه بأعقاب بنادقهم. وظل هو يصرخ: يسقط الزعيم! يسقط! يسقط! إلى أن انهار وسط بركة من الدم..

- يبدو أنه شرب حتى لم يعد يعي ما يقول! قال رجل سمين كان يتأمل المشهد من بعيد، ثم تابع سيره وكأن شيئاً لم يحدث..

(ميونيخ - ديسمبر / كانون الأول 1995)

---

(1) روج: كلمة فرنسية تعني أحمر.

(2) فرتتو: كلمة تعني الفراش في الدارجة التونسية.

أحلام فاطمة

خليل عبد ربه

صباح الخير. أنا فاطمة. أنا مريضة. لا، أنا لست مريضة. أنا لا أدري.. هل أنا مريضة أم لا. يقولون لي أن أعصابي متعبة قليلاً، وأنني بحاجة فقط إلى قسط من الراحة، أعود بعدها كما كنت.. إنسانة طبيعية، عاقلة وسوية. الفجر يشق طريقه بتؤدة ويبدد ظلمة الليل. أجلس خلف النافذة التي أزحت ستارتها على وسعها حتى أستطيع أن أرسل بصري إلى البعيد البعيد. إلى ما خلف تلك التلال الخضراء التي تُحيط بالمستشفى الكبير المعزول عن العالم، والذي أقيم فيه منذ ربيع وصيف. عالمي هنا هو غرفتي البيضاء الواسعة. في وسطها يركن سريري، مملكة أحلامي وملاذي الآمن الدافىء. ألجأ إليه كلّما لسعتني برودة الحياة وبرد طقسها. في الزاوية اليسرى طاولة هرمة، ولكنها متينة. طلاء أبيض كثيف فعل فعله، فمحا الكثير مما أحدثته الأيام بها. فوق الطاولة صففت بترتيب زوادة روحي. جهاز تسجيل وعشرون شريطاً للأغاني، عشرة منهم لأم كلثوم وعشرة لفيروز. بيني وبين هاتين الملاكين علاقة عشق. أمضي أماسي كاملة مسافرة في رحلة بحث عن معنى الحياة مع أم كلثوم وهي تغني لعمر الخيام «لبست ثوب العيش لم أُستشر». أحياناً تعلن دموعي تمردها عليّ، وتبرم حلفاً مقدساً مع قلبي، فتنهمر ساخنة فوق وجنتي، تسري حمى الثورة في كل أنحاء جسدي، فينهض حراً طليقاً ويتراقص برهافة وخفّة الباليرينا. أغمض عيني، وتردد روحي مع أم كلثوم.. «يللي ظلمتو الحب.. العيب فيكم أو في حبايبكم.. أما الحب يا عيني عليه». إلى جانب أشرطتي الموسيقية كتاب الله.. القرآن الكريم. لم يكن كلام الله سابقاً قريباً منّي كل هذا القرب. هنا فقط توثقت العلاقة بيننا.

لم أُصلّ يوماً. لم أصم رمضان في حياتي. لم ألتزم بالفرض الذي خصت به المؤمنات دون المؤمنين.. تغطية العورة بحجاب. وهنا اكتشفت أيضاً أنه حسب تعليم ديني فكل جسدي الأنثوي عورة عدا وجهي وكفيّ. وكان واجباً عليّ أن أغطّي هذه العورة بغطاء للرأس وبرداء فضفاض سميك، ولا يكشف. ممرضتي العجوز، الطيبة الحنونة، أم أحمد، وهبتني مصحفاً صغيراً «كلما شعرت بالضيق يا ابنتي إقرأي القرآن.. توضأي وصلّي.. ستشعرين بتحسّن كبير». كانت تقول لي باستمرار. في الزاوية اليمنى خزانة للملابس. اوه.. ها ها ها ها.. ما زلت أتذكّر رد فعل المرضات عندما رأين بأي نوع من الملابس أستر جسدي. «لا يجوز يا إبنتي.. ماذا سيظنُّ بك الرجال عندما يرونك بمثل هذه الملابس.. الستر أهم شيء يا إبنتي.. ربنا يشفيك ويستر عليك». ظلّت أم أحمد تكرر هذه الكلمات على مسامعي بما يشبه الرجاء. بعد أسبوعين من دخولي المستشفى طلبت من أخي أن يشتري لي ملابس مستورة. أخي الكبير هو الحبل السري الذي ما زال يربطني بهذا العالم، وهو من وجد لي عالمي هذا الذي أعيش فيه بضعة أسابيع، أغادره بعدها وقد تجاوزت المحنة التي أعيش. عن أية محنة كان يتكلم؟ هل يعرف حقاً ما أشكو منه؟ ولكن من أين له أن يعرف؟ فأنا منذ بدأت أعي الأشياء حولي وأخي الغائب الحاضر بيننا. مبكراً ترك مقاعد الجامعة والتحق بصفوف الفدائيين. وهب نفسه للقضية كما قال مرة لأبي في شجار معه بسبب قراره. عشنا بسبب هذا الأخ مراراً لحظات من الخوف والقلق التي لا تُنسى. آه يا أمي. ما زلت أذكر نوبة الهستيريا التي أصابتك بعد أن اشتبك الجنود الأردنيون مع الفدائيين في عمان عام 1970. أخي كان هناك. أسبوع كامل لم يغمض لك جفن، ولم تقربي أي طعام. من أين لك كل هذه الدموع يا أمي؟ حينها كنت ما زلت طفلة لم تتجاوز السادسة من عمرها. وحينها لقنتني الحياة أول درس عن ما يعنيه الإحساس بالخوف من فقدان حبيب لك. عاد أخي. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. بكينا جميعاً من الفرح وبكى أخي معنا. ذُهلت لرؤية هذا الرجل يشهق كالأطفال. كان جسده يرتجف مع أننا كنّا ما زلنا نودع حر الصيف. بعد زمن، وبعد أن بدأت أعرك الحياة وتعركني هي الأخرى فهمت سر دموعه التي لم أستطع أن أنساها. أخي كان يبكي الهزيمة ورفاقه الذين فقدهم إلى الأبد. أحب أخي. مرات كثيرة أردت أن أبوح له بهذا الحب.. لكنني لم أفعل ذلك حتى الآن. اليوم حين يأتي ليخرجني من المستشفى سأقولها له. سأقول له أنني أحببته وأنني سأحبه حتى تقوم الساعة. سأقول له كم كنت أرغب في أن أريح رأسه المتعب على صدري، وأمرر أصابعي بين خصلات شعره، حينما كان يأتينا بجسد هدّه السهر وقلة الأكل والتدخين المتواصل. تعودنا بعدها لكثرة ما مرّ علينا من مصائب وأهوال.

فقدنا تدريجياً هذا الإحساس بالقلق على أخي. صار القلق رفيق دربنا الدائم. آه كم حلمت لو كانت علاقتي بأخي أكثر قرباً ودفئاً. كنت أحكي له من حين لآخر بعضاً من مكنونات ذاتي. كان يسمع

ويهز رأسه. ثم يعقب على ما قلته ببضع جمُل. بعدها كان ينظر إلى ساعته «يجب أن أذهب الآن» كان يقول لي وينهض مغادراً. الصحراء الملعونة أخذت أخي الآخر منّي. باكراً غادرنا إلى تلك البلاد التي تنضح رمالها نفطاً. أراد أن يبني مستقبله ويجد موقعه في الحياة.. هكذا قال لنا وهو يوضب كل ما يملك في حقيبة متوسطة الحجم. غاب عنّا ثلاث سنوات وعاد وعلامات النجاح الأولى بادية عليه. حكى كثيراً عن المال الذي جمعه والمال الذي سيجمعه. بحث عن زوجة ترافقه وتونّس وحدته في تلك البلاد التي تمنحك المال بسخاء وتأخذ منك مقابله الكثير الكثير. ظلّ أخي وزوجته يزوراننا كل صيف. وكل ثاني زيارة كانت زوجة أخي تأتينا وهي تحمل على ذراعها إما رضيعاً تلقمه ثديها أو طفلا تعوده على أولى مراحل الفطام. ولما رزقا طفلهما الرابع، أعلن أخي اكتمال عقد عائلته. كانت كل الأمور بالنسبة إليه تحُلّ بالمال والمال وحده. كنت إذا حكيت له عن حبي للموسيقى والكتب دسّ يده في جيب بنطاله وأخرج رزمة دسمة من أوراق النقد، وسألني كم تريدين، آه كم حلمت لو كان لي أخت شقيّة.. تجدل شعري الطويل في ضفيرتين جميلتين.. تحضنّي على ارتكاب الشقاوات وتشاركني الضحك والعبث الطفولي. كانت هناك مسافة واسعة بيني وبين أختي الوحيدة التي تكبرني بسبع سنوات. هي الأخرى راحت وتركتني. لحقت بزوجها الذي سعى وراء الرزق فلم يجده إلا في الغربة. في مراهقتها الأولى قررت أن تشعل الثورة العالمية، وأن تحرر النسوان من مجتمع الذكور المتخلّف.

أولى بشائر تمردها كان بنطال الجينز الذي فتقته ورتقته في عدّة مواضع. إرتدت معه سترات وبلوزات أمعنت بها هي الأخرى ثقباً وتشويهاً لتتناسب مع السروال المسكين. نفشت شعرها وأرسلت خُصلة في كافة الإتجاهات، فأصبح رأسها يشبه رأس الغولة الخرافية ميدوزا. آه ها ها ها.. كانت حقاً أمسية تاريخية، تلك التي قررت فيها أن تخطو بثورتها خطوة إلى الأمام. كنّا نشاهد برنامجاً تلفزيونياً كوميدياً حينما إستلت من جيبها بثقة عالية علبة سجائر. تناولت لفافة وأشعلتها وأخذت تنفث دخانها كالمحترفين. مذهولاً نظر أبي إليها. تدخنين؟ سألها. ماذا ترى؟ طبعاً أُدخن. رمت جوابها بلا مبالاة.. هجم أبي عليها ونزل بها ضرباً مبرحاً.. اندفع إلى غرفتها وأخذ يمزّق صور وملصقات فرسان أحلامها، غيفارا، ماو، لينين وروزا لوكسمبورغ. بعدها أصدر أبي أوامره. لا مدرسة بعد اليوم. لا خروج من البيت. لا مصروف جيب. تدخلّ أخي الكبير بالأمر. بكلمات مقتضبة وحاسمة صاغ إتفاقاً بين الجيلين، تعود أختي بموجبه إلى دراستها، تقلع عن التدخين. وتتوقف عن قراءة الكتب التي لا تعلم سوى الكفر وقلة الأدب، على حد وصف أبي. كانت أختي في السابعة عشرة من عمرها في عام الأزمة الكبرى هذه. وفي ذات العام أنهت دراستها الثانوية وذهبت إلى الجامعة. في أحد الأيام. وقبل أن تنهي الفصل الدراسي الأول أعلنت عزمها على الزواج. كان زوج المستقبل العتيد ثورياً فقيراً، عاطلاً عن العمل رغم شهادة الإقتصاد التي يحملها. جنّ جنون أبي.

ألغى العمل بالإتفاق المبرم بينهما. وكان على الأخ الكبير أن يتدخل مجدداً. بعد جلسة قصيرة مع ثورية العائلة كما كان يسميها أخي، خرج ليبلغ أبي بضرورة إتمام الزواج وبأسرع وقت ممكن. قبل أبي الأمر على مضض. بعد شهر من ليلة فرحها أعلنت أختي أمومتها. وبعد عدة أشهر كان على صهر العائلة الوحيد أن يأخذ زوجته الحامل ويسافر بها إلى عم له يعمل ويعيش في بلاد زعيمة الإمبريالية العالمية.. أمريكا. سافروا إلى هناك لا بحثاً عن الثورة بل عن الخبز. ثلاث زيارات وثلاث رسائل هي كل رصيد علاقتي بأختي خلال العشرين عاماً التي مضت على فراقنا. كم فرح أبي لهذه الخاتمة السعيدة لمسار أختي الثوري، وللبداية الواعدة بالخير لمستقبل عائلتها.

آه.. وكم بكى عند وداع إبنته وحفيده الذي لم يكتب له أن يراه. قاسياً كنت يا أبي، وحنوناً كنت أيضاً. آه.. أنت الآخر رحلت باكراً وتركتني. قست عليك الحياة وحرمتك البهجة والفرحة. ذاكرتي لا تختزن سوى صورة ذاك الأب الذي كان يغادر البيت قبل صياح الديكة، ويعود في المساء منهكاً لا يقوى على السير. روت لي أمي بعد رحيلك كيف أنك خسرت بضربة واحدة كل ما ملكت من تجارة وبيع ومال. كيف هجم الدائنون عليك ينهشون جسدك وروحك وأنت ما زلت حياً. جردّوك من كل ما تملك. حتى عفش بيتنا وضعوا يدهم عليه ورموك وعائلتك في العراء. لم تسأل العون من أحد. لم تشعرنا يوماً بما قاسيت وعانيت. قاسية كانت الحياة معك يا أبي. فبعد أربعة عشر عاماً من نحتك الصخر لتسدد ديونك ولتقينا شرّ الجوع والمذلّة، حرمتك الحياة من نورها في ذات العام الذي أعلنت فيه فرحاً أنك دفعت آخر فلس عليك لآخر دائنيك. مهيباً وقوراً كأبي الهول كنت إذا صمتّ. كنت كالبركان الجارف إذا غضبت. وكنت طفلاً يتفجرّ براءة إذا فرحت. وما أقل ما فرحت: أمي انكسرت تماماً بغيابك. لم تعد تلك المرأة التي تملأ الدنيا صراخاً وعياطاً بسبب وبدون سبب. تلك المرأة التي عاشت في صراعات وإخفاقات لا تنتهي، معك ومعنا ومع كل ما يحيط بها. كسرها الإحساس بالوحدة. أولادها توزعتهم الدنيا وأنت غيبّتك الحياة. إبتدعنا، أنا وأمي، طقساً خاصاً بنا لنبدد به من مجتمعنا الحريمي الصغير غيوم الحزن والكآبة والإحساس بالعزلة. صرنا نقضي كل أماسينا تقريباً سويةّ. لن تصدق ذلك يا أبي.. صرنا نذهب إلى السينما ونزور المقاهي على شاطىء البحر. اوووه.. لساعات وساعات كانت أمي تحكي وتحكي وتحكي. فقط أمر واحد كان يوقفها عن الكلام.. النعاس. روت لي تقريباً كل تفصيل في سيرة حياتها. بعض القصص رددتها على مسامعي أكثر من مرة. حكت لي عن طفولتها وشبابها في يافا. عن بيارات أبيها وأجدادها. عن الميناء الذي كان والدها أحد كبار الريّاس فيه.

حكت لي عن أول أيام اللجوء بعد النكبة في عام 1948. عن الجوع والبرد والمرض والخيمة المرتوقة الممزقة التي عاشوا فيها لأشهر. كانت تتذكر المال والجاه والعزّ الذي تركوه خلفهم وهم يظنون أنهم سيعودون إليه بعد أسابيع قليلة. تلك الأسابيع التي تحولّت إلى أشهر. وتلك الأشهر التي تحولّت

إلى سنين، وتلك السنين التي تزيد وتزيد ولا تنتهي. يا إلهي كم ضحكنا على قصة زواجها منك. كيف أنها لم تر وجهك لأول مرة إلاّ بعد أن جمعتكما غرفة النوم بعد ليلة الفرح. فخلال حفلة العرس كانوا قد أطبقوا عيونها بوضع صمغ مصنوع من نشاء مطبوخ على رموشها، كي لا ترى رجلها قبل الوقت المحدد حسب الأعراف والتقاليد. أنا متأكدة أن أمي كانت ستنهار بدون هذه الجلسات. صارت بالنسبة إليها طقساً يومياً لا تقدر على الإستغناء عنه. وأنا الأخرى اكتشفت بعد حين أنني أصبحت بدوري مدمنة عليها. صرت أماً لأمي. ولأول مرة أحسست أيضاً أن أمي صارت أماً لي. لم يبق لي أحد سواها يمنحني الحب والحس بالإنتماء. لا جدّة ولا جد. لا أعمام ولا أخوال. لا بنات وأبناء عم أو خال. كلهم موزعون مشتتون في أرجاء الأرض. حلمت مرة أن الله قد منحني بركته ومنحني القدرة على أن أصبح طيراً عندما أشاء. كنت أعبر الحدود في أحلامي. أفطر عند عمي الأول وأتغذّى عند الثاني. أعرّج على جدتي، أقبّل يديها وأبلغها شوق أمي الذي لا يوصف لها.. أقبل دعوتها للعشاء وأؤجل زيارة خالي الرابع للغد. لم أتحوّل إلى طير.. وبقيت حدود البلاد التي يعيش فيها ناسي مغلقة في وجهي. كل ذنبي أنني أحمل تلك الوثيقة التي تقول أنني فلسطينية تنحدر من صلب لاجىء فلسطيني. مسكين أخي الذي ذهب إلى الصحراء.. ما زالت صورته محفورة في ذاكرتي عندما كان يأتي إلى البيت باكياً صارخاً.. لا أريد أن أكون فلسطينياً.. مرة رفض الأولاد أن يشركوه معهم في لعبة كرة القدم لأنه فلسطيني، ومرة أخرى أمعنوا في طحنه وإذلاله فأخذوا يغنّون له في جوقة.. لاجىء لاجىء فلس طيزي. لم أستطع أن أفهم سر قسوة البشر على بعضهم البعض. من أين لهم هذه الطاقة على إيذاء بعضهم وبشكل تأنف الحيوانات الكاسرة عن فعل مثله. تنفست الصعداء حينما تركت لبنان. لم تتحمل أعصابي هذه المجزرة الهمجية المجانية.. ضاقت الدنيا عن إستيعاب فرحتي حينما أبلغني أخي الصحراوي أنه سيدفع تكاليف دراستي الجامعية في أي بلد أوروبي أختاره.

لأيام وأيام عشت كالمحمومة. هجرني النوم. غرقت في فيض من الأحلام. الآن سأعيش في تلك البلاد التي يقولون عنها إنها تفيض حرية وتقدماً وحقوقاً. اخترت السفر إلى ألمانيا. لا أعرف سبباً محدداً لاختياري. ثماني سنوات أمضيتها هناك. ثماني سنوات اختلط فيها الحلو بالمر بحيث بات صعباً عليّ أن أميّز الطعم الحقيقي لها. عشت حريتي الفردية كما يقولون في الغرب كما أشاء. ولكنني حرمت حرارة العيش في جماعة. اشتقت أحياناً إلى حد المرض إلى الأحاديث الهاذرة والحميمة مع الجارات، مع بائع الخضار والفرّان، مع الدكّنجي.. مع بائع الجرائد والخيّاط. افتقدت ضجيج الأولاد في الحارة.. يركضون.. يلعبون.. يتشاجرون. وحدها أمّنا الطبيعة منحتني بسخاء راحة البال والهدوء والقدرة على إطلاق خيالي بلا حدود. زرت المتاحف. استمعت إلى شتّى أنواع الموسيقى، ولكنني هناك عرفت المعنى الحقيقي لأن يكون الإنسان وحيداً. كانت الكتب عزوتي وسلوتي في ساعات الوحدة الطويلة التي عشتها. هناك تعلمت التدخين وتعلمت الرقص

وتعلمت الحب. أول حب خفق له فؤادي انتهى على مذبح الحفاظ على عفافي. كان شاباً ذكياً مرحاً يحب الحياة ومن أبناء جلدتي. رماني بالتخلّف لأنني أصررت على الإحتفاظ بما يعتبر في عرف ناسي رمز الشرف وتاج سمعة العائلة والعرض الذي يراق من أجله الدم. وعلى ذات المذبح انتهى حبّي الثاني والثالث والأخير.. ما زلت أتذكّر كلمات وتحذيرات صديقتي المغاربية «لا تكرري غلطتي». ظلّت تقول لي «هذه الغلطة ستكلّفك أن تمضي ما تبقى من حياتك في المنفى.. بعيدة عن أهلك وبلدك.. لن يقبلوا بك.. كذابون هؤلاء الرجال أبناء الشرق.. أكثرهم كذباً أولئك الذين لا يكلّ لسانهم عن اللهج بالتحرر والمساواة بيننا وبينهم.. إنهم مصابون بإنفصام الشخصية.. يقبلون البنت الأجنبية مع أنها لا تملك وسام العفّة والشرف هذا ويرفضون البنت العربية إذا فقدته».

يا إلهي أي عذاب عشته هناك في آخر سنة لي.. كنت ممزّقة بين الرغبة المحمومة في أن تمر الأيام سريعة وبين المجهول الذي طرح سؤاله المفزع عليّ: إلى أين؟ أين سأذهب بعد تخرّجي؟ لا أعرف. كل أصدقائي كان لهم وطن يعودون إليه بعد غربة أو سفر.. وأنا لا وطن لي. أخي الصحراوي دعاني للإقامة عنده. قال لي أنه سيرتّب واسطة قوية ليسمحوا لي بالإقامة حيث يقيم. لم أرد أن أعيش في الصحراء.. أنا لا أحب الصحراء.. أخافها. لم يكن ممكناً أن أذهب إلى أخي الذي وهب نفسه للقضية. فهو لا يملك أي مستقر أو أي عنوان ثابت. من منفى إلى آخر يتنقّل. لم يبنِ عائلة ولا اتخذ زوجة له. أمي انتقلت بعد سفري للعيش مع أقارب لها في بلد عربي. قريب لها يملك صلات وثيقة مع جهات نافذة في هذا البلد استطاع أن يحصل لها على إذن إقامة. استطاع أن يقنع هذه الجهات أن إمرأة عجوزاً مثلها لا تشكّل خطراً على الأمن القومي. كتب هذا القريب يعرض عليّ أن يوظف إتصالاته للحصول على إذن مماثل لي. طابت لي هذه الفكرة أكثر من غيرها. سأعيش مع أمي وسيكون لي أقارب أعيش بينهم أخيراً. كتبت له أبلغه بأن يبدأ جهوده. بعد أشهر استلمت منه رسالة يبلغني فيها أنه حصل على الموافقة المبدئية، ولكن عليّ أن أوقّع الورقة المرفقة برسالته. كانت ورقة تعلن تعهدي بعدم المشاركة في نشاطات هدّامة تعرّض مصالح البلد للخطر.. و.. و.. ووقّعت الورقة بدون تفكير طويل. فأنا أريد أن أعود إلى أمي. أنهيت إمتحاناتي بنجاح وتفوّق. عدت طبيبة.. ولكنني ها أنا عاجزة عن شفاء أحد.. أنا نفسي أحتاج للعلاج.. مريضة أنا.. لا لست مريضة.. لا أعرف. طبيبي النفسي قال لي بعد عدّة جلسات.. إنه إذا كان هو مريضاً فأنا الأخرى مريضة. قال لي إنني متعبة قليلاً. شيء من الراحة مع قليل من العلاج وأخرج بعدها لمواجهة الحياة.

الحياة. الحياة.. لماذا كُتب عليّ أن أواجهها لا أن أعيشها؟ علّها تكرهني أم أنا التي أكرهها؟ ألهذا قطعت شرايين يدي مرة وابتلعت كمية كبيرة من دوائي مرة أخرى.. لأريحها منّي أو لأرتاح منها؟ ماذا أفعل هنا؟ سألت نفسي مرّات ومرّات. سألت طبيبي مرة.. هل سأخرج من هنا يوماً ما؟ ابتسم وأجابني: القرار لك وحدك يا فاطمة. أخرج إلى الدنيا مجدداً؟ لماذا؟ ألم يطردوني منها؟ ألم

يحاصروني؟ ألم يرفضوني؟ منذ اللحظة الأولى التي وطأت قدمي فيها مكان عيشي الجديد شعرت أن الحرب بيني وبين هذا المحيط قد بدأت. أحسست أن نظراتهم تخترق جسدي وروحي كالنصال الحادة. أقبلت بكل جوارحي على عالمي الجديد هذا. كل خطوة خطوتها باتجاهه كان يهرب مقابلها منّي خطوات إلى الخلف. عابوا علي شكل ملبسي. سموّني بالوقحة لأنني أجادل الرجال الذين يكبرونني سناً وأتحادث مع الذكور الذين في عمري. «لم يكفها ما تعلمته في لبنان فراحت بلاد برّة لتكمل ما نقص عليها».. تهامست مجتمعات الحريم في جلساتها العائلية حولي. «أنا لا أريد لإبنتي أن تتعاطى مع أمثالك» بهذه الكلمات استقبلتني إحدى قريبات أمّي عندما ذهبت لزيارة إبنتها قبل أن تصفع الباب في وجهي.

إمرأة مجربة قالوا عنّي. أحببت هذا التافه بكل جوارحي. ولما منحته أول قبلة صببت فيها كل عواطفي ومشاعري نحوه، لم ير فيها سوى خبرتي بالتقبيل. سألني عن عدد الرجال الذين قبّلتهم قبله. لم أكذب عليه.. فكيف يمكن للحب والكذب أن يجتمعا؟ دفعت ثمن الصدق غالياً. مرة سألته إحدى زميلاتي عن السبب الذي تركني من أجله.. أجابها بترفّع وكبرياء «أنا لا أتزوج إلا تلك التي لم يقبّل فمها سوى أمها». أمي وقفت على الحياد في أول الأمر. كم بكيت على صدرها. في البدء كانت تضمّني إليها وتمسد شعري بحنان وتقول لي «عليك أن تنتبهي يا إبنتي.. هنا الأمر مختلف.. أنت لست في بلاد برّة». ولكنها أخذت تنحاز شيئاً فشيئاً إلى صفوف أقاربها. أصبحت كلماتها أقسى وانتقاداتها أمرّ. صارت تفتعل معي المشاكل إذا أردت الخروج من البيت، أو إذا أردت الذهاب إلى السينما. كنت أذهب وحدي لمشاهدة ما هو متوفّر من أفلام. وكان ذلك سبباً إضافياً لتلطيخ سمعتي. سألت مرة أحد أقاربي الذكور أن يرافقني إلى السينما. قامت قيامة العائلة ولم تقعد إلاّ بعد حين طويل. صائدة الرجال ومفسدة أخلاقهم الحميدة.. أضافوا إلى الألقاب التي منحوني إياها.

بدأت أمي تشارك في الحرب مباشرة. لمْ تتحمل ضغوط العائلة ومطالباتها الدائمة والملحة بأن تمسك بخناّقي. «لن يقبل بك أي رجل.. لن تجدي من يضبطّك ويحويك تحت سقفه» ظلّت تردد على مسامعي صبحاً وظهراً ومساءً. ضاق الخناق حولي والحصار اشتدّ. وجّهوا لي الإنذار الأول في المستشفى الذي كنت أعمل فيه بسبب سوء عملي. بعد أسابيع قليلة تلقّيت الإنذار الثاني. بعدها بأيام تسلّمت رسالة الإستغناء عن خدماتي. «من أخطر الأمور في الطب أن يبدو المعالِج أسوأ حالاً من مرضاه». قال لي مدير المستشفى. آه يا أخي الكبير.. لولاك فلربما وضعت حداً لحياتي.. حمداً لله أن قريبنا صاحب العلاقات الوطيدة مع الجهات النافذة استطاع أن يدبّر لك من حين لآخر إذناً لزيارتنا. كان عليك أن لا تبقى أكثر من ثلاثة أيام، وأن لا ترى خلالها سوى أمك وأختك وأقرب الأقربين إليك فقط. كنت كعادتك تسمع، تهزّ رأسك، ثم تعقّب ببضع جُمل. تأقلمي مع هذا الجو.. كوني قوية.. تحمّلي.. كنت تردد دائماً. إلى متى سأتحمّل؟ ولماذا كُتب عليّ أن أتحمل؟ أخبروني ماذا

فعلت.. بسببهم تناولت أول حبة مهدىء.. وبسببهم تناولت الثانية والثالثة والرابعة.. والحبّة الألف.. تريدونني أن أعود إليهم.. أرجوكم.. لا.. لا.. اليوم حين يأتي أخي ليخرجني سأتوسل إليه أن يبقيني هنا.. سأبكي.. سأجثو عند قدميه.. لا.. لا أريد الخروج من هنا.. أرجوكم.. أنا مريضة.. أنا مريضة..

(رام الله)

هذه القصة: إحدى القصص الفائزة في مسابقة إذاعة صوت ألمانيا باللغة العربية، حيث قامت «دار مالك الجديدة للنشر» ـ في ألمانيا ـ بإصدار النصوص الفائزة في كتاب اختارت له عنوان هذه القصة للكاتب الفلسطيني خليل عبد ربه.

لفظته الحياة..

إيمان يوسف محمد عليّان

..علت شفتيه إبتسامة سخرية مريرة، حين فتح عينيه فوجد أن القدَرَ يلاحقه وأمانيه حتى في هذا الأمر..! فبعد أن فتح عينيه توقّع أن يرى وجوهاً غاضبة أمامه. كيف لا وهو الذي مات كافراً؟! أحبط عندما رأى وجه الممرضة باسماً. كانت تهمس كلمات لم يفقه منها شيئاً سوى أنها ضدّ إرادته.

..انزوى بفكره بعيداً، وأخذ يدير شريط الذكريات الذي لربما لو تتابع على صخر لأهلكه. بدأ يرى طفولته البريئة المتعبة في سقيفة صفيح في أحد المخيّمات التي أعدت للاجئين أمثاله. كان عليه أن يعمل بجد لكي يساعد والده الذي أنجب عدداً كبيراً من الأفواه التي كادت، لولا بطاقة التموين، أن تُغلق إلى الأبد منذ زمن طويل. كافح في هذه الحياة القاسية فعركها وعركته ليصبح شيئاً في مجتمعه.

..ويجتاز شهادة الدراسة الثانوية العامة بتفوّق يحسده عليه جميع أهل مخيمه. هذا الطالب الذي يعمل قبل الدوام المدرسي وبعده.. أيعقل أن يحصّل هذا المعدل ؟!

..طموحه يدفعه إلى الدراسة الجامعية. عمل متواصل وكد لم يؤثرا على تحصيله. ومن هناك يبدأ يبني طموحه، خطوة خطوة، ويتخرجّ بتقدير جيّد. سعادة غامرة تغمره وأهله جميعاً. فقد جاء الخلاص. التعب سيثمر علماً ومركزاً ومالاً يريحهم من هذه السّقيفة التي كانوا يصافحون السماء من خلال سقفها. يصطدم بالواقع المرير، الذي سرعان ما تغلّب عليه بإرادته القوية. أغلق باب المؤسسات الحكومية في وجهه؛ لأنه ابن المخيّم ـ الذي لا يؤمن له جانب من وجهة نظرهم ـ كتاب الفصل أذاب دموعه المتحجّرة منذ زمن طويل. يطرق باب المؤسسات ولكن دون جدوى. فهو لم يرضع بملعقة فضيّة كما أن والده لم يكن من المتسلّقين أو النفعيين.

حاول أن يزيح مليمترات من شريط الذكريات الذي أصرّ على أن يمشي الهوينى. عادت له الحياة

ذات يوم، حين وجد إنساناً يقدرّ المتفوقّين من أمثاله، حيث قررّ أن يعينّه في وظيفة في إحدى المؤسسات الخاصة، قررّ بينه وبين نفسه أن الله يحبهّ، وإلاّ لِمَ اختار له هذه الوظيفة؟!! تعاهد مع الله أن يكون مستقيماً طيلة حياته.

..ثمن الإستقامة قاسٍ، ومع ذلك سيحفظ عهده مع الله. أيام تمرّ وهو في استقامته، التي كانت وبالاً عليه. فقد منعت عنه كل ترقية يمكن لمجدّ مثله أن يصل إليها ذات يوم. لم يأبه. قررّ أن يمضي في حياته، على الرغم من نصائح أصدقائه وزملائه ومن يحيطون به:- لا تكن مثالياً. جمهورية أفلاطون مكانها ليس هنا. «اليد اللّي ما بتقدر تبصق عليها بوسها». حاول أن يتملقّ كما يفعل الآخرون، جملّ ألفاظك.

إصراره على الإستقامة كان صمغاً يمنع أذنيه عن سماع أقوالهم. فجعل خيوط الأمل تغلق في وجهه تباعاً.

..فتح عينيه.. وجه الممرضة- المقيت- وعملها «اللاإنساني» أعاده إلى الواقع. لماذا لم تتركه وشأنه؟ فهو بعد حوار عنيف مع نفسه اختار أن يحققّ هذا الأمر. واختار الليل- الذي غلب نوره ما إعتمل في نفسه!!- أيام طويلة وهو يقرر أن يلفظ هذه الحياة التي لفظته مراراً. حزن يسود كل ما يراه. من داخله يدويّ صوت:

- ألم أنهك عن هذا الأمر؟ فيردّ قلبه في ضعف: إنها هي، لست أنا. الحياة قررت أنه لا يمكن لأمثالي أن يعيشوا فيها.

- ولكن الله؟ والعذاب؟ إيمانك؟.. هل تحولّت كافراً بعد كل ما عُرفت به من استقامة؟!

يجيب قلبه المثقل:- الله هو الذي أراد لي ذلك. ألم يدرك بأن كاهلي الصغير قد نخّ عن تحملّ كل ذلك؟ أليس الله هو الذي قررّ أنه لا حياة لأمثالي حين جعل الحياة مرتعاً لمن يعيشون فيها الفساد والدمّار؟!! أليست..

يقاطعه الصوت: وأهلك.. ماذا سيكون مصيرهم حين يُقال أنك انتحرت.. ألست أنانياً في موقفك هذا؟- كيف سيكون موقفهم أمام المجتمع؟

- يا أخي.. ابتعد عنّي أرجوك. أهلي؟! لقد كرهتهم في لحظات حين اكتشفت أن ما زرعوه فيّ من الاستقامة والفضيلة والطيّبة هو السبب فيما وصلت إليه؟! ولم يتأثروا؟ لربما يتأثرون أياماً وبعدها..

ويغلق الشريط على ابتسامة نصر ارتسمت على شفتيه اللتين فقدتا ماء الحياة.. فها هو يحقق ما يريده أخيراً!!

(رام الله- 27/ 1/ 96)

إصدارات جديدة

علي عبد الأمير

«الكتاب الأول»

في مختاراتنا لهذا العدد من «مشارف» سنجد مهارات كتابية في باب القصة والشعر وتأتي عبر كتاب أول حمل توقيع الشاعر غازي الذيبة والثاني للقاص الشاب نبيل عبد الكريم، وهما عبر تلك المهارات يضربان مثلاً رائعاً في الإنسجام ما بين الدعوة إلى المغايرة في الكتابة وتطبيق هذا في النصوص. حتى أنني على ثقة من عدم سماع جملة: «الكتاب الأول لا يمثلني»، والتي غالباً ما نسمعها من كتّاب إتسعت بهم التجربة و«نظروا بغضب» إلى كتابهم الأول!

إنهما بحق سعيا بقوة وبدأب وجهد لأن يكون كتاب كل منهما الأول حصيلة ممتازة لاندفاعاتهما إلى جو الكتابة وعالمها المؤثر والساحر. وهما بالتالي يقدمان صورة قوية عن النتاج الأول، ستظلّ حاضرة عند أسماء أخرى ستتوقف كثيراً عند الفكرة. إصدار كتاب. قبل أن تقدم عليها... وبالتالي يصبح لمعنى إصدار الكتاب الأول، قوة الإعلان عن الموهبة أولاً واحترام النوع الثقافي والكتابي ثانياً..

عرضنا هنا لكتابيهما، هو من باب التحية لدأبهما، كذلك الإشارة إلى مهارتيهما وما ستمضي إليه تجربتاهما.

«دم على رغيف الجنوبي»

المعاني السود التي قتلت تيسير سبول..



افتتح «چاليري الفينيق للثقافة والفنون»، نشاطه في النشر بكتاب حمل عنوان «دم على رغيف الجنوبي»، هو مجموعة من الإستذكارات والمقالات النقدية عن المبدع الراحل وأدبه.. وتيسير سبول، هو الروائي، الشاعر، القاص، الناقد والمفكر السياسي وصاحب المواقف التي قادته إلى إكتشاف الفجوة بين الخطاب العربي والرسمي والحقائق المقامة على الأرض.

هو الشاعر المفرط الحساسية. حسب تعبير د. عز الدين المناصرة. والذي كتب عنه في الكتاب أكثر من إستذكار وأكثر من مقالة تعنى بالبحث عن المشترك ما بين الإنساني والإبداعي عند تيسير. حتى أن مقالته: «تيسير سبول.. وأنا/ دم على رغيف الجنوبي» صارت عنواناً للكتاب. وهو إضافة إلى ما كتبه د. سليمان الأزرعي، مؤنس الرزاز وغالب هلسا وخالد الساكت وفايز محمود ود. هند أبو الشعر وصادق عبد الحق وسليمان عرار وآخرون من شهادات هي وثائق رثاء وثناء أيضاً بحق المبدع الذي أطلق على رأسه (رصاصة الخلاص) في تمام الساعة الثانية والربع من يوم 15/ 11/ 1973.

شهادات الكتّاب والشعراء في الكتاب لم تجمع على قضية تتعلق بالراحل قدر ما اجتمعت على فرط حساسيته وصدقه الشديد ما بين موقفه المعلن اليومي وفحوى كتابته وعن ميله أيضاً للتجديد الحقيقي القائم على وعي أدوات المغايرة وإقامة مقتربات ذاتية معها. وإذا كانت هند أبو الشعر تختم شهادتها عن سبول بقولها: «أجل كان مليئاً بالرقة والإحساس والفجيعة، كان باختصار إنساناً مميزاً حتى العظم»، مضيئة بذلك جانب الرؤية الواسعة حين تتجه نحو حادثة الإنتحار- الرحيل. فإن مؤنس الرزاز يذهب إلى بؤرة مركزة لقراءة الحدث فيقول: «وحين قابلت تيسير قبل أن يضع حداً لحياته بأسابيع قليلة، قال لي إنه سوداوي وإنه يائس من مستقبل هذه الأمة، وأكّد أن كل ما تعلمه من أبي أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث في الأردن لم يكن سوى وهم».

هو في ذلك كان سوداوياً، معترفاً بهزيمة المشروع القومي، الذي تعرّض للتشويه على أيدي حملة لوائه. وهذا ما دفعه بحق للإحساس بالعبث واللاجدوى. وحياة كهذه عند شخص جبِل على فكرة

(المثقف العضوي) ومارسها في حياته وعند أكثر من مفصل، لن تبدو أكثر من موت مؤجلّ. فوضع حداً لكل هذا الإضطراب ذاتياً علّه ينهي بذلك حالة الإضطراب موضوعياً!

«أنا يا صديقي
أسير مع الوهم، أدري
أيمّم نحو تخوم النهاية
نبياً غريب الملامح أمضي إلى غير غاية
سأسقط لا بد، يملأ جوفي الظلام
نبياً قتيلاً وما فاه بعد بأية
وأنت صديقي..
واعلم، لكن قد اختلفت بي طريقي
سأسقط، لا بدّ..
أسقط يملأ جوفي الظلام
عذيرك بعد،
إذا ما التقينا بذات منام».

(قصيدة تيسير سبول التي عثُر عليها بعد إنتحاره).

* الناشر: «جاليري الفينيق للثقافة والفنون». عمّان 1995 . 105 صفحات من القطع الكبير.

«أكثر مما أحتمل» لجواهر الرفايعة:

بوح شفيف لوقائع مضطربة!!



غالباً ما تقع كاتبات القصة العربيات في فخ قاتل، ينصبه ذلك الإحساس بالحاجة إلى إختراق الموانع والمحتجب من الظواهر، ومن أجل إثبات فاعلية الحضور الذي تشكله (الأنثى) في حياتنا! هذا كثيراً ما يدفع إلى سقوط الكاتبة في قصدية مسبقة لعملية الكتابة، تجعلها غير قادرة على منحنا الفرصة للتعرف على رؤية حقيقية لوقائعنا. وهذه المرة من وجهة نظر

«النصف الآخر» الذي يعايشنا ومعه نكتمل معاً.

وتندرج رؤى كاتبات قصة عربيات كثيرات في تصويرات عمومية لطالما أنهكتنا النماذج المعلنة والمعروفة باستقراءاتها واستنتاجاتها. ومنذ الثمانينات بدأ جيل آخر من كاتبات القصة العربيات يظهر عبر كتابة أخرى. كتابة لها علاقة بالبوح عن تركيبات نفسية لا تذهب إلى الإعلان المباشر لعزلتها القسرية وبؤس (الإلحاقية) التي تندرج ضمنها في كل مفاصل حياتنا. بل هي تكشف عن رؤية غير معتادة للوقائع والعلاقات، رؤية عبر عين (أنثى) تؤكد فاعليتها في الحضور والتشكّل، حينما بهدوء تام وبلغة شخصية تعلمنا درساً في (الأنسنة) حيث تظهر قدرتنا الهائلة في قمعها حين نغيبّها هكذا في حياتنا!

ومن كتابة كهذه، ومن جيل كاتبات قصة عربية مختلفة، نقدّم للقاصة جواهر الرفايعة وفي ثاني مجموعاتها والتي حملت عنوان: «أكثر مما أحتمل». فهي بهدوء تشعل الأسئلة وتكشف عن أبنية العزلة، عن القطيعة المزدوجة التي تتعرض إليها ككيان ومعنى، مرّة بينها وبين النصف الآخر للحياة، وأخرى بينهما معاً وبين الوقائع والإحالات الإجتماعية.

البوح والكشف الهادىء هما قرينا العزلة والإنضواء ضمن مقتربات شخصية في اللغة والوعي والرؤيا. وهكذا نجد في قصص جواهر قدرة عالية على البوح والكشف ودونما إندراج في عموميات وزوايا نظر معتادة. خذ مثلاً قصتها «طفولة» التي كتبت فصلاً رائعاً في ثنائية لطالما عرفناها في الحياة وفي الكتب أيضاً: الحياة/ الموت. عجوزان في عزلتهما يتشاجران يومياً يوقفهما مرّة عن ذلك مشهد إمرأة تدفع طفلها في عربة، تتدلّى أيديهما إلى أسفل نافذتهما، ويتهدّل رأساهما الشائبان في تساقط هادىء عن النافذة فيموتان.

لا اللغة ابتعدت عن النمطية حسب، بل إجرائية المشهد الذي أدى إلى الموت. وهذه الإجرائية إذ تقودنا للحديث عن تقنية القص فهي ستجعلنا نتوقف عند (التداخل الحكائي) الذي استخدمته في قصة «فراغ»: إمرأة تذهب إلى السوق كي تشتري هدية لأمها، تختار الخاتم كهدية غير أننا نجدها في محل للزهور تختار، كالمعتاد، باقتها الأسبوعية! تردّ على هاتف داخل المحل وتصطنع حواراً مع زوجها الذي لا يكفّ عن ملاحقتها في كل مكان. تؤكد على صاحب محل الزهور أن يدلّ زوجها حين يتصل بها ثانيةً على مكانهما المعتاد حيث يلتقيان ودون أن تأخذ الزهور فتتذكرت أن اليوم عيد ميلادها ولا بد لزوجها هذه المرّة أن يقدم هو الزهور! حكايات تتداخل تذكرنا بقدرة القاصة على تجسيد فعل الفراغ عند بطلتها التي بدأت تروي كيف أنه: تدحرج الشارع ككرة بين قدمي لاعب فاشل. هذا الفراغ إذ يتجسدّ في قصة بهذه الطريقة، فهو يتحوّل إلى هواجس خوف واضطراب في قصة أخرى هي «القصاّصة» التي تقيم عبرها الكاتبة، معادلاً موضوعياً بين الحاجة للجم مصادر الخوف. خربشات على الباب. وبين أظافر طويلة، تضرب على خشب السرير لتصدّ حضور السكون تلك اللحظة.

قصّاصة الأظافر تشذب في فعلها الخوف والأظافر معاً. الكثير الكثير من البوح يأتينا وبفنية لافتة عبر قصص جواهر الرفايعة.

---

* الناشر: «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» - «دار الفارس» - عمّان 1996 - 13 قصة في 55 صفحة من القطع المتوسط.

«أكثر من نشأةٍ لواحد فحسب» للشاعر عبد الرحمن طهمازي:

إشراقات الشعر في جمل المعنى..



شهدت الستينات في العراق بروز تيار شعري، نقل الحركة الشعرية من المراوحة بين الغنائية والتحديث المتمهل للرواد إلى فعل المغايرة الحقيقي. ومن بين أسماء هذا التيار، يأتي إسم الشاعر عبد الرحمن طهمازي، الذي عرف عنه عزوفه عن النشر والمماحكات والإنصراف بالتالي إلى تجربته، عن طريق المعاينة المستمرة والمراجعة الدائبة، وبعد مجموعته الأولى «ذكرى الحاضر» - (بغداد 1974) والثانية «تقريظ للطبيعة» - (بغداد 1986) تأتي مجموعته الثالثة «أكثر من نشأة لواحد فحسب» الصادة هذا العام بعيداً عن مكان إقامة الشاعر الذي آثر البقاء في بغداد متمهلاً في اكتشاف ما تبقّى وما قد سوف يأتي فيما بصره يضعف شيئاً فشيئاً حتى بات الخروج من الدار مأزقاً حقيقياً له! المجموعة، التي بين أيدينا، تتضمن قصائد جديدة للشاعر مع مختارات تولى هو إختيارها من مجموعتيه السابقتين. وقبل أن نذهب إلى أمتن النصوص وقراءة بعض ما تحمله، لا بد من الإشارة إلى أن الشاعر، ومنذ الثمانينات، تحوّل إلى النقد والبحث الفكري والمعرفي. ثم خصّ معرفة التراث بوقفات تحسب له. ومن جهده النقدي نتعرف على (محمود البريكان، دراسة ومختارات - بيروت 1989) وهي محاولة جادة في دراسة آثار الشاعر العراقي البريكان، الذي زامل الروّاد وخرج عنهم بتجربة شخصية أنتجت شعراً محفوفاً بالأسرار وتركز حول بؤرة ذاتية لرؤية العالم. كذلك هنالك (مرآة السرد - بغداد 1990، دراسة في أدب محمد خضير)، كتبها عبد الرحمن طهمازي بالإشتراك مع الناقد د. مالك المطلبي.

هذه الإنتقالة أو الإنفتاح على كشوفات النقد ومعرفيته ونقد الأفكار لاحقاً، قاد عبد الرحمن طهمازي الشاعر إلى محاولة تأكيد (شعرية) من نوع آخر لطالما عافته التجارب المعاصرة، ألا وهي شعرية الفكرة والمعنى.

«الطبيعة سقطت من يدي
الصدى ينفجر في البرعمة متابعاً معناه المتطاير
هكذا يأتي المعنى المجهول بعد القول المعلوم».

هذا الإتصال بين الشعري والمعرفي، لا نجده في النص الذاهب إلى ذهنيته المتحررة، بل في العنونة والإحالات. ففي فصل «إنعكاسات» من القصائد الجديدة نقرأ إحالة إلى إبن قيّم الجوزية:

«منشور إختيارنا لك واضح الحظ ولكن إستخراجك ضعيف». ثم العنونة كما في فصل «الأبحاث» لنجد: بحث الدمعة، بحث المأساة، بحث بابل، بحث المرأة، بحث عدم المعرفة وبحث الفراغ.

«دمعة الحزن حارّة
دمعة الفرحان باردة
تسرب هذا من قلم مؤلف عربي
لم تكن له دمعتان
إنما تسيلان على وجنتي قارئ يافع
إتضحت له شفافية القرائن».

هذه (الذهنية)، ليست مقفلة على إشاراتها الخاصة، بل نجدها تنفتح على إحالات كثيرة ودلالات فاعلة لو توفرت إمكانية القراءة الهادئة لجوانية النص كما في «مرآة مستوية. حزيران 1967»: «أيها القاتل لا تشرك بنا / نحن قتلاك الجميلين خدمناك طويلاً / فاقترب / قلت أقترب / يا سند الفقر ويا / قلق الخبزة، عجز الثوب عن تعزية الجائع».

---

* «منشورات الجمل». كولونيا / ألمانيا 1995 . 114 صفحة من القطع المتوسط.

«جمل منسيّة» للشاعر غازي الذيبة:

لمسة شخصية في القول الشعري..



من التجارب الشعرية العربية الجديدة، عرفت تجربة مجموعة «أجراس» الشعرية والتي نشرت بيانها الإبداعي في عمّان قبل فترة.. ومن شعراء المجموعة، نجد غازي الذيبة وهو يحثّ الخطى صوب تكوين جو خاص في جملة القول الشعري التي لطالما أشبعت تكراراً وإعادة إنتاج. وفي كتابه - ديوانه الأول، الصادر حديثاً، يتشعّب غازي في أشكال كتابية متعددة، غير أنه ليبدو شديد الصفاء مع نفسه ولغته حين يختار «قصيدة النثر».

«أتذكر / وأنا أتكوّم عند المنعطف / أرقاماً مثلنا / حتى أنني خائف من البوح / لأن رقبتي القصيرة / المربوطة بلساني الطويل / ستنقصف مساءً / حين أتأخر عن ربطة عنقي / هناك...».

وإذا ما انتبهنا إلى قصيدة (الذيبة) فلا بدّ لنا أن نتوقف عند قدرة واضحة في إستخدام السرد كإجراء في تشكيل القصيدة. وهذا الإستخدام ينجح كواحد من أساليب العرض للجملة الشعرية، كذلك كواحد من أساليب الإتصال مع المتلقّي. فالشاعر هنا يتنازل عن دور لطالما أشبعته التجارب السابقة في الشعر، دور الشاعر بوصفه حكيماً، خطابياً، ناصحاً يوجّه التحذير والتنديد، ويرسم الرعب على شكل جمل مباشرة يشتم فيها كل شيء وابتداءً بالواقع وخلال الهزيمة المرسومة على كل شيء.. هذا الإنفصال عند غازي الذيبة عن مهمة الشاعر بوصفه واعظاً أو خطيباً، جعلته يقترب إلى نوع من التداول مع مفردات حسبت. نتيجة الإنتقائية التي قتلت لغة الشعر العربي المعاصر - حسبت غير شعرية، بل أنه يأخذ من المحكي والمتداول، مفردات أبعدته عن صفة الإغتراب في جملة القول الشعري، فيما هو فعلاً يقصد في مهمته كشاعر إعلاء شأن الإنساني واغترابه المتحقق ضمن خضم يسحق هذا الإنساني دائماً!

«أخرج على المدينة بأصابعي / مغرداً على ياقة جندي مذهول / لأملح المذبحة بدم مهرجٍ / يقرص القصائد / ووجنة حبيبته الميتة / ومن عيوني المختزلة أمسكتهم تحت السور / يتبادلون جثتي مع القمصان».

غازي الذيبة ينتقل من إنتظامه مع الواقع ككيان إجتماعي إلى راصد للتحولات الفردية والجماعية عبر اللغة، لغة كما قلنا فيها أكثر من سند للمحكي والمتداول، لكنها لغة تتشرّب بالشعري حين يأتينا مفاجئاً على الرغم من مرجعيتها اليومية. هو هنا يستند على المفارقة الضدية لتحريك الشعري وتوجيه النظر إليه. قصيدة غازي الذيبة فيها صفة أخرى تشير للمهارة الشخصية. فهي قصيدة تعنى بالتصويتات المفرداتية إضافة إلى مستوى إنجازها البصري. فالقصيدة المعاصرة، وغالباً النثرية، تعتمد في إتصالها على قراءة المتلقّي لها، وقراءته هذه تعتمد التأثير (البصري) وتفقد بعضاً من هذا التأثير حين تتحولّ إلى طريقة الإلقاء كتنغيمات (صوتية). قصيدة الذيبة يمكن أن تقرأ (صوتياً) وتضيف عنصراً من عناصر تأثيرها:

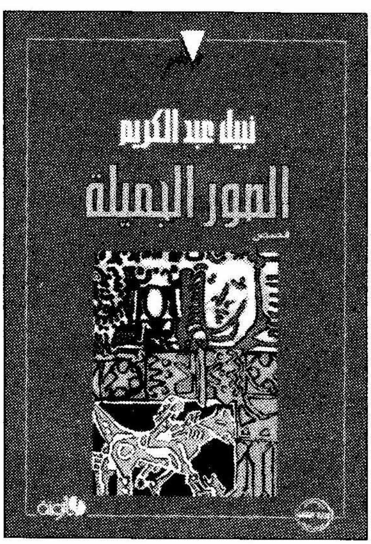
«هناك / أو هكذا يجري دائماً / مع ثقتي بالهواء / أركض بعيداً عن أصدقائي المغتبطين / بالحياة / ليس لي بعدها أصدقاء / سوى الإعتراف بالصمت / أو بالخرسان / وهم يزينون ألسنتهم بالحروف / دونما إبتهاج أبداً / بالأوتار الصوتيةّ».

---

* الناشر: «إتحاد الكتاّب العرب» - دمشق 1995 - 142 صفحة من القطع المتوسط.

نبيل عبد الكريم في قصص «الصور الجميلة»:

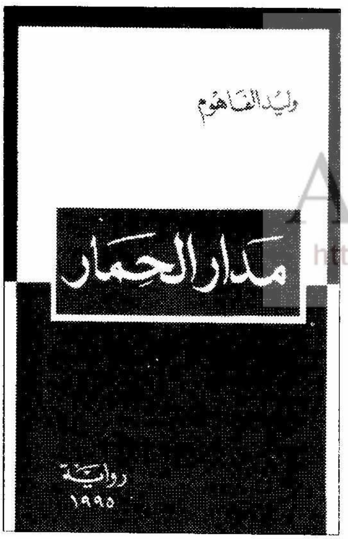
كتابة تخترق الوقت الكسول للقصة القصيرة



نبيل عبد الكريم المولود في إربد 1969، والحاصل على درجة البكالوريوس في اللغة العربية من الجامعة الأردنية، يقدّم لنا مجموعة قصصه الأولى. التقديم يبدأ مع جملة إستثنائية لا بدّ من أخذها على محمل الجد. فهي أصبحت واحدة من موجّهات القراءة - حسب إتجاهات القراءة النقدية المعاصرة -: «إلى الهدوء الذي يسبق العاصفة ويعقبها». هذه إشارة إلى كاتب يعنى بالمختلف من الظواهر، بل المستتر خلف الإعلانات المعروفة، فإذا كناّ قد توقفنا عند إستخدام دارج مثل الهدوء الذي يسبق العاصفة، فنحن هنا في بحث لا عن العاصفة بل في الهدوء الذي يعقبها أيضاً. هو هدوء النتائج التي ستبدو ثقيلة، مخيفة في هدونها الأقرب إلى الصمت الثقيل. هنا

حمير وليد الفاهوم

راضي د. شحادة



«مدار الحمار» ـ رواية

المؤلف: وليد الفاهوم

الناشر: الحكيم للطباعة والنشر،

الناصرة ـ 1995.

حمير وليد الفاهوم ليست حميراً عادية، بل هي أنواع من البشر عوّض عنها كلها بشخصية الحمار. ومن شدّة تركيزه عليها فإنها أصبحت النقطة المركزية التي تشكل محوراً رئيسياً ونقطة إنطلاق لبقع من الدوائر التي تحيط بها. هي عدّة أنواع من الحمير وجميعها تدور في مدار واحد وهو «مدار الحمار» أو بُرج الحمار.

لماذا يحظى الجدي والحمل والعقرب والأسد والسرطان والثور والحوت بأبراج عاجيّة وتصل سمعتهم إلى النجوم على شكل أبراج فتقول النجوم عنهم الكثير ولا يحظى الحمار والبغل والتيس مثلاً بشيء من هذه الأبراج العاجيّة؟ الحمار بالذات من فصيلة تتمتع بصفات النبل والصبر والشهامة والإنسانية، فلماذا لا نكون عادلين ونضعه مكان برج الميزان، مثلاً، والبغل بدلاً من الدلو والتيس مكان القوس والحرباء بدلاً من الجوزاء فنحصل بهذا على تشكيلة حيوانية تمثّل الجنس البشري بجميع فئاته وطبقاته؟!

وفي حكاية وليد الفاهوم المستمرة حول الحمار استحثّة عيسى اللوباني بأن يحاول أكثر للخروج

من محدوديته الذاتية والخروج من جلده. وهل يستطيع الإنسان أن يخرج من جلدِه؟ الخروج من الجلد في الإبداع معناه الخروج عن المألوف ومحاولة التفردّ عن الآخرين من أجل التميزّ وكأنها مشاركة في السبقّ نحو إختراع جنس أدبي جديد وبجنون خاص بالمبدع يجعله متميزاً عن غيره من البشر والمبدعين. ومن هذا المنطلق يستطيع المبدع أن يخرج من جلده من أجل تنفيذ لعبته الإبداعية وليس خروجه الفعليّ من جسده، بالرغم من قيود الطبيعة التي أوجدت قانون حبس الروح في الجسد إلى نهاية العمر. وعندما ينفصلان تنتهي الحياة.

يستطيع الأديب أن يخرج من جلده وأن يقوم بجولة سياحية في شخصيات روائية أو مسرحية بحيث لا يشعر القارىء أن هذه الشخصيات لها علاقة بشخصية مؤلفها. ولكن يعود القارىء إلى الغلاف فيجد أن إسم المؤلف رابض فوق جميعها وهو لا يزال هناك وقلمه هو سيد هذه الشخصيات، ويعود إلى قانون الطبيعة الأول: عدم التمكّن من الخروج من جلدك مهما قمتَ بأدوار ومهما مثّلت على الآخرين في جنسك الأدبي الذي تسعى لتحقيقه.

ولأن «مدار الحمار» فيه نزعة للسخرية والنكتة والنقد، فلن أتعبك، عزيزي القارىء، بالمزيد من الفلسفة الجادّة التي تتناقض إذا كتبتها بشكل جاف مع فلسفة كُتّاب الكوميديا، وممثليها على المسرح، والسخرية ومحبيّ الضحك لدرجة البكاء.

ولفظة حمار في مجتمعنا العربي تثير فينا حالتين قصوتين من المشاعر. الأولى أن أي تشبيه لأي إنسان بالحمار يثير ضحكنا. وإذا كنت عزيزي القارىء المُشبّه بالحمار فإنك ستغضب وستقدمّ شكوى قضائية ضديّ متهماً إيايّ بالتشهير بسمعتك. وربما تستعمل كل أنواع المافيا والعنف للتخلّص منيّ والإنتقام منّي لشرفك المطعون بمزايا حمارية. إذن، فأنت أمام أمرين من أمر هذا الحمار، أما أنك تضحك فتنقلب على ظهرك أو أنك تغضب فتنتقم أو يتعكرّ مزاجك.

وأما الغربيون، وبالذات الأمريكان، فإن «الكلبة» تحتل ّمكان الحمار كوسيلة لذم ّالبشر: فهم يقولون: «إبن كلبة» - "Son of a bitch". وفي قاموس المورد ظهر معنيان لكلمة Bitch، الكلبة والإمرأة وبخاصة البغي ّأو المومس أو العاهرة. وهم لا يشتمون بعضهم بكلمة «كلب». فالكلب ذكر محترم يحظى في الغرب بمعاملة تفوق الخيال، وهنالك جمعيات للرفق بالكلاب تأسست على أنقاض جمعيات الرفق بالإنسان. وشتاّن ما بين الذكر والأنثى. فالأنثى، هناك، خصّصت بها شبابيك على جنبات الشوارع كي يحظى بها الذكور على هواهم كما يحظون بسائر السلع المعروضة في السوق. وهناك تصبح الأنثى، فعلاً، في منزلة الكلبة لأنها في منزلة أم المشتوم أي الزانية. وقد يؤدي مرض «الإيدز» - إذا لم يستعجل العلماء بإيجاد دواء له - إلى إنقراض هذه السلعة من السوق (سلعة الزنّى).

ولكي لا نظلم الغربيين أكثر من اللازم وقبل أن ننسى شهامتنا الرجوليةّ الشرقية فأبو صابر هو

فعلاً أحد ذكورنا الصابرين ولكن زوجته ليست «أم صابر» بل هي «أم نافع» بحكم حرية تعدّد الزوجات وحريّة إنجاب أكثر من ولد بكر لنفس الذكر. و«أم نافع» حسب تراثنا العربي الأدبي هي أحد معاني الحمارة، والمرأة العاملة في هذا التراث كان لقبها الحمارة. فجاء أولاد عمنّا اليهود واستثقلوا هذا التشبيه على المرأة فاخترعوا إصطلاح "חמור עבודה" (حمار شغل) وهو لقب أطلقوه على العرب بشكل عام إسوةً بباقي المصطلحات التي تضمّ بضمنها "ערבי מלוכלך" (عربي قذر).

وبحكم الوعي التام عند وليد الفاهوم لقضية التآخي الممكن بين الأدب والمسرح فقد طلب منّي أن ألقي نظرة فاحصة على حميره التي تعرّضت للتشهير والقذف على رؤوس الأشهاد في كتابه «مدار الحمار» الذي يدور حول عدّة حمير وليس حماراً واحداً بالتحديد. ومن جميعها يميل وليد الفاهوم لصبّ نصّه المونولوجي الشخصي في شخصية الحمار الأوسط منها. وهذا الحمار، بالذات، هو مركز المدار. بل إن المدار الرئيسي في الرواية هو له، وهو بطل القصة لأنه الماثل في فلسفته في كل صفحة من صفحات الحمير المدارية. وقد حشُر هذا الحمار الأوسط في فترة ما من صفحة (131) من الكتاب ليقول: «كان عليه أن يعتدل في كل شيء وأن يجُري الفحوصات والكشوفات الطبيّة بمواظبة، وأن يرى الحياة بمنظار محايد ويتعلّم السعادة من القطط والكلاب والبغال السعيدة وباقي الحمير».

هو معتدل في الظاهر ولكن داخله يغلي ويغلي وهو ينتظر تلك اللحظة التي «ينغزه» فيها يستفزّه فيبرطع كالمجنون وربما يصبح كالحصان الجامح ويفلت من حماريته، لقبه البغيض. وهذا الغليان والتراكم يتقمّص في روع مبدع لتصبح «فنطزة» الفوضى مجموعة من الإنفجارات: «إنفجار إثر إنفجار بدون تخطيط مسبق» (ص129).

وبالرغم من وسطيته فإن الحمار الأوسط يتمتّع بمزايا شكلية وفلسفية تخوله التميز عن باقي الحمير. فهو من أجمل الحمير. فلا هو بالجهم الضخم، ولا هو بالقصير الحقير. وهو رمادي يمر خط أسود من عنطرته إلى ذيله ويدعونه بالأخطب. ومن فلسفته أنه إذا أراد أن يعالج أمراً ما فهو يبدأ من الأهم ثم المهم ثم الأقل أهمية. وهو يفضّل عدم الحسم المتطرف في الموضوع، ويفضل البحث عن حل وسط. فعند وجود أمرين نقيضين هو يفضّل النقيض الثالث، ليضمن لنفسه، في النهاية، الطريق الذهبية. الطريق التي تضمن له الحل الوسط.

وفي رحلة بحثي المسرحي عن شخصيات حمير وليد الفاهوم، وبموجب طلبه، اكتشفت أن حميره مركّبة الشخصيات ومشكّلة ومنوّعة. فمنها الحمار التيس، والحمار المطيع، والرافض، والصابر وأبوه أي «أبو صابر»، والحيادي والمتطرّف والحمار الرزين الفهمان بدليل أن رأسه كبير ومليء بالدماغ والتفكير والفلسفة، وحمار إبن حمار بحكم قوانين الهندسة الوراثية وفلسفة الجينات الوراثية.

ومن بين جميع هذه الحمير توقفت قليلاً عند ثلاثة أنواع منها واضحة المعالم والشخصيات، ومن الممكن أن تأخذ أدوار البطولة على منصتي المسرحية، وهذه الحمير هي:

1 - حمير صابرة 2 - حمير آيلة للإنقراض 3 - حمير منقرضة.

وهذه الثلاثية أعرفها جيداً مع قصصها وماضيها وأصلها وفصلها وصراعها المستميت للحفاظ على بقائها، لأن نماذج منها موجودة من الصنف الأول والثاني في «كيبوتس موران». وأما الصنف الثالث غير الموجود، أي المنقرض، فهي حمير تاجر البندقية الطبّراوي (إبن طبريا) نمرود الملقّب بميرو. إذن هي موزّعة ثلاثتها بين «ميرو» و«موران».

وأما حمير تاجر البندقية الطبراوي فقد انقرضت. كان «نمرود» يطوف القرى ويشتري حميرها بثمن بخس لأن أصحابها ضاقوا ذرعاً بها وتطوروا تكنولوجياً مع تطورّ الدولة الفتية وأرادوا الإنتقال إلى مرحلة ما بعد المرحلة الحميرية، إلى مرحلة التراكتورات والسيارات والشاحنات ولاحقاً الطائرات والصواريخ.

وأصبحت شاحنات «نمرود» - ولم يستعمل القطارات كما كان الحال في ألمانيا إبان حروب الإبادة - تنقل الحمير - ذهاباً - برضاها وهي مطمئنة على أنها خارجة إلى «شمةّ هوا» أي رحلة سباحة وتسفعّ في بحيرة طبريا. وفي الحقيقة فهو كان ينقلها إلى المجزرة، فتدخل بسرعة من الطرف الأول على شكل حمير وتخرج من الطرف الثاني على شكل معلبات لحم، تحملها الشاحنات - إياباً - إلى قراها الأصلية مسقط رأسها، فنأكلها هانئين مارنين بنهم وبتلذذ لأن بطون أصحاب الحمير الأصليين أولى بهضمها من غيرهم و«صحتين وعافية». وتوفيراً للنقود والمجهود كانت الشاحنات تفرغ المعلبات وتعبىء الحمير. وهكذا تستمر الدورة الحمارية بين التحميل والتحطيط، وتاجر البندقية يكسب المال من جهة ويمنع الجوع عن أهالي قرى الجليل والشاغور من جهة أخرى، وما بقي منها على قيد الحياة، كان بسبب لجونها واستجارتها بـ «كيبوتس موران».

وهكذا فإن حمير «موران» سلمت من رحلة التسفعّ والسباحة القاتلة والمعلبّة في بحيرة طبريا، وبلاء أهون من بلاء، على الأقل فهي لا تزال على قيد الحياة، ولكن خطر الإنقراض يهددها ولن ينقذها شيء إلا رأسها الكبير. صحيح إن أهالي «كيبوتس موران» يسمحون لها بالبرطعة في جبال الجليل ولكنهم يكسبون المال بواسطتها لإعالة «الكيبوتس» عن طريق تركيب السيّاح والقادمين الجدد والإمريكان والإنجليز والأتراك وسائر من يدفعهم الحنين إلى هذه البلاد المقدّسة، فوق ما تبقىّ من ظهور الحمير.

وكان لسان حال هذه الحمير يقول: «أرجوكم إركبوني ولكن برفق. لا «تزغتُوني» (أي لا تستعملوا المهماز) فتجرحوني وتؤلموني. ولا تحرموني من القليل من البرطعة والفنصعة والفنطزة في ربوع الجليل. أرجوكم المحافظة عليّ ولا تنقلوني في شاحناتكم وقطاراتكم إلى رحلة التسفعّ والسباحة

القاتلة في بحيرة طبريا، أنا هي حمير حاجاتكم ولولا حاجتكم إليّ للركوب لنقلتموني إلى داخل المعلبات. أرجوكم إركبوني ولكن لا تعلبّوني. فحمير تحملكم خير من خيل تطرحكم أرضاً. كما يقول عبد اللطيف اللعبي صاحب «تجاعيد الأسد». أنا هي الحمير الآيلة للإنقراض ولكنني مقتنعة أن رأسي كبير ولديّ قضية إنسانية، عفواً، حمارية، فهل ينقرض الذين يستعملون رؤوسهم للتفكير وظهورهم للتحمّل والركوب والصبر»؟؟!

(المغار)

---

* الكاتب مسرحي فلسطيني يعيش في المغار / الجليل.

** المؤلف كاتب فلسطيني يعيش في مدينة الناصرة/ الجليل.

وكان صدر له سابقاً:

1) «المقاومة الفلسطينية خلال العشر سنوات الأولى» (65ـ1975)ـ عام 1976.

2) «ولا بد للقيد أن ينكسر» (1980)ـ «دار الجليل»، عكا.

3) «طيور نفي ترتسا» (1984)ـ «مكتبة الفاهوم»، الناصرة.

4) «نباح العنصرية ـ الإنتفاضة محاكم ومعاناة» (1990)ـ القدس.

رسالة القاهرة

(من مجدي حسنين)

معرض القاهرة الدولي للكتاب الثامن والعشرين:

ثقافة الأيام التسعة البيض

لمعرض القاهرة الدولي للكتاب ثقافته، كما للقاهرة حالاتها الثقافية الدائمة، تصيب الأركان طوال العام بالنشاط والحضور، وتفعل فعلها في العقل والقلب معاً، وتجعل لكل حفنة أيام حالتها الثقافية الخاصة. لشهر رمضان ثقافته التي تختلف عن ثقافة أيام الحج، ولآخر العام الميلادي ثقافته وحصاده الذي يختلف عن أوله. نشاط كالجبال يصنع هالات مضيئة من الأنوار، لكنها تعمي العيون، وضجيج صارخ، لكنه بلا طحن حقيقي، يكفينا منه حضور الوجوه الثقافية العربية، لكنه حضور بلا فاعلية، وكم يتمنى المراقب لأنشطة المعرض كل عام، وتلك الكثافة من المفكرين والكتّاب والمثقفين، أن يصنعوا خلال أيام المعرض ذلك المشروع الفكري القومي، الذي نعبر به أزماتنا الراهنة، ويصبح للمثقف العربي دوره في صناعة مستقبل الأمة، وأن يخطط لها من أرض المعارض بحي مدينة نصر.

ولا خلاف على أهمية معرض القاهرة للكتاب، كواحد من أهم الفاعليات الثقافية في الوطن العربي. البعض يراه مهرجاناً سنوياً تعمّ فيه الفرحة بالكتاب وصناعته، والبعض الآخر يراه مظهراً من مظاهر إرتباط الثقافي بالسياسي، والسعي للتنظير وتمهيد العقول للأفكار التي يعتزم السياسي إصدارها في قرارات، أو أصدرها فعلاً وتحتاج فقط إلى مجرد التبرير الثقافي الذي لا يمتلكه إلاّ المثقفون.

وفي الدورة الثامنة والعشرين لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، والتي استمرت من الفترة من 24 فبراير وحتى 4 مارس الماضيين، بعد ما تمّ تكثيف أيامه وضغطها، بسبب تأجيله إلى ما بعد شهر رمضان، وموعد إقامة المعرض الصناعي، وارتباط عدد من الناشرين المشاركين بمواعيد معارض أخرى للكتاب في عواصم أخرى. وجاءت الأنشطة المصاحبة للمعرض ـ كعادته ـ لتصنع تميزاً ومذاقاً مختلفاً لمعرض القاهرة، فهو أكبر ثاني معرض للكتاب في العالم، بعد معرض فرانكفورت، وأكبر أول

معرض يصنع مثل هذا العرس في برنامجه الثقافي وإحتفالياته وإبداعاته الجديدة ومقهاه. وهو ما يخلق ثقافة خاصة لأيام المعرض، هي في الأصل حالة من حالات القاهرة الثقافية، أقرب إلى ثقافة الأيام الستة البيض، التي تعقب ثقافة رمضان، تستمر الأولى طوال النهار، وتسهر الثانية حتى السحور.

معركة التأجيل

شارك في معرض هذا العام 76 دولة عربية وأجنبية، من خلال 2400 ناشر، عرضوا ثلاثة ملايين ونصف مليون كتاب، كما زاد عدد السرايات إلى 27 سراي، لتضم كافة نشاطات المعرض المتنوعة، وشاركت أربع دول لأول مرة في هذه الدورة، هي هولندا واليونان وتركيا ومقدونيا. ومن المتوقع مشاركة فلسطين في الدورة القادمة للمعرض، بعد زيارة أكثر من وفد فلسطيني رسمي لمعرض القاهرة، لوضع خطة المشاركة في الدورة القادمة، وكذلك للإستفادة من خبرة المصريين في إقامة معارض الكتاب، لإقامة معرض فلسطين الأول للكتاب في قطاع غزة خلال العام الحالي.

وكانت أولى المعارك التي أثيرت حول دورة المعرض هذا العام، هي معركة تأجيله عن موعده المعتاد، وتعددت الأسباب حول ذلك، لدرجة أن البعض أعلن أن التأجيل يرجع إلى ضغط بعض الجهات لإشتراك إسرائيل هذا العام، وهو ما نفاه د. سمير سرحان - رئيس هيئة الكتاب المصرية - موضحاً أن الطلبات الإسرائيلية التي ترد إلى هيئة الكتاب أكثر من أن تُحصى، ومصيرها جميعاً هو الرفض، إنطلاقاً من مبدأ وزارة الثقافة المصرية، وكذلك المثقفين المصريين، من رفض التطبيع الثقافي مع إسرائيل، ورفض مشاركتها في أي فعالية ثقافية على الأراضي المصرية.

أما الأسباب التي تمّ إعلانها - رسمياً - لقرار تأجيل المعرض، فقد أشارت إلى حلول شهر رمضان المعظم، وصعوبة إقامة المعرض خلال شهر الصيام، وهو ما أثار حفيظة الناشرين المشاركين، نظراً لإرتباطهم بمواعيد معارض أخرى، ليس ذلك فحسب، بل تمّ تكثيف عدد أيام المعرض إلى عشرة أيام، بدلاً من أسبوعين.

والأسباب الأخرى التي لم يذكرها أحد حول التأجيل، ترجع إلى الرؤى الأمنية - التي أشار إليها البعض بشكل غير رسمي - حول الخوف من تجمهر كل هذا العدد من الجمهور في أرض المعارض، عقب إنتخابات مجلس الشعب - البرلمان المصري - والتذمّر الواضح من لا دمقراطية هذه الإنتخابات، وقد يؤدي هذا التجمهر إلى إعلان التذمر بأي شكل ضد نتائج هذه الإنتخابات. هذا إلى جانب التغيير الوزاري الذي تمّ في صبيحة يوم إفتتاح المعرض، مما أدى إلى إعتذار الرئيس، حسني مبارك، رئيس الجمهورية - بعد ذلك - عن حضور إفتتاح المعرض، بعد ما اعتاد الجمهور والمثقفون على ذلك منذ عام

1987، في دورة المعرض الثامنة عشرة، واعتادوا كذلك على اللقاء السنوي الذي يقيمه رئيس الجمهورية بالكتّاب والمثقفين، فاتحاً فيه القلوب حول القضايا التي تمرّ بها البلاد، وكاشفاً عن الرؤى التي يلتقي حولها المثقف والسياسي، لعبور الأزمات واستشراف المستقبل.

حضور إسرائيل

والمتابع لأنشطة المعرض الثقافية، سيلاحظ تلك الأسئلة القديمة التي طرحها المتحاورون، والإجابات المستهلكة في هذه الدورة، التي لم تختلف عن إجابات الدورات السابقة لذات الأسئلة التي لم نعثر على حل لها منذ بداية هذا القرن، خاصة أن المحور الرئيسي لندوات المعرض جاء حول علاقتنا نحن والعالم، من الأطر المختلفة لهذه العلاقة سياسياً وإقتصادياً وثقافياً.

وعلى الرغم من غياب إسرائيل عن معرض الكتاب وفعالياته الثقافية، ورفضها تماماً من جانب المثقفين المصريين، إلاّ أنها شكّلت وجوداً ضاغطاً وحضوراً يلفت الإنتباه من خلال الندوات واللقاءات الفكرية. وهنا أكد د. غالي شكري على أن الثقافة العربية تحمل الكثير من المقومات التي تؤهلها للإنتصار في معركة المواجهة هذه، والإنفتاح التام على كل الجيران والأخرين. فالتراث العربي ليس مكتوباً فقط، بل محفوظ ومحترم وضارب بجذوره في وجداننا جميعاً، والطرف المقابل يملك أسلحته الفعالة، التي تستمد وجودها من الأخطاء التاريخية للمثقفين العرب، من تشرذم وتجاهل وانفصال وتعدد بين التوجهات الثقافية العربية المختلفة، وفي ظل وجود الإستراتيجية الثقافية الواحدة، ينفي د. غالي شكري فكرة الغزو الثقافية، مؤكداً أن الآخر لن يستطيع أن يكون مؤثراً في العمق لدرجة التعبير والتأثير في الهوية، لأن الثقافة العربية ما زالت حصناً قوياً.

والأمر برمته يرجع كما قرر إبراهيم أصلان إلى الضمير الشخصي الذي يجب أن يحتكم إليه المثقف العربي، بما يمثله هذا الضمير من ضمان وحيد في ظل المناخات الغريبة التي نعيشها والإنقلابات والتراجعات، خاصة أن الثقافة ليست مرهونة بمواقف السياسيين، ولا يمكننا أن نقترح في فترة من الفترات ثقافة سلام، وفي فترة أخرى ثقافة حرب، لأن الثقافة هي بناء إنسان أكثر وعياً بتاريخه، وأكثر حلماً على تحقيق حلمه.

والمؤكد أن ثقافة السلام هذه دائماً ملتبسة لدى المصريين- في نظر الكاتب لطفي الخولي- بقضية الصراع مع إسرائيل، وهي قضية لو نظرنا إليها من منظور ضيق، فلن نستطيع التفاعل مع العالم، هذا في الوقت الذي لا نعتذر فيه عن مقاومتنا لكل أشكال العدوان، ولكن يجب النظر إلى ثقافة السلام من منظور واسع، بحيث يشمل الثقافة والسياسة والإقتصاد والعلاقات العربية ودول الجوار أيضاً.

وهو ما أشار إليه أيضاً د. أسامة الباز - وكيل وزارة الخارجية ومدير مكتب رئيس الجمهورية للشؤون السياسية - في نفيه لإمكانية فرض ثقافة معينة على العرب، ولن يستطيع أحد فرض إعادة تشكيل الوعي والذهن في الوجدان العربي، كما حدث مع اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

ولذلك قرر فاروق حسني - وزير الثقافة - أن الطاقة الثقافية الوطنية، تلعب دوراً مهماً في خريطة العالم، باعتبارها سلطة متخصصة، تدفع عجلة الإقتصاد نحو النمو، وتفرض الثقافة المصرية في المنطقة، بجذورها المصرية القديمة والعربية، باعتبارها هي الثقافة الأقوى والأرحب والأقدر على إستيعاب كل ما حولها من ثقافات، عبر المسميات المختلفة لهذا الأمر، سواء كانت ثقافة سلام، أو ثقافة سوق شرق أوسطي.

عادل إمام وإسرائيل

والإختلاف بين وجهات النظر التي طرحها المثقفون المصريون في لقاءات المعرض الفكرية وندواته، توضح مدى اللهث الذي يجري فيه المثقف العربي - عموماً - لتنظير ما يحدده السياسي، سواء في تبرير الإنفتاح على الجيران والعالم، أو في مقاومة الإرهاب. وفي الحالتين ينسى الداعون إلى هذه الرؤى، إغتصاب الأراضي، كما ينسى المؤيدون الإرهاب المضاد.

ومن هنا جاءت الضجة التي صاحبت مقولات الفنان عادل إمام في أول إشتراك له بمعرض القاهرة الدولي للكتاب، حول مدى إمكانية الإستفادة من السلام القائم الآن مع إسرائيل، فإذا كان المصريون لم يستفيدوا من الحروب التي خاضوها ضد إسرائيل، فعليهم الآن الإنتباه إلى ضرورة الإستفادة من «السلام»، حتى لا تذهب الإفادة إلى الآخرين، كما ذهبت من قبل.

وأوضح أن المجتمعات العربية تعاني في مسألة التطبيع مع إسرائيل من شيزوفرينيا شديدة، خاصة أن الرئيس السابق السادات زار القدس، وهناك تبادل للسفراء وزيارات رسمية، هذا في الوقت الذي تكال في الإتهامات التي تصل إلى حد الخيانة الوطنية، للفنانين والمثقفين الذين يتعاملون مع إسرائيل، أو يتحدثون عنها، أو يقومون بزيارتها، والمؤكد أن السلام قادم لا محالة، وعلينا ألا نهتم بالفروع والدخول في قضايا جانبية هي خلافية، وهو ما يشتت الصفوف، ولا يجعلنا ننظر إلى الأمر نظرة واقعية.

وقامت الدنيا ولم تقعد عقب تصريحات عادل إمام، خاصة أن الذي فهم منها، إنها دعوة صريحة إلى التطبيع مع إسرائيل تصدر من فنان له هذه الشعبية الكاسحة، يتمثله الكثيرون بإعتباره نموذجاً للحياة، يسعى إليه الشباب، وهو ما لاحظه الكثيرون في اللقاء الفكري الذي عقده بالمعرض، إذا احتشد الجمهور بشكل رهيب في سراي اللقاءات، وأغلبهم من الشباب الذين جاءوا لمشاهدة

ابن الحلمية الجديدة والدرب الأحمر، لأول مرة مجاناً، بلا تذكرة سينما تصل إلى عشرة جنيهات، وبلا تذكرة مسرح تتجاوز المائة جنيهاً، الأمر الذي دفع د. سمير سرحان إلى وصف عادل إمام بأنه فنان الشعب.

وعقب الضجة سارع عادل إمام إلى إعلان نفيه لأي دعاوى تطبيعية فُهمت من كلامه مع إسرائيل، مؤكداً أنه لم ولن يفعل ذلك، وأن التحريف الذي تمّ في كلامه هو إستغلال سيء وغير شريف من قبل أصحاب وجهة النظر الداعية إلى التطبيع.

والقضية بالطبع لم تكن تستحق كل هذه الضجة بعد الوصول إلى مفترق الطرق الذي تعيشه الأمة العربية حالياً، إذ يمتلك عادل إمام - وغيره من الفنانين - الحرية الكاملة في الدعوة إلى التطبيع أو حتى الذهاب إلى إسرائيل، كما ذهب أصدقاء له آخرون - كما الحال مع الكاتب علي سالم - وإذا كان الخوف هو من تأثير فنان جماهيري بحجم عادل إمام في الدعوة إلى التطبيع، فيبدو أن الأمر أمسى متروكاً - كما قرر إبراهيم أصلان - للضمير الشخصي لكل فرد، في الإيمان أو الكفر بهذه الدعوات.

اليسار والحكومة

والملاحظة التي أثارت إنتباه الكثيرين في هذه الدورة من معرض الكتاب، هي غياب ممثلي التيار الإسلامي - معتدلين ومتشددين - عن لقاءات المعرض وندواته، مما ترك الساحة خالية لليسار بكافة تياراته في مواجهة ممثلي ومثقفي الحكومة، التي بدت مواجهة بين الإشتراكية والرأسمالية التي تتخذ أسماءً جديدة ومعاصرة، لها بريقها الثقافي، مثل الكوكبية والكونية والجات والإقتصاد الحر وأيضاً الثقافة الحرة.

وبينما يرى د. محمد نور فرحات ملاحظات عدة على نموذج الكونية ووحدة الكوكب الأرضي، تتمثل في التدخل في شؤون القانون الدولي، والذي يتمّ من جانب بعض الدول الرأسمالية بغرض تحقيق نموذج المجتمع القديم، وإذا كان النظام العالمي يعتمد الآن على قوانين السوق المفتوح على المستوى الفكري، فإنه يضع قيوداً صارمة على تعاملات الدول الصغرى مع الدول الكبرى، وأهم ما يشغلنا الآن هو ضرورة الوعي التاريخي، وعلاقته بما يحدث في مجتمعنا اليوم، وكيفية فهم المثقفين لهذه الضرورة، حتى لا نقع في الوعي التاريخي المزيّف، الذي أدى إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية والخلافة العباسية والإتحاد السوفييتي.

ومثل هذا الفهم من جانب المثقفين لهذه الضرورات، لن يتأتى إلا في إطار علاقات رشيدة بين المثقف والسلطة، تلك العلاقة التي يراها خالد محيي الدين - رئيس حزب التجمّع الوطني التقدمي الوحدوي - قائمة على الخلاف الدائم، لما يتمتع به المثقف من عقل ناقد ومتمرد وحالم، بينما

يفرض النظام المعقد للدولة حدوداً خاصة في السياسات التي تنتهجها، مما يوجب تغيير سياسة الدولة تجاه المثقفين، باعتبارهم أداة الدخول الرئيسية للقرن القادم.

ويرى الناقد إبراهيم فتحي دور المثقف في دفع الناس للتخلص من الخضوع للتبعية الجوفاء، وأن يدل ويرشد على الأرض الوطنية الثابتة، التي ننطلق منها، ونخلق لأنفسنا إستقلالاً ثقافياً وبالتالي سياسياً وإقتصادياً، يحفظ لنا تراثنا وملامح هويتنا، ولذلك نجد التيار العقلاني في الثقافة الإسلامية يحترم قيم وحرية الإنسان، ولا ينساق لتيارات تغريب الإنسان التي تؤدي إلى إعلان التعصّب والطائفية والهبوط بالإنسان إلى مستوى الغرائز الحسيّة.

ومن هنا جاءت أهمية ما طرحه المؤرخ د. رفعت السعيد في سؤاله عن العنف والتطرف والمصادر المختلفة لهما، التي تأتي من الخلط بين الدين الصحيح وبين إجتهادات الأفراد، والإنتقاء والتفسير، والقول بفكرة الخلافة. وإذا كان هذا العنف في نظره يبدأ فكراً، فإنه لا ينتهي كذلك، وأن الإرهاب يتعلمه الطالب في المدرسة، كما يتشربه من وسائل الإعلام الحكومية.

وغياب ممثلي التيّار الديني، جعل من عدد كبير من ندوات المعرض ساحة للإختلاف حول بعض التفاصيل بين اليسار والحكومة، وخاصة قضايا الإرهاب والعنف، التي وضعت الحكومة واليسار في خندق واحد، لا اختلاف فيه إلاّ حول أساليب المواجهة والمعالجة. ولكنها في ذات الوقت طرحت مدى التقرب بين اليسار في مصر والحكومة الآن، وهو ما يجعلنا نقرر أن آليات التواجد على الساحة التي يحرص عليها عدد كبير من اليساريين تحتاج إلى إعادة نظر، خاصة أن هذا الحرص أفقدهم الكثير من جماهيرية الشارع، التي راهنوا على الإرتفاع بوعيها في السابق.

وتبقى للمعرض بهجته وفرحته وما يحتاج بالفعل إليه هو تنظيمه وترتيبه، مما حدا بإتحاد الناشرين العرب وإتحاد الناشرين المصريين، إلى إعلان المشاركة في تنظيمه إلى جانب هيئة الكتاب المصرية بدءاً من العام القادم.

رسالة القدس

(من خالد درويش)

59 مثقفاً فلسطينياً يدينون العنف

تسعة وخمسون مثقفاً فلسطينياً في الضفة والقطاع تابعوا مشاهد العنف والموت التي طغت على البلاد في مطلع آذار 96 «بشعور من الغضب والرفض لمحاولة فرض أجندة دموية ومعادية لتطلعات شعبنا في الحرية والسلام والأمان».

وأدان المثقفون، في بيان وجهوه إلى الرأي العام، أحداث العنف التي تذهب بالأبرياء ورأوا أن مسيرة السلام، هي أكبر من أن يعالجها العسكريون وحذّروا من إتّباع الأساليب التي تعمل على بث الحقد والكراهية.

وفي الوقت الذي حذّروا فيه من المعالجات القائمة على ردود الفعل والإنتقام الجماعي، دعوا رئيس حكومة إسرائيل والشعب الإسرائيلي إلى تحكيم العقل وعدم الدخول في سباق مع الدعوات المحمومة لليمين المتطرف.

وعبّر المثقفون الفلسطينيون عن إيمانهم بأن خطوات المعالجة الجذرية لقطع دابر العنف والعنف المضاد تنطلق بالأساس من الإقرار بحق الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي في الحرية والإستقلال. ودعوا المثقفين والأدباء والفنانين في إسرائيل إلى التحرك السريع والمشترك لتنسيق الخطوات والتصديّ لمحاولة تقويض ما تمّ إنجازه.

الموقّعون على البيان: * يحيى يخلف / روائي * عبّاس شبلاق / أكاديمي * زكريا محمد / شاعر * جمال الأفغاني / فنّان تشكيلي * محمود شقير / روائي * مرعي عبد الرحمن / باحث * غسان زقطان / شاعر * بسام عثمان / صحفي * نعيم ناصر / صحفي * سلافة الحجاوي / شاعرة * محمد

سليمان/ صحفي * ميسر أبو علي/ سينمائية * مهند عبد الحميد/ صحفي * جواد الجعبري/ مترجم * إبراهيم سجدية/ صحفي * محمد بحيص/ علاقات عامة * خالد درويش/ صحفي وشاعر * عزت غزاوي/ كاتب * سميح شبيب/ كاتب * أحمد حرب/ كاتب * صافي صافي/ كاتب * أسعد الأسعد/ كاتب * حنان عشراوي/ ناقدة وأكاديمية * خالد حوراني/ فنّان تشكيلي * سليمان منصور/ فنّان تشكيلي * نبيل عناني/ فنان تشكيلي * تيسير بركات/ فنان تشكيلي * جواد المالحي/ فنان تشكيلي * طالب الدويك/ فنان تشكيلي * تيسير شرف/ فنان تشكيلي * خالد حجازي/ فنان تشكيلي * إبراهيم المزين/ فنان تشكيلي * علي الخليلي/ كاتب وشاعر *حاتم عباس/ محام * ماجدة البطش/ صحفية * حسن البطل/ صحفي * حسني رضوان/ فنان تشكيلي * عدنان داغر/ كاتب * جاك خزمو/ كاتب وصحفي * محمد عليان/ كاتب * عطا القيمري/ كاتب * توفيق وصفي/ صحفي * طلعت موسى/ صحفي * رمضان العطّار/ صحفي * سليمان إبراهيم/ صحفي * زياد عبد الفتاح/ صحفي * علي حسين/ صحفي * محمد الشرفي/ صحفي * شادية الحلو/ ناقدة * فتحية نصرو/ أكاديمية * فضل طهبوب/ صحفي * هاني عرفات/ صحفي * جورج إبراهيم/ مسرحي * حسام أبو عيشة/ مسرحي * أحمد أبو سلعوم/ مسرحي * عامر خليل/ مسرحي * عدنان أبو سنينة/ مسرحي * خالد المصو/ مسرحي * جميل السايح/ فنان.

«حكاية الجواهر الثلاث»



ميشيل خليفي

بغياب المنتدى الثقافي، أو المقهى الذي يجمع زملاء الكلام، على غرار «قنديل» دمشق أو «فينيق» عمان، ثمة أيام، على ندرتها، في رام الله والقدس، في الخليل أو نابلس، يلتقي فيها الأصدقاء القدامى والجدد بمناسبة ثقافية ما، يتبادلون فيها التحيات والتمنيات والأسئلة.

هذا ما حدث مساء 26/2/1996، حيث التأم شمل بعض ناس الثقافة في رام الله، في أمسية خصصها «مسرح السراج»، برعاية وزارة الثقافة الفلسطينية، لعرض فيلم «حكاية الجواهر الثلاث» للفلسطيني ميشيل خليفي - الفيلم الروائي الأول في ظل السلطة الوطنية.

النصراوي ميشيل خليفي (46 عاماً) حضر العرض وقدم لفيلمه، وهو السادس بعد «الذاكرة

الخصبة»، «معلول تحتفل بدمارها»، «عرس الجليل»، «نشيد الحجر» و«جدول العمل»، كالتالي:

«ذهبنا إلى غزة لتحقيق حلم تصوير أول فيلم روائي هناك، مع أهل غزة، في حياتهم اليومية؛ ومن أجل اكتشاف واقع سحري في هذه الأرض التي تجمّع فيها الذل والعنف، الكراهية والعشق، القوة والضعف، بل الواقع والأسطورة. أردناها حكاية عصرية تفيض بالحب الطفولي والأرض والشمس والبرتقال والبحر - هذه المكونات الرائعة والأساسية للدفاع عن الإنسان وعن الحياة نفسها».

وعلى مدار حوالي ساعة ونصف الساعة شاهدنا يوسف (محمد النحال) إبن الثانية عشرة من مخيم غزاوي للاجئين، وهو يمضي في مغامرة حياتية لا تخلو من إيقاع وجودي، بحثاً عن «الجواهر الثلاث» - ذاته وحريته في مناخ طغى عليه العنف والحرمان.

يعيش يوسف مع والدته (بشرى قرمان) وأخته (راندة آدون). والده معتقل وأخوه تطارده الوحدات الخاصة الإسرائيلية.. والجميع هنا بجوار البحر - رمز العظمة والخصب والحرية - إلاّ أنهم أدمنوا نسيانه لكثرة سنوات الإحتلال الذي منعهم خلالها ولا زال من مقاربة حدّ الماء.. فلا يبقى ليوسف غير الهروب من هذا الواقع في كل سانحة ليحتمي بالخيال والبراري والعصافير.

وفي يوم من أيام خلوته، وبينما كان يصطاد العصافير، يقع يوسف في حب عايدة (هناء نعمة) - فتاة غجرية، ساحرة الشخصية وقوية.. ولكي تقبل به «زوجاً»، تحقيقاً لرغبته، تشترط عليه أن يبحث عن الجواهر المفقودة من عقد جدة أبيها (ضرار سليمان) الذي حمله لها جد أبيها من جنوب أمريكا - حسب ذاكرتها - ولكن «أبو عايدة» (محمد بكري) يذكّر الجدة بأن الجواهر ضاعت في يافا وليس في جنوب أمريكا.

ويجد يوسف بين المدن باحثاً عن سبيل يوصله إلى أمريكا. يساعده في ذلك زميله في الدراسة، صلاح (غسان أبو لبدة). مغامرة عسيرة تتداخل وواقع غزة المضطرب، تؤدي به إلى حافة الهلاك، ليولد من جديد بعد أن تظهر له رؤيا تحمله إلى عجوز حكيم يقرأ عليه كلمات منقوشة على مخطوطة قديمة.. ويستيقظ يوسف ليجد أن الجواهر الثلاث عادت إلى مكانها في العقد.

تجربة جديدة لميشيل خليفي اعتمد فيها على القدرة الواضحة للممثلين وعلى الدعم التقني البلجيكي، البريطاني والسويسري، ليزيد في رصيده كمخرج جيّد وجاد في بحثه الدائم عن أدوات وحلول فنية تحمله إلى رحاب سينما العالم.. ولكن مغامرة يوسف - بطل الجواهر الثلاث - لا يضاهيها غير مغامرة الفلسطيني في التأسيس لحركة سينمائية في مجتمع يفتقر إلى دور للعرض.

«حارة القزازين»

من عادة السائح، بعدما يفرغ من زيارة القلاع والمتاحف والأماكن العالية ليحتفظ في ذاكرته وعلى

الصور بمشهد بانورامي شامل للمدينة التي يزورها، أن يتجول في الحواري القديمة ليتأمل تجليات المهارة اليدوية من صدف ونحاس وفضة وزجاج وخشب. إبداعات لا ترقى إليها الآلات الحديثة، احتفظت بقيمتها منذ الإنسان الأول وظلّت تشكل عنصراً أساسياً في حضارة الناس.

تعتبر صناعة التحف الزجاجية من أصعب وأقدم هذه الحرف.. وأوسعها إنتشاراً، وفي الوقت الذي تبذل فيه المجتمعات المتحضرة ما بوسعها للحفاظ على هذا «الكار» وتطويره، نلاحظ الضمور في هذه الحرفة في مدننا العريقة.

عرفت مدينة الخليل التصنيع اليدوي للزجاج منذ العصور الوسطى. وكان مهرة المدينة يقومون بهذه الحرفة في إسطنبول التركية، وسالونيكي اليونانية، وغيرهما من المدن والحواضر. واستمدت بعض الأحياء الخليلية القديمة أسماءها من هذه الحرفة، وأشهرها «حارة القزازين» وسط المدينة، لكثرة العاملين بالزجاج في ذلك الحي، ناهيك عن عائلات كبيرة تنحدر من سلالة «القزازين» تحمل هذا الإسم حتى اليوم. ومنهم أحد أشهر العاملين في الإذاعة الفلسطينية، يوسف القزاز.

هذه الصناعة التقليدية - وهي تمثل جانباً من التراث الوطني - تتعرض، اليوم، للإندثار، بسبب ضآلة السياحة، وقلّة العاملين في هذه الصنعة، وغفلة المؤسسات المعنية (ثقافية، سياحية، إقتصادية) عن دعم هذا القطاع المتميز.

قبل سنوات، كان في الخليل ستة أو سبعة مصانع. واليوم لم يبق سوى مصنعين يتهددهما إحتمال التوقف، بسبب الظروف السياسية والأمنية الخاصة في المدينة.

ومن أبرز مشاكل صناعة الزجاج قلّة الأيدي العاملة، لصعوبة ظروف العمل، وصعوبة إنجاز الأشكال الفنية الزجاجية، إضافة إلى صعوبة تحمّل درجة حرارة الفرن التي تصل إلى 1000 درجة مئوية، وخاصة مع إنعدام حوافز مادية ومعنوية مناسبة.

وينتظر صنّاع الزجاج اليدوي قدوم السلطة الوطنية إلى المدينة لتساعد على إنتشال هذه الصناعة من إنحدارها المتسارع، وذلك بتخفيف الضرائب وتقديم العون لما تبقى من ورشات هذا «الكار»، وطبعاً مع المساهمة في تدريب مهرة جدد.

متحف في نابلس

تبرّع الثري الفلسطيني، صبيح المصري، بخمسة ملايين دينار أردني لتشكيل نواة رأسمال المؤسسة الثقافية التي تحمل إسم رئيس بلدية نابلس ظافر المصري الذي اغتيل في الثمانينات.

وبعد أن نقلت المؤسسة مقرها الرئيس من عمان إلى نابلس، لم تعد تكتفي بتقديم الدعم المادي للمشاريع والمبادرات، ووضعت برنامجاً طموحاً ستعمل على تحقيقه. والإهتمام يتركز على التراث

والآثار وتشجيع الإبداع الفلسطيني من خلال جوائز سنوية سخية. وأهم المشاريع في هذا البرنامج إقامة متحف في مدرسة الشهيد ظافر المصري بنابلس، التي تقوم على موقع أثري. وسيضم المتحف آثاراً منقولة سيتم تجميعها - كما أكد الدكتور خير نمر ياسين، مدير المؤسسة - بإتباع سياسة تشجيع الأفراد والمؤسسات على التبرع بها أو بيعها عند الضرورة.

إضافة إلى متحف الآثار ستقيم المؤسسة متحفاً للتراث يحفظ تاريخ المدينة. وسيتم، كذلك، تحويل أحد أكبر منتزهات المدينة إلى حديقة ألعاب للأطفال، من بعد تجهيزها بما يلزم، وإقامة مكتبات عامة للأطفال.

على صعيد آخر، ستوفر المؤسسة مركزاً لحفظ الوثائق والمخطوطات القيّمة على أسس عصرية، وتصدر نشرة حول الوثائق والمخطوطات. يدير المؤسسة مجلس إدارة من سبعة أشخاص وعضوية الهيئة العامة مفتوحة لكل من يلتزم بتسديد إشتراك بقيمة 20 ألف دينار أردني، تُسددّ على مدى خمس سنوات.

تشجيعاً لعادة القراءة..

* ريع مسرحية «أنصار» سيذهب لصالح بناء وتجهيز مقصف للأسرى الفلسطينيين في سجون إسرائيل. المسرحية عرضت يوم السبت 3/3/1996 على مسرح جامعة بيت لحم، بدعوة من «نادي الأسير» و«إتحاد لجان المرأة للعمل الإجتماعي»، وهي من تمثيل: إسماعيل الدباغ ونضال الخطيب، والإخراج لفاتح عزام. وسبق للمسرحية، وهي من إنتاج «مسرح الرواة» و«المسرح الوطني الفلسطيني»، أن عرضت في مهرجانات عربية ودولية.

* على مدى ثلاثة أيام (1 - 3/3/1996) نظّم مجلس طلبة كلية الهندسة والتكنولوجيا في جامعة الخليل، معرضاً للكتاب، هو الثاني من نوعه. في الإفتتاح لاحظ المنظمون أحد أبرز أسباب المعرض، وهو غلاء أسعار الكتب، بينما هي غذاء للعقل وللروح. واشتمل المعرض أيضاً على أعمال فنية وصور لشهداء مذبحة الحرم الإبراهيمي وجناح لمشغولات السجناء.

* من بعد عرضه في القدس وفي غزة، عرضت لوحات «المعرض التشكيلي العربي الأول» في «كلية فلسطين» برام الله، بدءاً من 26/2/1996. في الإفتتاح لاحظ الفنان التشكيلي سليمان منصور، أن إنقطاعاً خلال سنوات الإحتلال، حصل في تفاعل الحركة الثقافية الفلسطينية بالحركة العربية. وأشار منصور، متحدثاً عن «مركز الواسطي» في القدس الذي نظم العرض الأول

للمعرض، أن اللوحات تمثل تجارب في الفن التشكيلي العربي المعاصر متأثرة بحضارات المنطقة والفنون الإسلامية، والتوجهات الفنية الحديثة.

المعرض في رام الله افتتحه وزير التربية الفلسطيني، ياسر عمرو، والملحق الفرنسي، ميلكا بيراك، واللوحات هي جزء من مجموعة «معهد العالم العربي» بباريس.

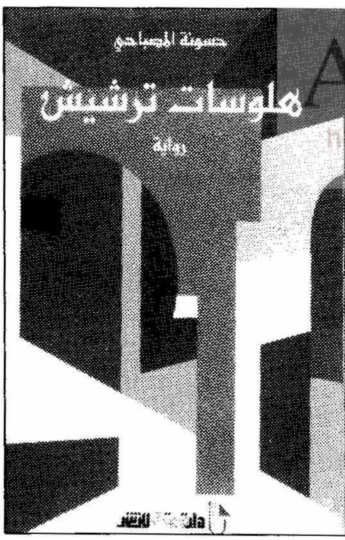
* كتاب «من الأمثال والأقوال والتعابير الشعبية الفلسطينية» صدر مؤخراً، عن «مكتب بير زيت للصحافة والنشر» في 190 صفحة من القطع المتوسط. وفي مقدمة الكتاب بحث عن علاقة ذلك بالقصة، إضافة إلى عرض للغة الأمثال وبلاغتها، تدوينها وتصنيفها.

* نظم كشاف الروم الكاثوليك في بيت ساحور معرضاً للكتاب على مدى خمسة أيام (4-3/9/1996) وذلك في قاعة مدرسة الروم الكاثوليك، وبرعاية المطران لطفي اللحام.

* قانون، ناي، جيتارة، عود، ترمبيت، بيانو.. آلات موسيقية سيتعلم العزف عليها المنتسبون للمعهد الوطني للموسيقى بجامعة بير زيت. وكانت إدارة المعهد أعلنت عن فتح باب التسجيل يوم 12/2/1996 للراغبين من عمر 6 سنوات وأكثر. ويستعين المعهد بمدرسين متخصصين من عرب وأجانب مثل حافظ العشي، راسل باكرد، محمد فضل، بيتينا غروناوالد، ريم تلحمي وغيرهم.

مكتبة «مشارف»

«هلوسات ترشيش» - رواية لحسونة المصباحي



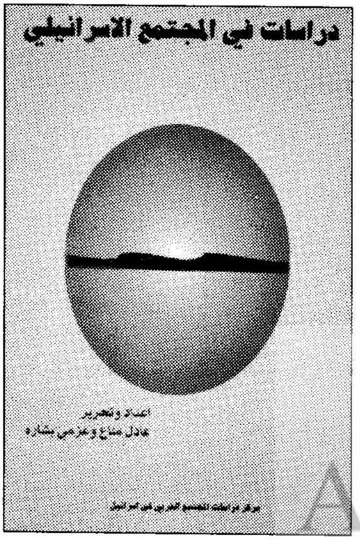
* حسونة المصباحي يأخذنا في روايته «هلوسات ترشيش» إلى رحاب تونس. و«ترشيش» هو الإسم الأول لتونس العاصمة، كما يؤكد لنا المصباحي في إشارته الإفتتاحية.

والرواية صادرة عن «دار توبقال للنشر» المغربية في طبعة أنيقة كما عودتنا هذه الدار. يزيّن الغلاف تصميم للفنان بلخوجة. وقد اكتفوا بنشر إسمه هكذا ربما لأنه معروف هكذا في المغرب العربي ولا يسعنا إلاّ أن نعرفه نحن هنا كما يعرفونه هم هناك!

الرواية تقع في (150) صفحة من القطع المتوسط. وهي تحكي هموم هذا المثقف العربي (الكاتب) في المرحلة الراهنة إزاء الواقع العربي من خلال الحديث عن شخوص وأمكنة وأزمنة محددة. فإذ بشخوصه تتكرر هنا وهناك وإذ بأمكنته قائمة في كل مكان وإذ بأزمنته تشكّل زماناً عربياً واحداً.

حسونة المصباحي يجيد الرواية ويجيد الغوص في تفاصيلها ليعطينا شهادة ورؤية وموقفاً وتوصيفاً لوضع مركّب معقّد يعيشه هو ويعيشه المثقف المدرك للوضع وأكثر للخطورة الكامنة فيه.

«دراسات في المجتمع الإسرائيلي» - كتاب جديد عن مركز دراسات المجتمع العربي في إسرائيل



* «دراسات في المجتمع الإسرائيلي» - هو كتاب جديد صادر عن «مركز دراسات المجتمع العربي في إسرائيل»، إعداد وتحرير عادل منّاع وعزمي بشارة.

والكتاب يقع في 318 صفحة من القطع الكبير ويضم عدة دراسات في المجتمع الإسرائيلي، وهي: «الدمقراطية والأمن في حالة صراع مستديم» لدان هوروفيتس وموشيه ليساك و«حزب مباي بين التحول الدمقراطي والتحول الليبرالي: حول صحة الثنائية المتناقضة دولة/ مجتمع مدني» لليف چرينبرغ و«دوامة الدين والدولة في إسرائيل» لعزمي بشارة و«أشكال التكيّف الإثني: هجرة يهود العراق ويهود المغرب إلى إسرائيل، دراسة مقارنة» - أليكس واينجرود، و«الإنتماء الإثني والهجرة: مسألة الهجرة السوفييتية إلى إسرائيل» لماجد الحاج، و«النساء اليهوديات والفلسطينيات في إسرائيل» لبربرا سفيرسكي ومنار حسن و«النظام الإقتصادي في إسرائيل: هيمنة السياسة بين الإنجازات والإخفاقات» لعزيز حيدر و«المستوطنات والحدود: التصورات الإسرائيلية للحل الدائم» لجوزيف ألفير.

واضعو الدراسات معروفون بتوجهاتهم النقدية، الأمر الذي يجعل من الكتاب والدراسات التي بين أيدينا زاوية أخرى لرؤية القضايا الإسرائيلية المطروحة.

الكتاب هو ثمرة دورة أكاديمية حول المجتمع الإسرائيلي عُقدت في مقر «جمعية الدراسات العربية» في القدس بالتعاون مع «مركز دراسات المجتمع العربي في إسرائيل» و«المركز الدولي» التابع للهستدروت.

يقدّم للكتاب عادل مناع وعزمي بشارة فيتوقفان، بإيجاز، عند مضامين الدراسات وقرار الدارسين.

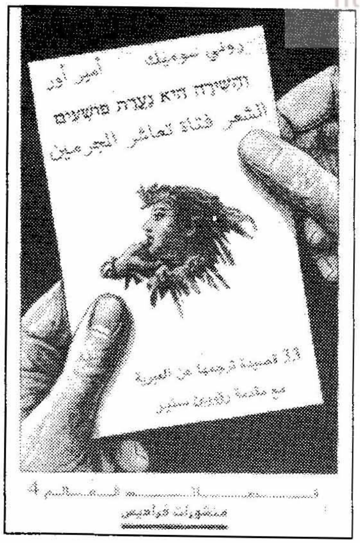
نصوص نتان زاخ وروني سوميك وأمير أور مترجمة إلى العربية من «منشورات فراديس» (باريس)



* عن «منشورات فراديس» في باريس وصلنا عملان مترجمان إلى العربية. الأول: «الشعر فتاة تعاشر المجرمين»، وهي مجموعة مُترجمة عن العبرية للشاعرين روني سوميك وأمير أور. والثاني: قصائد مختلفة للشاعر نتان زاخ.

و«فراديس» تفتح الباب هنا لندخل عالم الشعر العبري من خلال نصوص لشعراء عبريين معروفين. وقد أنجز الترجمة رؤوبين سنير.

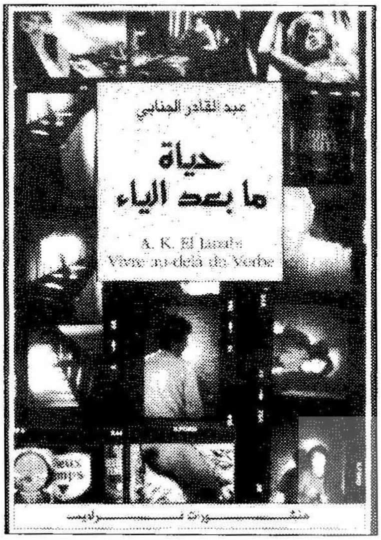
والعملان يأتيان في إطار سلسلة «قصائد العالم» التي تصدرها «منشورات فراديس» التي يشرف عليها عبد القادر الجنابي الذي أضاف إلى نصوص نتان زاخ الشعرية حواراً مع زاخ. والحوار لا يقل شاعرية البتّة عن شعر زاخ. فردوده القصيرة مختزلة ومكثفة شعرية حتى النخاع. هذا ناهيك عن أن الحوار جرى بطريقة غرائبية حسب شهادة الجنابي.



وسنير لا يكتفي بالترجمة فهو يقدم لقصائد سوميك وأور ويتوقف عند هبوط مكانة الشعر والشعراء ويقول: «أما الآن فأبطال الثقافة ليسوا إلاّ نجوم البرامج الترفيهية في التلفزيون على مختلف قنواته الذين باتوا معبودي الجماهير في حين أصبح الشعراء جماعة من المنسيين الذين لا لزوم لهم».

وفي العملين المذكورين يبدو فعل التثاقف بين النص الشعري العبري والعربية فعلاً نشطاً وطبيعياً. هناك بعيداً في باريس يهتم عبد القادر الجنابي بأن يُترجم فضاءات الشعر العبري إلى العربية.

«حياة ما بعد الياء» ـ النص المختلف لعبد القادر الجنابي



* عبد القادر الجنابي يواصل شطحاته غير المألوفة في «حياة ما بعد الياء» وذلك بعد أن عرّفنا عليها في «تربية عبد القادر الجنابي».

والجنابي في كتابه الصادر عن «منشورات فراديس»، يلبس قمصاناً عديدة: قميص العابث الماجن العربيد، وقميص الحكيم الذي تأتيه الحكمة فينطق بها مختزلاً تجربة عمر أو دهر أو حقبة.. وقميص القاص يحكي لنا ما تيسّر، وقميص الناسك الورع التقي. هذه التناقضات الرائعة بين قميص وقميص تجعلنا نقف أمام عمل أدبي لا يمكن تصنيفه وفق الجانرات المعروفة.. وعليه من الصعب وضع الجنابي في أي خانة من الخانات المعروفة.

وخلال القراءة لا يُمكن التحرر من رائحة الخمر تتسلل إلى حواسك بالنظر إلى نصوصه المكتوبة. فالخمر الذي يحرك فيه الأشياء نطالعه في النصوص المتحركة والمتماوجة لتعلن اختلافها في الشكل والمضمون.

د. فاروق مواسي في عملين جديدين، شعري وقصصي



* د. فاروق مواسي المعروف بغزارة إنتاجه الأدبي المتنوّع، يعود إلينا بإنتاجين جديدين. الأول: «لما فقدت معناها الأسماء»، شعراً. والثاني: «أمام المرآة» ـ مجموعة قصصية.

والبارز في المجموعة الشعرية أن شاعرنا يدمج بين الشعر العامودي (القصيدة الحديثة) وبين الشعر التقليدي (صدر وعجز) كأنه يريد أن يقول لا وجود لهذا دون ذاك أو بالإمكان أن يكون هذا بجوار ذاك أو أن هذا وذاك هما واحد!

ود. مواسي في مجموعته (80 صفحة من القطع الصغير) يحمل «هموم العالم». فيكتبها من خلال موقع الذات



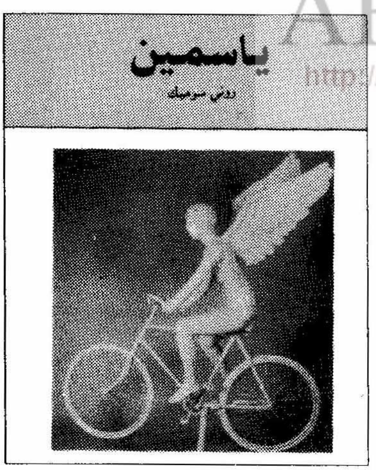
وانعكاس هذه الهموم عليها. فبعد أن يكتب لزوجته رفيقة عمره يطير بنا إلى المغرب ليبوح بمشاعره إزاء الضحايا التي أوقعها سيل في المغرب.

أما القصيدة الأخيرة فتحكي حزنه الروحي إزاء ما يلف البيئة الشعرية من زيف ورياء لكنه لا يفقد الأمل!

وفي مجموعة «أمام المرآة» القصصية، يبدو لنا الشاعر / الكاتب قاصاً موجزاً يخرج بنا إلى شطحات قصيرة تحكي، بإشارات وإضاءات، زوايا من الحياة اليومية.

المجموعة تضمّ قصصاً كانت نُشرت في مجموعة سابقة وقصصاً إضافية جديدة.

«ياسمين» ـ نصوص شعرية مترجمة لروني سوميك



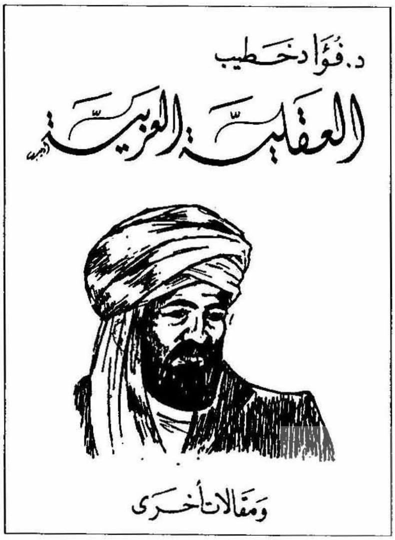
* «ياسمين» ـ عنوان مجموعة قصائد لروني سوميك مترجمة للغة العربية. المجموعة تقع في 26 صفحة من القطع المتوسط.

في المجموعة نصوص شعرية متنوعة لروني سوميك الذي يبدي في شعره خروجاً واعياً ومحسوباً عن الخطوط العامة للمؤسسة الشعرية التقليدية. فهو يُصر في قصائده على الخروج المتعمد نحو الآخر / العربي حتى ليخيّل إليك أحياناً أن العلاقة بين سوميك وهذا الآخر دافئة وحميمة، على نحو تُلغي الحدود والسدود كلها.

ويبدو من نصوص سوميك أنه يحترف تفجير القائم وتحطيم كل زجاجه وقيوده ليخرج ذات اليمين وذات اليسار يحكي عن الآخر كأنه يحكي عن نفسه.

أنجز الترجمة الشاعر سميح القاسم.

«العقلية العربية» ـ مجموعة مقالات كتبها د. فؤاد خطيب



* د. فؤاد خطيب (شفاعمرو) أعطى كتابه الذي يضم عشرات المقالات في عشرات المواضيع عنواناً مثيراً وهو «العقلية العربية». وهذا العنوان هو للمقال الإفتتاحي في الكتاب.

وينشغل د. فؤاد خطيب، وهو طبيب، في محاولة فهم العقلية العربية في عدة سياقات ومن خلال عدة قضايا، والعقلية بالنسبة له كما سجّل ذلك: «نمط تفكير جماعي متوارث لها ركيزتان: العقل البشري بمعناه الحسي الوجودي، أي الدماغ، إذ بدونه لا تكون هناك عقلية أو نشاط ذهني لفرد أو جماعة. والركيزة الثانية هي صور التفكير ومخزونات الذاكرة التي جمعها هذا العقل خلال حياته الإنسانية القصيرة...».

إضافة إلى قضية «العقلية العربية» يتطرق فؤاد خطيب إلى سلسلة من قضايا العصر ساعياً إلى طرح تساؤلات أو إلى إعطاء أجوبة.

الكتاب صادر عن «دائرة الثقافة العربية في وزارة المعارف والثقافة». الكتاب واقع في 149 صفحة من القطع المتوسط، وتزينه لوحة صممها الكاتب.

الهم الفلسطيني موضوع أعمال سهام عارضة



* سهام عارضة (جنين) بعثت إلينا بأربعة نتاجات وهي «دروب الشتات» ـ مجموعة قصصية، و«جمل المحامل» ـ مجموعة قصصية، و«الرؤيا» ـ مسرحية، و«مسرح المدرسة» ـ مسرحيات تربوية. وهذه الأعمال ليست حديثة العهد. فآخرها مجموعة «دروب الشتات» الصادرة عن «منشورات المركز الفلسطيني للثقافة والإعلام».

والكاتبة من مواليد حيفا (1947) وسكان جنين، حاصلة على ليسانس لغة عربية من جامعة القاهرة وتعمل في التدريس، ولها تحت الطبع: «كلمات من ذاكرة سجين» ـ مجموعة شعرية

وسيصدر لاحقاً لها، كما تعدنا، ثلاثة أعمال أدبية جديدة.

والكاتبة تعالج في قصص مجموعتها الأخيرة الحياة الفلسطينية على تفاصيلها السياسية والإجتماعية محاولة أن تنقلها كما هي في الواقع. ويطغى عليها الهم الجماعي الفلسطيني، فتكرّس له حبرها وقلمها ومساحة أوراقها كلها.

«النزلة» - الرواية الأولى في ثلاثية روائية للدكتور نمر سرحان



* «النزلة» - هي الرواية الأولى في ثلاثية الدكتور نمر سرحان (فلسطيني الأصل، مولود في السنديانة - حيفا - ويعيش الآن في الأردن) الذي يعدنا برواية «باقة» (تحت الطبع) ومن ثم «نجمة».

والرواية كما جاء في تظهيرها تحكي فصلاً آخر من فصول القصة الفلسطينية. فهي «تقدم لنا بطلاً غير تقليدي. فعلى الرغم من أنه مناضل مارس ويمارس الكفاح المسلّح، إلا أنه وبعد أن رأى الهزيمة ماثلة أمام عينيه في أواسط عام 1948 حاول أن يفر إلى داخل فلسطين، بدلاً من الخروج لاجئاً إلى الأرض التي ظلّت خارج الإحتلال».

وهذا البطل، بطل في ظروف غير عادية فقد «ظل يدعو للبقاء في الأرض تحت شعار أن البقاء، حتى تحت حكم المحتلين، هو الأمثل وهو الأصح وهو المدخل للصمود والمقاومة من الداخل» وهو بطل «واقعي، تخلّص من الوهم ويعيش وسط جيل مهزوم، ومع ذلك لا ييأس».

الرواية صادرة عن «جمعية عمال المطابع التعاونية» في عمان. وتقع في 143 صفحة من القطع المتوسط.

صدر للكاتب الدكتور نمر سرحان مجموعة قصص بعنوان «أبو خنفر» (1980) وسيرة بطل شعبي فلسطيني بعنوان «أبو إكباري» (1975). هذا إضافة إلى قصص قصيرة نُشرت في مجلات وصحف مختلفة.

أنيسة درويش - شاعرة تبوح بغير حدود

* أنيسة درويش من مواليد قرية المالحة/ القدس (1940) أصدرت، حتى الآن، خمس مجموعات

شعرية وصلنا منها ثلاث، وهي: «ستر الليل» و«الندى الجبلي.. يعرق» و«أنيسيات».

والشاعرة في قصائدها تبوح بغير حدود ولا تختصر لدى الغوص في كيان ذاتها والبحر الذي يجيش في صدرها. تُطلق العنان للفانتازيا فيها فيأتي شعرها بوحاً وغضباً وصراخاً واشتياقاً وشبقاً واحتراقاً.

وفي مجموعة «أنيسيات» تتول الشاعرة أشياءها باللغة المحكية.

المجموعات الثلاث صادرة عن «دار الكاتب» في رام الله التي أخرجتها إخراجاً أنيقاً.



(مرزوق حلبي)